



## صلاة المسيح في يوحنا ١٧

«ليكونوا واحداً فينا»



صلاة المسيح في يوحنا ١٧

«ليكونوا واحداً فينا»

[فمن يقدر أن يفصل ويفصم

من هذا الاتحاد النافذ إلى عمق الطبيعة

أولئك الذين ارتبطوا بالوحدة في المسيح

بهذا الجسد المقدس الواحد ؟ !

لأننا إن كنّا كلنا «نشترك في الخبز الواحد»

فإننا نكون جميعاً جسداً واحداً باتمام،

لأن المسيح لا يمكن أن يتقسم !

فالمسيح في الواقع هو رابط الوحدة

بسبب كونه «أزواً واحداً» (لهاً وأنساناً)

القدّيس كيرلس الكبير





صلاة المسيح في يوحنا ١٧

«ليكونوا واحدًا فينا»



عدة كلمات أُلقيت على المبتدئين

بدير أنبا مقار

خلال عام ٢٠٠٧.

## المحتويات

كلمة تمهيدية: **المسيح في صلاته من أجلنا** ..... ٥

أقوال الآباء عن صلاة الرب من أجلنا ..... ١٦

أولاً: المسيح كان يصليّ كمثال لنا. .... ١٦

ثانياً: المسيح كان يصليّ كشفيع ورئيس كهنة من أجلنا. ... ١٨

ثالثاً: المسيح كان يصليّ كمن يحتوينا في نفسه: ..... ٢٢

**صلاة المسيح في إنجيل يوحنا ١٧** ..... ٢٩

الكلمة الأولى: مقدمة عامة عن صلاة المسيح في يوحنا ١٧ ..... ٣١

«تكلم يسوع بهذا، ورفع عينيه إلى السماء، وقال:...» ..... ٤٤

«أيها الآب...» ..... ٥١

الكلمة الثانية: «قد أنت الساعة مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً» (١ع) ... ٥٦

«وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك» ..... ٦٦

الكلمة الثالثة: «قدسهم في حقك. كلامك حق» (١٧ع) ..... ٨٠

«كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم» (١٨ع). ٩١

«ولأجلهم أقدمس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مُقدَّسين في الحق». ٩٣

الكلمة الرابعة: صلاة المسيح من أجل وحدة كنيسته: مقدمة ..... ١٠٩

«احفظهم في اسمك الذين أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن». ١١٦

العلاقة بين القداسة والوحدة ..... ١١٩

«كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» ١٢٦

«... ليؤمن العالم أنك أرسلتني». ..... ١٣٥

الكلمة الخامسة: «وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد» . ١٤٥

معنى المجد في المفهوم الروحي ..... ١٤٦

كيف ومتى أعطانا المسيح هذا المجد؟ ..... ١٥١

أولاً - بالإفخارستيا ..... ١٥١

ثانيًا - في غسل الأرجل ..... ١٥٣

ثالثًا - بالروح القدس ..... ١٥٧

رابعًا - بوصية المحبة ..... ١٦٠

كيف استوعب الرسل هذا المجد ..... ١٦٢

«ليكونوا واحدًا ἑνα» كيف يوحدنا هذا المجد؟ ..... ١٦٧

«... كما نحن واحد» καθὼς ..... ١٦٩

الكلمة السادسة: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد» ..... ١٧٤

«أنا فيهم...» ..... ١٧٤

«أنا فيهم وأنت فيّ...» ..... ١٨٦

«... ليكونوا مكملين إلى واحد» ..... ١٩٠

«وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني» ..... ١٩٤

مراجعة شاملة لطلبات الرب الثلاثة من أجل الوحدة ..... ٢٠٢

الكلمة السابعة: «أيها الآب أريد أن الذين أعطيتني يكونون معي» ..... ٢٠٧

«أيها الآب... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» ..... ٢٠٩

«أريد أن الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا» ..... ٢١٢

«... لينظروا مجدي الذي أعطيتني» ..... ٢١٨

كلمة تمهيدية:

## المسيح في صلواته من أجلنا

## المسيح في صلاته من أجلنا<sup>(١)</sup>

موسم الصوم الكبير هو موسم الصلاة والصوم. والكنيسة في هذا الموسم تضع أمامنا المسيح كمثال أعلى لنا في الصوم والصلاة.

واليوم سنقرأ بعض فقرات من مقالة ”المسيح في صلاته من أجلنا“<sup>(٢)</sup>، وهي تشرح ذلك معتمدة على أقوال القديسين أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير.

ولكن قبل أن ندخل في موضوعنا نقول: إنه من الضروري في هذه الأيام - أيام الصوم الكبير - أن نتنظم في صلاة نصف الليل التي تتم في القلاية لمدة ساعة قبل التسبحة، فهي فرصة فريدة للراهب في الصوم الكبير ليزوق سر التوحد أو سر الرهينة، حيث يكون الصمت تاماً في الدير، والراهب وحده أمام الله. وفي هذه اللحظات بالذات يتم تغيير الراهب داخلياً، ويُجري الله أثناءها عمليات التغيير الداخلية داخل نفس الراهب. كذلك يحس الراهب في هذه اللحظات بشركة عميقة من نوع فريد مع المسيح الذي كان يحب أن يعتزل في البراري ليُصلِّيَ لله أبيه، وكان أحياناً يقضي الليل كله في الصلاة لله، كما سنقرأ بعد قليل.

قول للقديس أثناسيوس:

[[كل صلاة صلاًها المخلص إنما قد صلاًها بالنيابة عن طبيعة الإنسان]]<sup>(٣)</sup>

(١) كلمة بتاريخ ٢٠٠٧/٣/٢.

(٢) هذه المقالة نُشرت في مجلة مرقس مايو ١٩٨١، ثم أُعيد نشرها ضمن كُتَيْب عنوانه ”المسيح في صلاته وصومه من أجلنا“، دار مجلة مرقس ١٩٩٤.

(٣) شرح مزمور ٦٨ 165 BEI 32, (in TLG Expositiones in Psalmos); PG 27, 305.28-30

المسيح هو ابن الله المتجسد. سرُّه أنه في شخصه الواحد، هو الله الكلمة، وهو نفسه "ابن الإنسان"، الذي يمثِّل الإنسان بالآلف واللام، فهو آدم الجديد. لذلك فإن كل ما عمله المسيح في الجسد عمله بالنيابة عن طبيعة الإنسان<sup>(٤)</sup>، أي لصالحنا نحن، وليس لصالحه هو، سواء كان ميلاده بالجسد أو معموديته أو صومه أربعين يومًا أو موته على الصليب أو قيامته أو صعوده. هذا مبدأ أساسي عند القديس أثناسيوس. ومن ضمن أعمال الرب: صلاته من أجلنا. فهي صلاة بالنيابة عن طبيعة الإنسان. لذلك نحن لنا نصيب في صلاة المسيح.

#### قول للقديس كيرلس عامود الدين

[نحن الذين كنّا فيه نصليّ بصراخ شديد ودموع ونطلب أن يُطل  
سلطان الموت]<sup>(٥)</sup>.

يقول القديس كيرلس ذلك في معرض شرحه لآية بولس الرسول:

«الذي في أيام جسده إذ قدّم بصراخ شديد ودموع طلباتٍ  
وتضرعاتٍ للقادر أن يخلّصه من الموت وسمع له من أجل تقواه، مع  
كونه ابنًا تعلّم الطاعة مما تألّم به. وإذ كُفِّل صار لجميع الذين  
يطيعونه سبب خلاص أبدي، مدعوًا من الله رئيس كهنة على طقس  
ملكي صادق» (عب ٥: ٧-١٠).

(٤) [كل ما كُتب فيما يختص بناسوت مخلّصنا ينبغي أن يُعتبر لكل جنس البشرية]

ق. أثناسيوس الرسولي، في الدفاع عن هروبه ١٣.

[كل الأفعال التي لناسوته نُوجِّهها لتدبير تجسّد الكلمة]

ق. كيرلس الكبير، عن الإيمان القويم إلى الملكات ١٧ PG76, 1356C; (in TLG ACO 1,1,5.34.15)

(٥) عن الإيمان القويم إلى الملكات ٤٠ PG 76, 1392; (in TLG ACO 1,1,5.49.5-7)



هذه الآية محورية<sup>(٦)</sup>، لأننا على أساسها يمكننا أن نفهم ما عمله المسيح من أجلنا سواء في صلاته أو في آلامه، وهي جديرة بأن تكون موضع تأملاتنا في الصوم الكبير وفي أسبوع الآلام.

هل المسيح في أيام جسده قدّم هذا الصراخ الشديد والدموع من أجل قضيته الفردية؟ بالطبع لا. بدليل أن استجابة الآب - «سَمِعَ لَهُ مِنْ أَجْلِ تَقْوَاهُ» - لم تأتِ كاستجابة لقضيته الفردية، كأن يُنْقِذَ من أعدائه الظاهرين أو يُعْفَى من الصليب! بل جاءت كاستجابة للقضية الجماعية التي كان يصرخ من أجلها، بأن نجّى البشرية كلها من الموت اللاصق بها. فقد كان هذا الصراخ من أجل البشرية جمعاء المحكوم عليها بالموت. المسيح كان آدم الجديد، نائباً عن تلك البشرية، يُمثّلها، ويُمثّل كل إنسان فيها. كان يصليّ بصراخ شديد ودموع للقادر أن يخلّصنا جميعاً من الموت اللاصق بنا. المسيح تبوّى قضية البشرية، اعتبرها قضيته الشخصية، إذ كان يُمثّلنا أمام الآب. هذا هو مدخلنا للانتفاع من صلوات أسبوع الآلام ولفهم المزامير التي تُقال فيه بلحن "كي إيبرتو". هذه المزامير لا يمكن أن نفهمها إلا إذا اعتبرناها موضوعة على فم المسيح بصفته يدافع عن قضية البشرية. فمثلاً المزمور الذي يقول: «خَلّصْنِي مِنْ أَعْدَائِي يَا اللَّهُ وَمَنْ الَّذِينَ يَقُومُونَ عَلَيَّ أَنْقِذْنِي...» نقوله في أسبوع الآلام على اعتبار أن المسيح ينطق به بصفته الإنسان بالألف واللام، الذي يُمثّل كل إنسان، كل البشرية الواقعة تحت سطوة الموت والفساد

(٦) القديس كيرلس الكبير من أكثر الآباء الذين أحبوا هذه الآية (عب ٥: ٧-١٠)، فهو يستشهد بها ما لا يقل عن ١٤ مرة، ولا يجاريه في ذلك أحد من الآباء، فخصمه (ثيودوريت) الذي كان يرد عليه استشهد بها ٦ مرات فقط، ولا يوجد غيرها من الآباء استشهد بها أكثر من مرتين. واهتمام ق. كيرلس بهذه الآية يرجع إلى تركيزه في كل تعاليمه اللاهوتية على الوحدة الكاملة بين لاهوت المسيح وناسوته، وعلى المنافع العالية التي آلت إلينا من هذا الاتحاد.

والشيطان، الذين هم أعداء البشرية، والمسيح كان يطلب نجاة البشرية منهم. وهذا المعنى نراه مكرّرًا بكثرة في شرح القديس أنثاسيوس للمزامير (انظر أقواله في الجزء الأخير من مقال ”المسيح في صلاته لأجلنا“).

قرأنا في قول القديس كيرلس أننا ”نحن الذين كنّا فيه نصليّ بصراخ شديد ودموع“، ذلك لأنه كان هو يحملنا سرًّا داخله، بالمعنى الروحي طبعًا وليس بالمعنى المادي، أي ليس أن جسد المسيح كان يحوي عشرات وآلاف بل وملايين من أجساد البشر، ولكن بالمفهوم السري المستيكي، أن المسيح كان يحملنا روحياً في ذاته ويُقدّمنا إلى الآب<sup>(٧)</sup>.

لذلك فنحن لنا نصيب في صلوات المسيح التي كان يصليها بالنيابة عنا، ”فوق الجبال العالية“. ولذلك تدعونا الكنيسة في الصوم الكبير لأن نركّز أنظارنا فيه: [تعالوا انظروا مخلصنا محب البشر الصالح، صنع فعل الصوم بتواضعه العظيم، فوق الجبال العالية، بانفراد جسدي وعلمنا المسلك لكي نسلك مثله] (ذوكصولوجية الصوم الكبير).

---

(٧) والقديس كيرلس يقرّر هذه الحقيقة الروحية، حقيقة وجودنا السري في المسيح، مرارًا وتكرارًا: [جميعنا كنّا في المسيح، والشخصية البشرية في عموميتها كانت ترتقي في شخصه]

تفسير يوا ١٤ : ١٤ PG 73, 161; Pusey 1.141.6

[إنه قد حملنا بواسطة جسده الخاص، فإننا جميعًا كنا فيه من حيث إنه استعلن إنسانًا]

تفسير يوا ١٦ : ٦٥ PG 74, 432; Pusey 2.618.19

[إننا نحن جميعًا فيه بسبب أنه صار إنسانًا ولبس نفس الجسد الذي لنا]

الكنز في الثالث ٢٣ PG 75, 384.39

[بواسطة الجسد المتحد به كان حاملًا الجميع في نفسه، فإننا بهذه الكيفية، نعم بهذه الكيفية، قد دُفِّنا معه في المعمودية المقدسة وأقمنا معه وأجلسنا معه في السماويات]

ضد نسطور ١ : ١١ ACO 1,1,6.15.32 PG 76, 17;

ومع أن الإنجيليين لم يذكروا شيئاً عن صلاة الرب خلال هذه الأربعين يوماً، إذ اعتبروها أمراً مفروغاً منه؛ ولكنهم في المقابل ذكروا في مناسبات عديدة شغف المسيح في الانفراد للصلاة لله أبيه. وقد ذكرت الأناجيل ذلك في ١٢ مناسبة على الأقل: <sup>(٨)</sup>

١- أثناء معموديته: «وإذ كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية» (لوقا: ٢١-٢٢). ويلاحظ أن إنجيل لوقا هو الوحيد الذي ذكر أن الرب كان يصلي أثناء معموديته.

٢- بعد شفاء حماة سمعان: «وفي الصباح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك» (مرا: ٣٥). يظهر من هذه القصة أن المسيح عمل معجزته عند غروب الشمس، ثم بعد ذلك باتوا في بيت سمعان، ولكن قبل أن يستيقظ أحد منهم كان يسوع قد سبقهم وخرج من البيت ومضى إلى موضع خلاء ليصلي، ولما اكتشف مكانه سمعان ومن معه، قالوا له: «إن الجميع يطلبونك!».

٣- بعد شفاء الأبرص: «فداع الخبر عنه أكثر. فاجتمع جموع كثيرة لكي يسمعوا ويشفوا به من أمراضهم. أما هو فكان يعتزل في البراري ويصلي» (لوقا: ١٥ و ١٦). لم ينتهز المسيح الفرصة المواتية

---

(٨) معظم هذه المناسبات ذكرها إنجيل لوقا، علماً بأن القديس لوقا في إنجيله يتميز بالتركيز على أهمية الصلاة: فإنجيله يبدأ بذكر صلاة زكريا في الهيكل، وينتهي بوصف كنيسة الرسل في وضع الصلاة في الهيكل أيضاً: «وكانوا كل حين في الهيكل يسبحون ويباركون الله». وقد انفرد بذكر بعض الأمثلة عن الصلاة لم يذكرها أحد غيره من الإنجيليين، كمثّل صديق نصف الليل، وقاضي الظلم، والفريسي والعشار...

وهي أن الجموع تهافت عليه، بل كان رد فعله هو الصلاة والاعتكاف في البراري.

٤- قبل اختياره الرسل: «وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي وقضى الليل كله في الصلاة لله. ولما كان النهار دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر...» (لو: ٦: ١٢). المسيح كان مزعمًا أن يختار تلاميذه، فقضى الليل كله في الصلاة. هذه من أجمل الآيات التي توضح صلاة المسيح التي بلا ملل.

٥- عند سماعه بقتل يوحنا المعمدان: «فلما سمع يسوع انصرف من هناك في سفينة إلى موضع خلاء منفردًا» (مت ١٤: ١٣).

٦- بعد معجزة إشباع الجموع: «وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفردًا ليصلي. ولما صار المساء كان هناك وحده». (مت ١٤: ٢٣، وانظر مر ٦: ٤٦، يو ٦: ١٥). وهنا أيضًا لم ينتهز المسيح رغبة الجموع في أن يجعلوه ملكًا - كما نقرأ في إنجيل الستار - بل صرف الجموع وذهب للجبل وحده ليصلي.

٧- قبل سؤاله التلاميذ عما يقول الناس عنه: «وفيما هو يصلي على انفراد كان التلاميذ معه، فسألهم من تقول الجموع إنني أنا؟» (لو: ٩: ١٨). المسيح بعد أن أنهى صلاته سأل التلاميذ عن رأي الجموع فيه، وانتهى الحديث بأنه لا بد أن يتقدم للصليب. كانت رؤية المسيح

لهدف حياته الأرضية واضحة منذ البداية، وهي أن ينتهي بتقديم حياته على الصليب كذبيحة حب لله أبيه بالنيابة عن البشر، وكانت صلاته في هذه اللحظات حتى ينقل لتلاميذه هذه الرؤية الصافية<sup>(٩)</sup>. فقبل أن يعلن المسيح عن صليبه ويحدد مسيرته نحو الجلجثة، كان يصلي حتى يقبل التلاميذ هذا المنهج.

٨- في حادثة التجلي: «أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردين وحدهم. وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مُبَيَّضًا لامعًا» (مر ٩: ٢ ولو ٩: ٢٩). كان المسيح يحب الصلاة جدًا، لماذا؟ لأن الصلاة كانت أكثر فرصة ينجي فيها الآب، ويمارس وهو في الجسد، حديثه السري الأزلي مع الآب. فالصلاة كانت له أكثر عمل زمني يتوافق مع وضعه الطبيعي الأزلي، وهو أن يكون في مناجاة لا تنقطع مع أبيه. «وكان الكلمة (في وضعه الأزلي) نحو الله πρὸς τὸν Θεόν» (يو ١: ١). ولكن الشيء الجديد الحادث الآن هو أنه يقف يصلي بجسده الذي أخذه متًا، وينطق الصلاة بفمه وبشفتيه الجسديتين المأخوذتين متًا. كل هذا يجعل صلاته لحسابنا. وهذا ما جعل الكنيسة تعتبر أنه في صوم المسيح وصلاته يوجد "سرٌّ لا يُنطق به" (دكصولوجية الصوم وقسمة الصوم). فالمسيح كان في شخصه الواحد إلهًا وإنسانًا، لذلك كانت صلاته التي يصليها وهو في الجسد، أي كمن يُمثّل البشرية كلها أمام الله،

(٩) صلاة الراهب في نصف الليل قبل التسبحة، هي من أكثر الأوقات التي فيها يحصل الراهب على وضوح الهدف، وهل هو سائر نحوه أو انخرط عنه.

كانت متصلةً بكل غنى الحب الإلهي الأزلي المتبادل بينه وبين الآب من قبل تأسيس العالم. فكانت هذه الصلاة الإلهية البشرية تحوّل حسابنا كل غنى هذا الحب الأزلي الذي هو أعظم قوة في الوجود!

٩- قبل تعليمه الرسل الصلاة الربانية: «وَإِذْ كَانَ يَصَلِّي فِي مَوْضِعٍ، لما فرغ قال واحد من تلاميذه: يا رب علّمنا أن نصلي كما علّم يوحنا أيضًا تلاميذه» (لو ١١: ١). يبدو أن منظر المسيح وهو يصلي كان أخذًا. تصوّر أن ابن الله يصلي بكل دالته البنوية الأزلية لدى الآب، بكل قوة حبه البنوي الأزلي الذي هو أقوى قوة في الوجود، ويصلي هذه الصلاة بجسد إنساني، ثرى ماذا يكون منظر هذا الجسد؟ بالتأكيد يكون منظرًا ليس من هذا العالم. لذلك، كان هذا التلميذ، الذي انبهر من منظر المسيح، كان مُحققًا في أن يطلب من المسيح أن يُعلّمهم كيف يُصلُّون مثله. أما المسيح فقال لهم: «متى صليتم فقولوا: أَبَانَا...». بهذا يكون قد سلّمهم طريقته الخاصة في الصلاة. إن كل أبرار العهد القديم ما كانوا يخاطبون الله بأنه "الآب"، بل كانوا يدعونه "الرب الإله"، أو "إله إسرائيل"، أو "إله آبائنا". المسيح هو الذي أعلن لنا اسم الله الحقيقي أنه "الآب". لقد قال في صلاته الأخيرة: «وقد عرّفْتُهُم اسمك»، ما هو هذا الاسم؟ إنه "الآب". المسيح عرّفنا بأبوة الآب وبِعلاقته البنوية به. لذلك فهو هنا يكشف لهم سرّه، ويقول لهم صلُّوا مثلي. نحن عندما نصلي قائلين: "أَبَانَا..."، نفعل ذلك معتمدين على التبيّن الذي صار لنا بالمسيح. هذا التبيّن الذي بالمسيح يسوع قائم على الاتحاد الأفنومي بين لاهوت المسيح وناسوته، فقد خلع على الناسوت ما هو خاص به هو



كابن الله. بالطبع نحن لا نصير مثله أبناءً لله بالطبيعة ولا بصفة مطلقة، ولكن بالنعمة وبصفة نسبية. يقول في ذلك ق. أثناسيوس: [نحن لسنا أبناءً لله بحسب الطبيعة، ولكن الابن الذي فينا هو ابن الله بحسب الطبيعة. كذلك الله ليس أباً لنا بحسب الطبيعة، ولكنه أب للكلمة الذي فينا، الذي فيه وبه نصرخ "يا أبا الآب". وهكذا الذين يرى الآب فيهم ابنه الخاص يدعوهم أبناءً له]<sup>(١٠)</sup>. هذا هو أوضح تعريف للتبني الذي بالمسيح يسوع، فعن طريق المسيح فقط الذي فينا يكون الله أباً لنا.

١٠- في أيامه الأخيرة في أورشليم: «وكان في النهار يُعَلَّم في الهيكل وفي الليل يخرج ويبعث في الجبل الذي يُدعى جبل الزيتون» (لو ١١: ١). صحيح أن صلاة جثسيماني التي ذكرها الإنجيليون كانت في آخر ليلة للرب، ولكن هنا يكشف لنا ق. لوقا أن هذا كان نظامه اليومي في أيامه الأخيرة في أورشليم، فهو لم يكن يبيت في منزل، بل كان يقضي نهاره في الهيكل للتعليم، وأما الليل فكان يقضيه في جبل الزيتون ليصلي.

١١- بعد العشاء الأخير: صلاة الرب في إنجيل يوحنا أصحاب ١٧. هذه الصلاة جديدة بأن تكون موضوع تأملنا طوال فترة أسبوع الآلام بالذات، حيث المسيح يوضّح عمله الذي أكمله، وعلاقته بنا وعلاقته بالآب ووجوده فينا ووجوده في الآب، ووجودنا نحن فيه وفي الآب، والغاية النهائية من تجسده.

١٢- صلاة الرب في جثسيماني: «وإذ كان في جهاد، كان يصلي بأشد  
لجاجة. وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض» (لوقا ٢٢: ٤٤،  
قارن عب ٥: ٧-١٠).



سر الصلاة الناجحة التي تدخل إلى قلب الله، هو أن تكون مرفوعةً عن طريق  
المسيح. والمسيح نفسه أوصانا أكثر من مرة أن نقدّم صلواتنا باسمه: «الحق الحق أقول  
لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم. إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي.  
اطلبوا تأخذوا ليكون فرحكم كاملاً» (يو ١٦: ٢٣ و٢٤، قارن يوحنا ١٤: ١٣،  
ويوحنا ١٥: ١٦). هذه النوعية الجديدة من الصلاة قائمة على أساس الاتحاد السري الذي  
أجراه المسيح في عمق كيانه بين الله والبشرية. لأنه لا يستطيع أحد أن يدخل إلى الله  
بصفته "الآب" إلا بالمسيح (يو ١٤: ٦)، أي بالابن الوحيد الذي وُحِدَ في عمق كيانه  
اللاهوت بالناسوت، البشرية مع الله. فأصبح هو الطريق وهو الباب الذي منه  
ندخل إلى الآب، والذي منه تنفذ صلواتنا إلى قلب الآب.

## أقوال الآباء عن صلاة الرب من أجلنا

سننتقي فقط بعض الأقوال القليلة من المنشورة في مقال ”المسيح في صلاته من أجلنا“<sup>(١١)</sup> ونعلّق عليها، ومن يريد أن يستزيد يمكنه الرجوع إلى بقية أقوال الآباء المنشورة في هذه المقالة.

الآباء كانوا يُفسّرون صلوات الرب المذكورة في الإنجيل على ثلاثة مستويات:

### أولاً: المسيح كان يصلّي كمثال لنا.

وهذا التفسير هو الأسهل في فهمه، فالمسيح كان يصلّي لكي يُعلّمنا أن نجاهد في الصلاة، كما جاهد هو طوال الليل في الصلاة.

يقول ق. كيرلس الكبير بهذا المعنى:

[كل ما فعله المسيح إنما كان لمنفعتنا نحن ولخير الذين يؤمنون به. فهو يُقدّم لنا أفعاله لتصير لنا بنوع ما نموذجاً للسلوك الروحي، حتى يُنهضنا كعباد حقيقيين. فلننظر إذًا إلى هذا النموذج وإلى هذا المثال الذي قدّمه لنا المسيح بأفعاله، لنرى كيف ينبغي أن نُقدّم طلباتنا لله]<sup>(١٢)</sup>.

ثم يستخلص ق. كيرلس ثلاث نقاط في صلاة الرب ينبغي أن تتمثّل بها:

(١١) انظر ص ٦، هامش ٢

(١٢) تفسير لوقا: ١٢ PG 72, 580.18-24, in TLG Commentarii in Lucam (in Catenis)

أ - كون المسيح كان ينفرد في الجبال وحده، فهذا ليعلمنا:

[ أننا يجب أن نصلي سرًا وفي الخفاء ودون أن يرانا أحد، ... وهذا أيضًا هو ما علّمنا المسيح إياه قائلاً: «وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك..» (مت ٦: ٦) ]

ب - ابتعاد المسيح عن العالم أثناء صلاته يعلمنا الامتناع عن طياشة الفكر في أمور العالم أثناء الصلاة:

[ فيجب أن نصلي غير طالين، المجد الباطل، بل رافعين أيادي طاهرة، بينما ينطلق الفكر إلى العلاء إلى مستوى الرؤية الإلهية، وذلك بامتناعه عن كل طياشة، وانفصاله عن كل اهتمام عالمي ].

ج - المسيح يعلمنا بمثاله المثابرة في الصلاة:

[ ينبغي أن نسعى في ذلك بلا شبع وبدون توائ أو صغر نفس، بل بنشاط واجتهاد ومثابرة غير عادية. فإنك قد سمعتَ ليس فقط أن المسيح صلى بل أنه قضى الليل كله في الصلاة... فقد قضى ربنا يسوع المسيح الليل كله في الصلاة لله أبيه في السموات، متبادلاً الحديث معه بطريقة لا يُنطق بها وفائقة للعقل وهو وحده يعرفها، غير أنه في ذلك أيضًا جعل نفسه مثالاً لنا... ]

وفي موضع آخر يقول القديس كيرلس:

[ إنه يحسن أن نوجه صلواتنا بشدة نحو الله، وأن نجعل الطلبة ترتفع إليه ]

بدون انقطاع، فقد عَلَّمنا ذلك لما قَدَّم: «في أيام جسده طلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت» (عب ٧: ٥) [١٣].

ثانيًا: المسيح كان يصلي ككشاف ورئيس كهنة من أجلنا.

المسيح لم يأت فقط ليكون صورة خارجية تتمثل بها، بل ليتحد بصميم طبيعتنا ويشفع فينا من داخل طبيعتنا الساقطة، وكأنه واحد منّا يمثّلنا ويتكلّم باسمنا أمام الآب.

[نحن لا نستطيع أن ندنو إلى الله الآب سوى بواسطة الابن وحده،... ولذلك قال أيضًا: «أنا هو الباب... وأنا هو الطريق، لا يأتي أحد إلى الآب إلا بي» (يو ١٠: ٧ و ١٤: ٦). فإنه بحق لقبه كوسيط، وكرئيس كهنة، وكشاف، هو يرفع إلى الآب الطلبات من أجلنا، لأنه هو نفسه دالتنا كلنا التي نتقدّم بها إلى الآب] [١٤].

فالمسيح يقول عن نفسه: «أنا هو الطريق وأنا هو الباب، ولا يأتي أحد إلى الآب إلا بي»، على أساس أنه وحّد لاهوته بناسوته في شخصه الواحد، فهو بحق لاهوته متحد بالآب، وبحق ناسوته متحد بنا. كما نقول في ثيوتوكية الأحد:  $\cdot\eta\cdot\omicron\mu\omicron\omicron\tau\epsilon\iota\omicron\varsigma\ \eta\epsilon\mu\alpha\lambda\eta$  وفي الربع التالي  $\cdot\eta\cdot\omicron\mu\omicron\omicron\tau\epsilon\iota\omicron\varsigma\ \eta\epsilon\mu\ \Phi\iota\omega\tau$  فهو واحد مع الآب في الجوهر بسبب لاهوته، وواحد معنا في الجوهر بسبب ناسوته، وفي نفس الوقت هو شخص واحد. لذلك فالمسيح هو بمثابة حلقة وصل

(١٣) عن الإيمان القويم إلى الملكات ٣٩ PG 76, 1389; ACO 1,1,5.48.25-28

(١٤) تفسير يوحنا ١٦: ٢٤ PG 74, 460-461; Pusey 2.645.23-646.4

μεθόριον بين اللاهوت والناسوت<sup>(١٥)</sup>. هذا الاتحاد العجيب الذي تم في المسيح هو الذي يجعل كل صلواتنا تنفذ إلى الآب.

يقول القديس كيرلس إن المسيح:

|| [قدّم طلبات وتضرعات للآب لكي يجعل أذن الآب صاغية لصلواتك  
أنت أيضاً]<sup>(١٦)</sup>. ||

لماذا؟ لأنه لم يكن يقدم طلبات خاصة به هو، بل إن كل صراخ وتضرعات وأنين البشرية وضعها على نفسه ورفعها إلى الآب. وأصبح الآب مستمعاً أيضاً لكل صلواتنا نحن أيضاً حين نقدمها باسم المسيح، بحق الدالة التي له عند الآب.

وكما سبق أن قلنا، هذه الآية (عب ٥: ٧-١٠) هي من الآيات المحبوبة جداً لدى القديس كيرلس. فقد شرحها فيما لا يقل عن ١٤ موضعاً من كتاباته! ذلك لأنه رأى فيها مثلاً رائعاً للغنى الذي اكتسبته البشرية من الاتحاد الأقنومي الذي تم في المسيح بين لاهوته وناسوته<sup>(١٧)</sup>. فالمسيح من جهة ناسوته كان يمثل البشرية

---

(١٥) هذا الاصطلاح μεθόριον = "حلقة وصل" أو "حد مشترك" استخدمه ق. كيرلس عدة مرات (انظر أقواله في "كلمات للمبتدئين عن أعياد الميلاد والغطاس..." ص ١٦ و١٧).

(١٦) الدفاع عن الحروم الاثني عشر ضد ثيودوريت: ١١ PG 76, 441; ACO 1,1,6.139.21-23

(١٧) يقول ق. كيرلس بهذا المعنى معلقاً على هذه الآية:

[إنه من جهة يرفع "التضرعات بصراخ شديد" بصفته قد صار مشابهاً لنا (أي من جهة ناسوته)، ومن جهة أخرى "سُمع له" بصفته ابن الله الحقيقي بحسب الطبيعة (أي من جهة لاهوته) الذي لم يرفض له الآب شيئاً قط. فهو القائل: «وأنا علمتُ أنك في كل حين تسمع لي» (يو ١١: ٤٢)].

عن الإيمان القويم للملكات ٤٠ PG 76, 1389-1392; ACO 1,1,5.48.37-49.2



ويستقطب في نفسه كل صراخها من أول صرخة لآدم وحواء وهما خارجان مطرودين من الفردوس، حتى آخر صرخة لآخر إنسان قبل اليوم الأخير. المسيح هو الإنسان، بالألف واللام، الإنسان الذي احتمل كل آلام البشرية ومذلتها (وبهذا المعنى تُقرأ نبوة «أنا هو الرجل» (مراثي ٣ كله) في آخر يوم الجمعة الكبيرة). المسيح كان لقبه المفضّل هو "ابن الإنسان"، لأنه تبنّى قضية البشرية وجعلها هي قضيته الشخصية. والآب لم يُعْفِه من الموت، بل شرب المسيح الكأس حتى آخر قطرة ومات. فكيف إذن «سُمع له من أجل تقواه»؟! المسيح لم يكن يطلب النجاة من الموت كقضيته الفردية الخاصة به، أبداً، إطلاقاً. هذا هو الفهم المغلوط، الذي أخذ به الإسلام، فقال إن المسيح لم يُصَلب بل إن الله نَجَّاه، وأن يهوذا هو الذي صُلب بدلاً منه!! هذا هو ما يتصوّره «الإنسان الطبيعي الذي لا يقبل ما لروح الله» (١ كو ٢: ١٤). الإنسان الطبيعي لا يمكن أن يقبل الصليب. الصليب غير مقبول شكلاً وموضوعاً للعقل الطبيعي البشري. ولكن الذي فيه روح الله يقبل «فكر المسيح» (١ كو ٢: ١٦)، يقبل منهج الصليب، لأنه يرى فيه أعظم انتصار حدث في تاريخ الكون! فالمسيح «سُمع له من أجل تقواه»، ليس كقضية فردية كأَن يُنَجَّه الآب من الذين يُدبِّرون له الصليب، ولكن كقضية البشرية جمعاء التي كان يمثلها أمام الآب ويصرخ بصراخها. فقد أنقذت البشرية من الموت اللاصق بها، ولم يُعد للموت شوكة أو للهاوية غلبة. وبهذا المعنى قال المسيح لليهود: «إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد» (يو ٨: ٥١)، الأمر الذي أفقد اليهود عقولهم، وسألوه من تجعل نفسك؟ ولكن المسيح كان واثقاً باستجابة الآب له، وبالفعل «سُمع له من أجل تقواه»، وأنقذت البشرية إلى الأبد من الموت!

بقية الآية تقول: «فَسْمِعْ لَهُ مِنْ أَجْلِ تَقْوَاهُ، وَإِذْ كَمَّلَ صَارَ لَجَمِيعِ الَّذِينَ يَطِيعُونَهُ سَبَبَ خَلاصٍ أَبَدِيٍّ، مَدْعُوًّا مِنَ اللَّهِ رَئِيسَ كَهَنَةٍ إِلَى الْأَبَدِ عَلَى طَقْسٍ مُلْكِي صَادِقٍ». المسيح صار لقبه: "رئيس كهنة إلى الأبد على طقس ملكي صادق". معروف أن الكاهن لا يكهن عن نفسه ولكن عن الشعب. أما رئيس كهنتنا نحن فهو يكهن عن البشرية كلها. مزمور ١١٠ هو محور الرسالة إلى العبرانيين. بل يمكن أن نقول إن الرسالة كلها منسوجة على خلفية ما جاء في هذا المزمور من أن المسيح هو في نفس الوقت "جالس عن يمين الله" (بمعنى المساواة)، وهو "رئيس كهنة إلى الأبد على طقس ملكي صادق".

ويقول القديس كيرلس عن صلاة الرب في يو ١٧ ما معناه: إن الرب عندما طلب من الآب أن يُمَجِّدَهُ: «مَجِّدْ ابْنَكَ»، فهو لم يكن يطلب المجد لنفسه، لأنه هو رب المجد، وهو كان ممجِّدًا عند الآب قبل إنشاء العالم؛ وإنما كان الأمر يتعلَّق بنا، فكان يطلب ذلك لأجلنا:

[فإن كان يُصَرِّح أنه يقتني المجد من قبل كون العالم ثم يطلبه الآن كمن لا يقتنيه، فهو إذن يفعل ذلك من أجلنا، وطلبتنا نحن هي التي صارت فيه، مستدعية المجد على طبيعة الإنسان]<sup>(١٨)</sup>.

### ثالثًا: المسيح كان يصلّي كمن يحتوينا في نفسه:

هذا المفهوم هو أكثر جرأة من المفهومين السابقين. نحن هنا الذين كنّا نُصلّي من داخل المسيح. نحن كنّا روحياً في المسيح، بسبب الجسد الذي أخذه منّا. هذه الحقيقة كثيرًا ما يكررها القديس كيرلس الكبير عامود الدين:

[جميعنا كنّا في المسيح، والشخصية البشرية في عموميتها كانت ترتقي فيه]<sup>(١٩)</sup>.

[هو قد حملنا بواسطة جسده الخاص، فإننا جميعًا كنا فيه من حيث إنه استعلن إنسانًا]<sup>(٢٠)</sup>.

[إننا نحن جميعًا فيه بسبب أنه صار إنسانًا ولبس نفس الجسد الذي لنا]<sup>(٢١)</sup>.

[بواسطة الجسد المتحد به كان حاملًا الجميع في نفسه، فإننا بهذه الكيفية، نعم بهذه الكيفية، قد دُفْنَا معه في المعمودية المقدسة وأقمنا معه وأجلسنا معه في السماويات!]<sup>(٢٢)</sup>.

إن معظم تعاليم ق. كيرلس الكبير نجد أصولها الأولى لدى سلفه ق. أثناسيوس الرسولي، الذي يقول في كتابه تجسد الكلمة بخصوص صعود المسيح:

[لم يكن اللوغوس نفسه هو المحتاج لافتتاح أبواب السماء... بل

(١٩) تفسير يوحنا ١٤: ١٤٠ PG 73, 161; Pusey 1.141.6-7

(٢٠) تفسير يوحنا ١٦: ٦٥ PG 74, 432; Pusey 2.618.19-20

(٢١) الكنز في الثالث ٢٣ PG 75, 384.39-41

(٢٢) ضد نسطور ١: ١٠١ ACO 1, 1, 6.15.32-34 PG 76, 17;

نحن الذين كنا نحتاج إلى ذلك، نحن الذين كان يحملنا في جسده  
الخاص [٢٣].

وكما سبق وقلنا لا يجوز فهم هذه التعبيرات بالمعنى المادي، كأن نتصور أن أجساد ملايين من الناس كانت تتزاحم داخل جسد المسيح أثناء حياته الأرضية، ولكن يجب فهمها روحياً. ومحاولة لشرح ذلك نقول إنه كما كنّا معتبرين في آدم - كطبيعة وليس كأفراد - لمّا أخطأ، هكذا كنّا في المسيح في كل ما فعله لأجلنا بحسب التدبير. فنحن نقول في القداس الإلهي: [الذي جبلنا وخلقنا ووضعنا في فردوس النعيم. وعندما خالفنا وصيتك بغواية الحية سقطنا من الحياة الأبدية ونُفينا من فردوس النعيم، لم تتركنا عنك إلى الانقضاء...]. نقول ذلك بصيغة المتكلم الجمع، مع أن الذي وُضع في فردوس النعيم وخالف الوصية وطُرد هو آدم وليس نحن، ولكننا نعتبر أننا نحن كنّا في آدم - كطبيعة وليس كأفراد - لمّا أخطأ وطُرد من الفردوس. هكذا أيضاً نعتبر أننا كنّا موجودين سرّاً في المسيح، كمبدأ ثانٍ لجنسنا، في كل ما فعله لأجلنا بحسب التدبير.

وتطبيقاً لهذا المبدأ العام، يقول القديس كيرلس بخصوص صلوات المسيح:

[إننا نحن الذين كنا فيه، كما في بدءٍ ثانٍ لجنسنا، نحن الذين كنّا فيه نصليّ بصراخ شديد ودموع، ونطلب أن يُطَلَّ سلطان الموت!] [٢٤].

(٢٣) تجسد الكلمة ٢٥: ٦.

(٢٤) عن الإيمان القويم إلى الملكات ٤٠ 7-5.49.1, ACO 1, 1392; PG 76

فالمسيح كان يُصَلِّي كمن يحتوينا جميعًا في شخصه، لأنه بسبب ناسوته كان متصليًا في صميم كيانه بجميع أعضاء العائلة البشرية، وكان يستقطب في نفسه جميع صراخهم، ثم بسبب لاهوته ودالته البنوية لدى الآب «سُبَّح له من أجل تقواه»، فبسبب اتحاد لاهوته بناسوته - وهذه هي معجزة التجسد العظمى - نال صراخ البشرية فيه استجابةً لائقةً بتقوى ابن الله الوحيد! فالوحدة بين بشرية المسيح ولاهوته هي التي جعلت لصراخ البشرية مثل هذه الاستجابة. وهذا يفسِّر لنا شغف القديس كيرلس بهذه الآية بالذات (عب ٥: ٧-١٠)، لأنه رأى فيها مثالاً رائعاً للربح العظيم الذي عاد على البشرية من الاتحاد الأقنومي، الذي كان أهم عقيدة يدافع عنها هذا القديس.

### قوة الصلاة المرفوعة باسم المسيح

والآن يمكننا أن نفهم سرَّ إلحاح المسيح المتكرِّر على أن نُقدِّم طلباتنا إلى الآب باسمه، ولماذا يؤكِّد لنا أنها في هذه الحالة تكون مضمونة الاستجابة: «الحق الحق أقول لكم إن كل ما طلبتم من الآب باسمي يُعطى لكم» (يو ١٦: ٢٣)؛ «لكي يُعطى لكم الآب كل ما طلبتم باسمي» (يو ١٥: ١٦). ذلك لأن طلبنا يكون حينئذ وكأنه مختوم بختم ابن الله الوحيد، اللوغوس الإلهي، وكأنه هو الذي يُقدِّمه إلى الآب وليس نحن، وحينئذ ننال الاستجابة بحق دالته الأزلية لدى الآب، وغنى حبه الأزلي الذي يُقدِّمه للآب.

ولكن لا يجب أن يُؤخذ هذا الوعد بسذاجة، أي أننا بمجرد أن نقول: "بالمسيح يسوع ربنا"، يكون من حقِّنا أن تُستجاب الصلاة!! الاسم تعبير عن

الشخص. فأن نُقدِّم صلواتنا باسم المسيح معناه أن نُقدِّمها بشخصه الذي نكون نحن متحدين به، وكأن الطلب مقدَّم منه وليس مِنَّا. فبدون أن تكون لنا علاقة عميقة بالمسيح لا يكون من حقِّنا أن نستعمل اسمه، ولا ينفع مجرد النطق باسمه بشفاهاً وليس من القلب. هذه الحقيقة توضِّحها قصة في سفر أعمال الرسل: رأى مرة سبعة أولاد للرئيس الكهنة سكاوا أن الرسول بولس يُخرج الشياطين باسم المسيح، فحاولوا تقليده مستخدمين أيضاً اسم الرب يسوع في إخراج شياطين، وقالوا للشيطان: «نقسم عليك بيسوع الذي يكرز به بولس...»، فاستهزأ بهم الشيطان وأجابه: «أمَّا يسوع فأنا أعرفه، وأمَّا بولس أنا أعلمه. وأمَّا أنتم فمن أنتم؟!» (أع ١٩: ١٥) ووثب عليهم وجرحهم حتى هربوا عراة ومُجرَّحين. فاسم يسوع لا يُستعمل بدون علاقة عميقة مع صاحب الاسم نفسه. الاسم كناية عن الشخص، فتقدم الطلب باسم الرب يسوع معناه أن نقدِّمه بشخص الرب يسوع الذي نكون نحن متحدين به وفي علاقة حية وعميقة معه. فتصل الطلبة إلى أذن الآب وكأنها صادرة من فم الرب يسوع الذي فينا، فيستجيبها حتماً. فدورنا في الصلاة يتركِّز في أن نثبت فيه وهو فينا: «إن ثبتُّم فيَّ وثبت كلامي فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم» (يو ١٥: ٧)، أن نمسك به، أن نكون فيه وهو فينا. هنا تُصبح صلواتنا مرفوعةً باسمه بالحقيقة، وكأنه هو الذي يُقدِّمها إلى الآب.

إذا نجحنا في ذلك وشعرنا بصدق أن هذا قد تمَّ، ففي الحال نحس أن صلاتنا استُجِبت.



## قراءة من كتاب: توجيهات في الصلاة <sup>(٢٥)</sup>

### نقرأ فقرة عنوانها: المسيح شريكنا في الصلاة

[المسيح يسمع الصلاة وهو في الحقيقة يشترك معنا فيها اشتراكاً فعلياً، لأن بدون المسيح لا تدخل صلاتنا إلى الآب إطلاقاً. فبرحمة المسيح وحبّه واتضاعه نتقدّم بثقة إلى الآب مُستندين فقط على الدم الإلهي المسفوك للمصالحة والتبرير. فالمسيح حاضر في الصلاة شخصياً وهو الذي يرفعها إلى الآب باستحقاقاته].

أي باستحقاقات ابن الله الوحيد، بحق دالته وعلاقته الأزلية بالآب، وحبّه الفائق اللانهائي الذي يُقدّمه منذ الأزل للآب. كل هذه تحوّلت لحسابنا، عندما وُحّد الجسد المأخوذ منّا بشخصه الإلهي، وصُلّي به صلاة بدالة ابن الله الوحيد الأزلي، ولكنها صلاة البشرية كلها التي صارت متصلةً به بحق تجسده.

توجد آية في الرسالة إلى العبرانيين توضّح كيف كان دم المسيح غنياً بكل الاستحقاقات الأزلية التي لابن الله الوحيد:

---

(٢٥) هذا الكُتُبُ أصلًا هو ما كتبه أبونا الروحي في كُرّاس أحد الآباء في الريان ردًا على سؤال عن كيفية الصلاة. ولذلك ففيه كلام مرّكز جدًّا وحي ومعاش. ولذلك فقد صار من أكثر كتب أئبنا الروحي التي أعجبت الأشخاص الروحيين في العالم أجمع، فأخذوه وترجموه إلى لغاتهم الخاصة دون أن نطلب منهم ذلك. فقد تُرجم حتى الآن إلى عشر لغات. (الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والهولندية والإسبانية الكستيلانية والإسبانية الكتالانية والبونانية والبولندية والمجرية).

«فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قدّم نفسه لله بلا عيب يُطَهِّر ضمايركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي» (عب ٩ : ١٤).

محور هذه الآية عبارة «دم المسيح الذي بروح أزلي...». المسيح سكب دمه كذبيحة حب مقدّمة لله الآب بالنيابة عن البشرية. وبذلك أكمل الفداء. لأن الذي يمحو الخطيئة هو الحب، كما نسمع كل يوم في الكنيسة في إنجيل الخدمة الثانية من نصف الليل عن المرأة الخاطئة: «إن خطاياها الكثيرة مغفورة لها لأنها أحبّت كثيرًا». فدم المسيح المرفوع كذبيحة حب مقدّمة لله الآب عن البشرية كلها هو الذي محّاه كل خطايا البشرية.

ولكن الجديد في هذه الآية أنها تكشف لنا أن دم المسيح كان مقدّمًا «بروح أزلي»، أي أنه كان متّصلاً بكل الحب الأزلي المقدّم من الابن للآب من قبل تأسيس العالم، وكان غنيًا بكل غنى هذا الحب الأزلي. فحب المسيح الذي قدّمه للآب على الصليب لم يكن مجرد حب بشري زميني، ولكنه كان غنيًا بكل طاقة الحب الأزلي المُقدّم من قبل تأسيس العالم من الابن للآب، هذا الحب اللانهائي بكل حجمه الأزلي الذي يفوق حجم كل الجرات بأبعادها المهولة الموجودة في هذا الكون. هذه كلها تُعتبر تصويرًا مصغّرًا جدًّا للانهاية الله<sup>(٢٦)</sup> وللانهاية الحب الأزلي المتبادل بين الآب والابن، الذي لا نستطيع أن نتكلّم عنه. وقد اكتفى سفر العبرانيين بأن يشير إلى هذه القيمة اللانهائية الموجودة في دم المسيح بقوله «فكم

---

(٢٦) «السموات تُحدّث بمجد الله» (مز ١٨ : ١)، أي الفراغات اللانهائية تُحدّث بلانهاية الله التي هي أعظم منها بلا قياس.

بالحري دم المسيح الذي بروح أزلي...» وهذا هو «غنى المسيح الذي لا يُستقصى» (أف ٣: ٨).

نستكمل قراءة هذه الفقرة من كتاب توجيهات في الصلاة:

[ لذلك فالصلاة ليست من طرف واحد فقط؛ ولا قيمة لكل ما نصلي به إذا لم يقل المسيح آمين، أي يصدّق عليها باستحقاقه لدى الآب، مُزكِيًا ضعفنا لديه ومتشفعًا قي ذنوبنا أمامه ].



# صلاة المسيح في إنجيل يوحنا ١٧

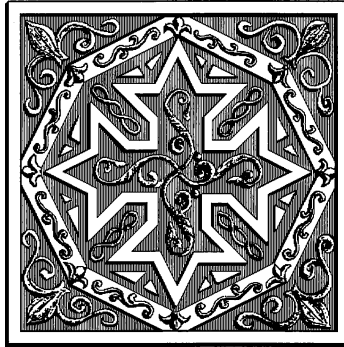


الكلمة الأولى: (٢٧)

## مقدمة عامة عن صلاة المسيح في يوحنا ١٧

تكلّمنا المرة السابقة عن الصلاة كإحدى الركيزتين الأساسيتين للصوم الكبير، والثانية هي الصوم. وأشرنا بالذات إلى صلاة المسيح لأجلنا، كمثال لنا، وكمتشعّع فينا، وكمن يحتوينا.

حديثنا اليوم عن صلاة المسيح في يوحنا ١٧. ومناسبة ذلك أولاً أننا في موسم الصوم الكبير الذي فيه نتّحد بالمسيح في صومه وصلاته السرية مدة أربعين يوماً، ثم لأن هذه الصلاة هي محور أسبوع الآلام.





## نص الصلاة

- ١ تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهَذَا وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ:  
«أَيُّهَا الْآبُ، قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ. مَجِّدِ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضًا،
- ٢ إِذْ أُعْطِيَتْهُ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ جَسَدٍ لِيُعْطِيَ حَيَاةً أَبَدِيَّةً لِكُلِّ مَنْ أُعْطِيَتْهُ.
- ٣ وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ:
- أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَخَدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ.
- ٤ أَنَا مَجِّدُكَ عَلَى الْأَرْضِ. الْعَمَلُ الَّذِي أُعْطَيْتَنِي لِأَعْمَلَ قَدْ أَكْمَلْتُهُ.
- ٥ وَالْآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ  
بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ.
- ٦ أَنَا أَظْهَرْتُ اسْمَكَ لِلنَّاسِ الَّذِينَ أُعْطَيْتَنِي مِنَ الْعَالَمِ.
- كَانُوا لَكَ وَأُعْطِيَتْهُمْ لِي، وَقَدْ حَفِظُوا كَلَامَكَ.
- ٧ وَالْآنَ عَلِّمُوا أَنْ كُلَّ مَا أُعْطَيْتَنِي هُوَ مِنْ عِنْدِكَ،
- ٨ لِأَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي أُعْطَيْتَنِي قَدْ أُعْطِيَتْهُمْ،
- وَهُمْ قَبِلُوا وَعَلِّمُوا يَقِينًا أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ، وَآمَنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي.
- ٩ مِنْ أَجْلِهِمْ أَنَا أَسْأَلُ.
- لَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ الْعَالَمِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ أُعْطَيْتَنِي لِأَنَّهُمْ لَكَ.
- ١٠ وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ، وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي، وَأَنَا مُمَجِّدٌ فِيهِمْ.

١١ وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ، وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ.  
أَيُّهَا الْآبُ الْقُدُّوسُ، احْفَظْهُمْ فِي اسْمِكَ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي،  
لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ.

١٢ حِينَ كُنْتُ مَعَهُمْ فِي الْعَالَمِ كُنْتُ أَحْفَظُهُمْ فِي اسْمِكَ.  
الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي حَفِظْتُهُمْ،

وَلَمْ يَهْلِكْ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا ابْنُ الْهَلَاكِ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ.

١٣ أَمَّا الْآنَ فَإِنِّي آتِي إِلَيْكَ.

وَأَتَكَلَّمُ بِهِذَا فِي الْعَالَمِ لِيَكُونَ لَهُمْ فَرَحٌ كَامِلًا فِيهِمْ.

١٤ أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كَلَامَكَ،

وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ، كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ،

١٥ لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشَّرِّيرِ.

١٦ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ.

١٧ قَدْ سَمِعْتُهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلَامُكَ هُوَ حَقٌّ.

١٨ كَمَا أَرْسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ أَرْسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ،

١٩ وَلَا جَلِيلُهُمْ أَقْدَسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ.

٢٠ وَلَسْتُ أَسْأَلُ مِنْ أَجْلِ هَؤُلَاءِ فَقَطْ،

بَلْ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِي بِكَلَامِهِمْ،

٢١ لِيَكُونَ الْجَمِيعُ وَاحِدًا، كَمَا أَنَّكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ فِيَّ وَأَنَا فِيكَ،

لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا وَاحِدًا فِيْنَا، لِيُؤْمِنَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي.

٢٢ وَأَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي،  
لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا أَنَّنَا نَحْنُ وَاحِدٌ.

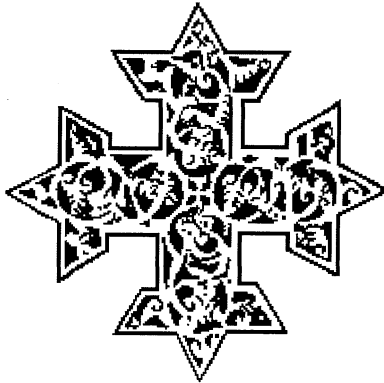
٢٣ أَنَا فِيهِمْ وَأَنْتَ فِيَّ لِيَكُونُوا مُكَمَّلِينَ إِلَى وَاحِدٍ،  
وَلِيَعْلَمَ الْعَالَمُ أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي، وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي.

٢٤ أَيُّهَا الْآبُ أُرِيدُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِيَ حَيْثُ أَكُونُ أَنَا،  
لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي، لِأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ.

٢٥ أَيُّهَا الْآبُ الْبَارُّ، إِنَّ الْعَالَمَ لَمْ يَعْرِفْكَ، أَمَّا أَنَا فَعَرَفْتُكَ،  
وهَؤُلَاءِ عَرَفُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي.

٢٦ وَعَرَفْتَهُمْ اسْمَكَ وَسَأَعْرِفُهُمْ،

لِيَكُونَ فِيهِمْ الْحُبُّ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي بِهِ، وَأَكُونُ أَنَا فِيهِمْ».



هذه الصلاة مملوءة معانٍ روحية على أعلى مستوى.

وقبل أن نتأمّل فيها بالتفصيل يليق بنا أن نعتبر أولاً الملابس التي قيلت فيها هذه الصلاة:

### أهمية الربط بين هذه الصلاة وتأسيس سر الإفخارستيا

المسيح في مساء خميس العهد قبل أن ينطق بهذه الصلاة مباشرة، قدّم جسده مكسوراً وقدّم دمه مسفوّكاً للاثني عشر، وبذلك صار فيهم بجسده ودمه، ومن واقع هذا الوضع الجديد، أي وجوده فيهم، بدأ يصليّ هذه الصلاة التي كرّر فيها أكثر من مرة عبارة «أنا فيهم» (ع ١٠ و ٢٣ و ٢٦).

ويلاحظ أن أول قراءة تُقرأ بعد قداس خميس العهد، الذي فيه نذكر تأسيس سر الإفخارستيا، هي قراءة الساعة الأولى من ليلة الجمعة، وهي ما يُسمّى في الكتب الطقسية "فصول البارقليط"، وهي تتكوّن من ٤ قراءات من إنجيل يوحنا. الثلاثة الأولى من يوحنا ١٣ حتى يوحنا ١٦ فيها حديث المسيح الأخير الوداعي، والرابعة هي صلاة الرب في يوحنا ١٧. هذه فرصة معطاة لنا في كل سنة لنعيش مع الرب في صلاته هذه ونشترك فيها، بعد أن نكون تناولنا في قداس خميس العهد، أي ونحن في نفس الوضع الروحي الذي قصده الرب لمّا صليّ هذه الصلاة بعد توزيع جسده وتوزيع دمه على الرسل، أي بعد أن صار "فيهم"، فاستطاع أن يقول بكل واقعية «أنا فيهم». بل إنه كان يرى من وراء الرسل، كل الكنائس التي سيؤسسونها والتي سيتوزّع فيها جسده ودمه، وكل المؤمنين الذين سيصير فيهم بهذا السر. ولذلك حقّ له أن يقول بكل واقعية عن كل الأجيال القادمة: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مُكمّلين إلي واحد» (يو ١٧: ٢٣).

نقول أكثر من ذلك، إنه طالما المسيح صار "فيهم"، أصبحت هذه الصلاة وكأنها صاعدة بفهم المسيح من داخل قلب الرسل، بل ومن داخل قلوب جميع المتناولين من جسده ودمه في جميع الأجيال.

هذا الفيض غير المحدود من الصلاة المرفوعة بصوت المسيح نفسه من داخل قلوب جميع المتناولين منه - من جميع الكنائس في آن واحد - هو وحده الكفيل بأن يُحطَّم أسوار الانقسام التي أقامتها الدهور وأن يُحقَّق الوحدة التي يطلبها لنا الرب.

**أهمية كيان المسيح الرافع هذه الصلاة،**

**كونه ابن الله وابن الإنسان في آن واحد**

إن المسيح صلَّى هذه الصلاة بصفته الإله المتأنس، أي بصفته ابن الله وابن الإنسان في آن واحد. فكونها صادرةً منه كابن الله فهي ككل الأفعال الإلهية غير محصورة في الزمن الذي وقعت فيه. ونحن عندما نردّها الآن، لا نقول كلمات قيلت منذ ٢٠٠٠ من السنين وانتهت كأني فعل زمني ماضٍ؛ ولكن حينما نقولها، نحن نشترك في صلاة تفوق الزمن، صلاة لا زالت تدوي في قلب الآب ولا زالت ترتفع من قلب الابن، لأنها صلاة رُفعت على مستوى إلهي من ابن الله إلى أبيه. وهي لذلك تفوق حدود الزمن الذي قيلت فيه. هي إلى الآن لا زالت ترتفع باستمرار إلى قلب الآب من قلب الابن.

يقول ق. بولس في رسالته إلى العبرانيين عن المسيح في وضعه السماوي: «إذ هو حي في كل حين ليشفع فيهم» (عب ٧: ٢٥). فالمسيح حي كل حين ليشفع

فينا، فشفاعته موجودة حاضرة «كل حين» خلواً من الزمن. كذلك يقول: «ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا» (عب ٩: ٢٤)، كلمة: «الآن» التي كتبها الرسول لا تُشير فقط إلى الزمن الذي كُتبت فيه هذه الرسالة، أي حوالي سنة ٦٠ أو ٦٦ ميلادية، لكنها هي هي الآن عندما نقولها بعد مرور ٢٠٠٠ من السنين. هي آنية لا تنقطع ولا تزول، حاضرة وموجودة قي كل يوم وفي كل لحظة، في كل جيل وفي كل عصر: «الآن»، «ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا». هذه الآية تبين أن صلاة المسيح خالدة وليست محصورةً في زمن معيّن. ففي كل مرة ترفع يديك للصلاة، ستجد الباب (الذي هو المسيح) مفتوحاً أمامك لتدخل إلى الآب، وذلك من خلال صلاة الابن الوحيد، التي ليست محصورة لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل؛ فهو «في كل حين» يرفعها «الآن» و«لأجلنا». لذلك فهي صلاة تفوق الزمن، صلاة خالدة أبدية.

ثم من جهة أخرى هي صلاة الابن المتأنّس، الذي كان دائماً يقول عن نفسه إنه «ابن الإنسان»، كان هذا هو لقبه المفضّل والمحبوب جداً لديه. معناه أنه هو ابن البشرية جمعاء، «ابن الإنسان» الذي يمثّل البشرية كلها، لأنه جمع الطبيعة البشرية كلها في شخصه المبارك. والآباء استفاضوا كثيراً في التأمل في هذه الحقيقة، وخصوصاً القديس كيرلس الكبير، الذي يكرّر مراراً وتكراراً أننا كنّا فيه لمّا مات، وكنا فيه لمّا قام، وأن جميع أفعاله البشرية كان يفعلها كنائب عن البشرية كلها. وبالنسبة لصلاة المسيح يقول القديس كيرلس صراحةً:

|| [نحن الذين كنا فيه نصلي بصراخ شديد ودموع]<sup>(٢٨)</sup>.

لا يُقصد من ذلك أننا كنّا في المسيح بصفتنا الفردية أثناء حياته الأرضية، ولكن كنّا فيه كطبيعة، كانت طبيعتنا البشرية موجودة فيه. هذا يُشبه ما نقوله إننا كنّا في آدم لمّا أخطأ وطُرد من الفردوس، فنحن نقول في القداس الإلهي: ”وعندما خالفنا وصيتك بغواية الحية سقطنا من الحياة الأبدية ونُفينا من فردوس النعيم“. فنحن كنا مُتواجدين في آدم في الفردوس، ليس بأشخاصنا، كأفراد، ولكن بطبيعتنا. وهناك جاءتنا الحية، وأغوتنا، فسقط آدم، وحدث الطرد والنفي من فردوس الفرح، وهكذا سقط معه كل الجنس البشري. بنفس هذا المعنى يُقال إننا كنّا في المسيح أثناء كل أفعال حياته الأرضية، بل وفي موته وقيامته وصعوده بالجسد لأجلنا، كنّا فيه ليس كأفراد ولكن كطبيعة، لأنه أخذ طبيعتنا ووَحَّدَها بكيانه الإلهي.

كانت صلاة المسيح هي هي مناجاة اللوغوس، الابن الوحيد الكائن منذ الأزل في حضن الآب، التي كان يتبادلها من قبل تأسيس العالم مع أبيه عن القصد الإلهي الأزلي من الخليقة كلها. ولكن الجديد الذي حدث الآن، هو أن المسيح صلاًها وهو في وضعه المتجسّد، أي بصفته حامل بشرتنا، فقد كان كيانه الجسدي مساوياً تماماً لكياننا، ما خلا الخطيئة وحدها، فكانت صلاته منطوقَةً بشفاه جسدية مأخوذة منّا، وبفهم بشري مأخوذ منّا، ويداه المرفوعتان هما منّا، لأنهما من لحمنا ومن دمنا، وكأن المسيح استعار فمنا وجسدنا ويدينا وصلّى بها. لذلك صار لنا الحق أن نشترك في هذه الصلاة المرفوعة كل حين من قلب المسيح للآب، وكأنها صادرة منّا بنوع ما.

«الذي به لنا جراءة وقدم بإيمانه عن ثقة» (أف ٣: ١٢). هذه الجراءة في التقدّم إلى الآب باسم يسوع نابعة من الدالة اللانهائية الأزلية التي للابن لدى الآب، من واقع الحب الأزلي المتبادل بين الآب والابن، الذي هو الحقيقة العظمى المطلقة الموجودة قبل الزمن وقبل الوجود: «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو ١٧: ٢٤)، «مجدّني أنت أيها الآب عند ذاك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو ١٧: ٥). هذا الحب الأزلي المتبادل بين الآب والابن هو أصل الوجود كله، وهو الذي به خلُق كل شيء، لأن الآب هو الذي خلق كل شيء، ولكنه خلقه بآبن محبته الذي «به كان كل شيء وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو ١: ٣). فالعلاقة المتبادلة بين الآب والابن هي أصل وجود الكون كله، وهي منبع كل الطاقات الموجودة في هذا الكون، وبالتالي هي تفوق في قدرها وفي شدتها وفي سمّوها كل الطاقات الموجودة في هذا الكون.

والآن نقدر أن نحسّ إلى حدّ ما بلانهائية الدالة التي للابن لدى الآب! وبالتالي يزداد إدراكنا لما يعنيه بولس الرسول بقوله: «الذي به لنا جراءة وقدم بإيمانه عن ثقة» (أف ٣: ١٢). إننا جراءة وقدم وثقة تفوق وضعنا البشري. لماذا؟ لأننا مبنية على الدالة اللانهائية التي لابن الله الوحيد لدى أبيه. وهو بتجسده قد وحد بشرتنا بلاهوته في صميم كيانه الواحد. وهذا ما يسميه الآباء بالاتحاد الأقنومي، أي اتحاد اللاهوت بالانسوت في شخص المسيح الواحد. وهم يستنبطون من ذلك أنه قد نشأت علاقة سرية جديدة بين البشرية والله بسبب تجسد المسيح. والقديس كيرلس الكبير هو أكثر الآباء الذين تخصّصوا في شرح هذه الحقيقة، ليس من باب المناقشات والجدل اللاهوتي، ولكن لأنها الأساس الثابت لحقائق روحية فائقة في



قدرها، فائقة في نفعها وفي الربح العظيم الذي نربحه منها<sup>(٢٩)</sup>. وتطبيقاً لذلك فيما يخص صلاة المسيح، يقول كما ذكرنا:

«[إننا نحن الذين كنا فيه نصليّ بصراخ شديد ودموع]<sup>(٣٠)</sup>.  
وأيضاً:

«[طلبنا نحن هي التي صارت فيه]<sup>(٣١)</sup>  
كما يقول القديس أناسيوس الرسولي:

«[كل صلاة صلاًها المخلص إنما قد صلاًها بالنيابة عن طبيعة  
الإنسان]<sup>(٣٢)</sup>

لقد كانت صلاة المسيح تمتاز بكل دالته الإلهية اللانهائية لدى الآب، ولكنه في نفس الوقت صلاها وهو في الجسد البشري وباستعمال فمه البشري وشفتيه البشريتين وبرفع عينيه البشريتين اللتين أخذهما منّا، لذلك فهي بنوع ما صلاة البشرية فيه، ونحن لنا نصيب فيها وعن طريقها نستطيع أن نقرب إلى الآب مستعيرين من الابن الوحيد دالته البنوية لدى الآب.

---

(٢٩) يقول مثلاً عن سرّ اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح:

[السر الحاصل في المسيح قد صار لنا مثل بداية ἀρχή وطريق ὁδός لاشتراكنا في الروح والاتحادنا  
بالله] (تفسير يوحنا ١٧: ٢٠ و٢١) (PG 74,577; Pusey 2.735.8-10).

(٣٠) انظر ص ٣٨ حاشية رقم (٢٨)

(٣١) الكنز في الثالث PG 75, 388.8

(٣٢) شرح مزموّر ٦٨ BEΠ 32,165 PG 27, 305.28-30

## صلاة تفوق الزمن

يُلاحظ أن المسيح عندما كان يُصلّي هذه الصلاة لم يكن محصوراً في الزمن الذي كان موجوداً فيه؛ بل كان من وراء الزمن، وبعلمه السابق، يرى من خلف الاثني عشر تلميذاً المتواجدين أمامه، يرى الكنائس التي سيُنشئونها، والأجيال وراء الأجيال من المسيحيين الآتين بعدهم، كان يرى البطارقة والأساقفة من جميع العصور، وملايين المؤمنين من كافة الشعوب. كل هذا كان ماثلاً أمام عينيه في هذا المساء. ويظهر ذلك من قوله: «لستُ أسأل من أجل هؤلاء فقط (التلاميذ)؛ بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم» (يو ١٧: ٢٠). فكانت صلاة المسيح تشملنا نحن أيضاً الذين في القرن الـ ٢١؛ بل وتشمل أيضاً الآتين بعدنا. كان المسيح يرى في هذا المساء كل الانشقاقات التي ستحدث في الكنيسة، وكل العصور المظلمة التي لوّثت تاريخها، وكل ما سيصنعه الشيطان فيها من تفتّت وانقسام. لذلك، فإن الرب ركّز في صلاته على الوحدة بين المؤمنين به. كرّر هذه الطلبة في أربع آيات:

«ليكونوا واحداً كما نحن» (١١ع).

«ليكون الجميع واحداً ... ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (٢١ع).

«ليكونوا واحداً كما نحن واحد» (٢٢ع).

«ليكونوا مكمّلين إلى واحد» (٢٣ع).

كان المسيح يرى أمامه المستقبل بكل المصاعب التي ستعرض لها الكنيسة عبر الدهور، فكانت صلاته انعكاساً لرؤيته عبر الدهور ولعلمه السابق بكل ما سوف يحدث.

## وأيضًا صلاة تفوق الزمن

### صلاة لها بُعد أزلي

كانت صلاة المسيح أيضًا غنية بكل الحب الإلهي الأزلي المُقدَّم من الابن للآب من قبل تأسيس العالم. تقول الرسالة إلى العبرانيين إن المسيح لَمَّا قَدَّمَ دمه على الصليب قَدَّمه «بروح أزلي»، بمعنى أن الحب الذي قَدَّمه المسيح للآب في صميم الزمن بسفك دمه على الصليب كان متصلًا بكل لانهائية الحب الأزلي المُقدَّم منه للآب من قبل تأسيس العالم، وكان غنيًا بكل غنى هذا الحب الأزلي: «فكم بالبحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلي قَدَّمَ نفسه لله بلا عيب يُطَهَّر ضمائركم من أعمال مَيِّتة لتخدموا الله الحي» (عب ٩: ١٤). وهكذا أيضًا صلاة المسيح التي قَدَّمها للآب في صميم الزمن في يو ١٧ كانت «بروح أزلي»، أي كانت متصلة بكل الحب الأزلي الذي يتبادل بينه وبين الآب من قبل كل الدهور، وكانت غنية بكل غنى هذا الحب اللانهائي. وقد أشار الرب إلى ذلك بقوله «لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (٢٤ع). ولكن يجب أن لا يغيب عن الأذهان أن هذا الابن، كان هو أيضًا ابن الإنسان، فكانت كل طاقة هذا الحب اللانهائي الأزلي المتبادلة بينه وبين الآب تتحوَّل من خلاله لحساب الإنسان وكأنها تحتوي البشرية الكائنة فيه.

## وأيضًا صلاة تخترق الزمن

كانت صلاة المسيح في مساء خميس العهد غنية أيضًا بكل غنى ذبيحته الدموية التي كان سيقدمها في الغد، يوم الجمعة على الصليب. فقبل أن يبدأ هذه الصلاة،

أخذ المسيح خبزًا وقال: «هذا هو جسدي المكسور»، وأمسك الكأس وقال: «هذا هو دمي المسفوك». فالمسيح قدّم ذبيحته بالنية مساء الخميس قبل أن تتم بالفعل يوم الجمعة. قدّمها بالنية، ثم بعد ذلك قام وصلى هذه الصلاة مشفوعةً بذبيحته التي استحضرها الآن على المائدة عبر الزمن أمام التلاميذ وأمام الآب.

والآن،

وبعد أن أعطينا بسبب تجسد المسيح، وتوحيد لاهوته بناسوته، أن نشترك في صلاته التي قدّمها للآب بروح أزلي في الجسد لأجلنا؛  
وأعطينا هذا الباب المفتوح لندخل منه إلى الآب بدالة الابن الوحيد؛  
لا يتبقى علينا إلا أن نتعمّق في معاني هذه الصلاة حتى يمكننا أن نشترك فيها،  
ونرفعها إلى الآب باسم المسيح، فننتفع من هذا الغنى اللانهائي الموضوع بين أيدينا.



«تكلّم يسوع بهذا،  
ورفع عينيه إلى السماء،  
وقال:...»

نلاحظ أن السطر الأول فيه «تكلّم»؛ والسطر الثالث فيه «وقال»، وبينهما:  
«رفع عينيه إلى السماء».

في السطر الأول: «تكلّم يسوع بهذا»، تعود على كل الحديث السابق، أي من الأصحاح ١٣ إلى الأصحاح ١٦ (الحديث الوداعي)، أمّا في السطر الثالث: «وقال»، فتعود على صلاته في يوحنا ١٧. وعلى ذلك تكون صلاة المسيح في يوحنا ١٧ مرتبطةً بحديثه الوداعي عن طريق عبارة «رفع عينيه إلى السماء»؛ بمعنى أن ما قاله للتلاميذ في حديثه الوداعي رفعه إلى الآب على هيئة صلاة في يوحنا ١٧، صلاة من أجل تحقيق ما تكلّم عنه في حديثه السابق. والمقارنة بين الاثنين تؤكد ذلك:

صلاة المسيح في يو ١٧	الحديث الوداعي يو ١٣ - ١٦
١٧: ١ مجّد ابنك، ليمجّدك ابنك أيضًا	١٣: ٣١ الآن تمجّد ابن الإنسان وتمجّد الله فيه.
١٧: ٨ لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم.	١٥: ١٥ أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي.
١٧: ١١ هؤلاء هم في العالم وأنا آتي إليك	١٤: ٢ أنا أمضي لأعدّ لكم مكانًا

تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه إلى السماء وقال ...

١٤ : ٢٨ لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضي إلى الآب	١٧ : ١٣ إني آتي إليك وأتكلم بهذا في العالم ليكون فرحي كاملاً فيهم
١٤ : ٣ آتي أيضاً وأخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً	١٧ : ٢٤ أريد أن الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا.
١٥ : ١٩ لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته، ولكن لأنكم لستم من العالم... لذلك يُغضكم العالم	١٧ : ١٤ والعالم أبغضهم لأنهم ليسوا من العالم، كما أنا أنا لست من العالم.
١٦ : ١٥ كل ما للآب هو لي	١٧ : ١٠ كل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي
١٤ : ٢٠ في ذلك اليوم تعلمون أنني أنا في أبي وأنتم فيّ وأنا فيكم	١٧ : ٢٣ أنا فيهم وأنت فيّ ١٧ : ٢٦ وأكون أنا فيهم
١٦ : ٣٠ الآن نعلم أنك عالم بكل شيء، لهذا نؤمن أنك من الله خرجت	١٧ : ٨ وهم قبلوا وعلموا يقيناً أنني خرجت من عندك
١٥ : ٩ اثبتوا في المحبة التي لي ἐμῇ	١٧ : ٢٦ ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به

### «ورفع عينيه إلى السماء»

يلاحظ أن تعبير «رفع عينيه إلى السماء» تكرر عدة مرات في الإنجيل:

١- في معجزة إشباع الجموع (مت ١٤ : ١٩ ومر ٦ : ٤١ ولوق ٩ : ١٦).

٢- في إقامة لعازر من الأموات (يو ١١ : ٤١).

٣- في صلاة المسيح الأخيرة (يو ١٧ : ١).

٤- في تأسيس سر الإفخارستيا، وإن لم يأتِ بالنص في الإنجيل، ولكنه جاء في القداس، على أساس ما جاء في معجزة إشباع الجموع، التي هي آية وإشارة لسر الإفخارستيا.

العينان اللتان رفعهما الرب للآب هما عينان بشريتان أخذهما أصلاً منّا، ورفعهما إلى السماء بصفته ابن الإنسان، الذي يُمثّلنا أمام الآب بالجسد الذي أخذه منا. المسيح فتح لنا الطريق للدخول إلى الآب، فصرنا مُنتفعين بكل الدالة البنوية التي لابن الله الوحيد. المسيح حوّل كل دالته البنوية الإلهية لحساب ولصالح الطبيعة البشرية: فهو رفع عَيْنَيْن بشريّتين، ورفع يَدَيْن بشريّتين، وكان يتكلّم بلسان بشري، فتحوّلت كل دالته الإلهية لحسابنا. وهو لهذا قال: «أنا هو الباب» (يو ١٠ : ٩)، «أنا هو الطريق ... ليس أحدٌ يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤ : ٦). المسيح وَحَد بُنوّته الإلهية الفريدة بكيانه البشري؛ فلأن العينين المرفوعتين هما عينان بشريتان، من لحمنا نحن ومن دمنا نحن، لأجل هذا كان له الحق أن يتكلّم بالنيابة عنا، وهذا ما جعل ق. كيرلس الكبير يقول: [نحن الذين كنّا فيه نصليّ بصراخ شديد ودموع]. المسيح «سَمِعَ لَهُ مِنْ أَجْلِ تَقْوَاهُ» (عب ٥ : ٧)، من أجل دالته البنوية اللاهائية كابن الله الوحيد، وشملتنا نحن بالتالي هذه الدالة البنوية. وصارت طلبتنا نحن فيه مقبولة لدى الآب. هذا هو سر الصلاة التي تدخل إلى قلب الآب. سر الصلاة المستجابة هو في الالتصاق بهذا الإله المُتأنّس الذي يرفع الصلاة بالنيابة عنّا بدالة لائقة بابن الله الوحيد.

تكلّم يسوع بهذا ورفع عينيه إلى السماء وقال ...

- سؤال: كيف نجتمع بين الدالة غير المحدودة التي لنا في المسيح، وبين الانسحاق وأن يبكي الشخص على خطاياه؟!

- الإجابة: لا يوجد تعارض بين الاثنين، بل على قدر ما يعرف الإنسان ضعفه وأنه من نفسه لا يُساوي شيئاً ولا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً، على قدر ذلك يمكن أن يكون له رجاء غير محدود بإلهه. يقول القديس أنطونيوس: [الذي عرف موته عرف حياته الأبدية]<sup>(٣٣)</sup>، بمعنى أن الذي يعرف ضعفه وحقارة نفسه وأنه من نفسه هو "تراب ورماد" (كما قال إبراهيم)، هو الذي يستطيع أن يؤمن بقدرة الله غير المحدودة، كما فعل إبراهيم أيضاً الذي آمن «بالذي يُحيي الموتى ويدعو الأشياء غير الموجودة كأنها موجودة» (رو: ٤: ١٧)، فتوجد بالفعل!

يقول أحد مزامير صلاة النوم «يُسِرُّ الرب بِخَائْفِيهِ وَبِالرَّاجِينَ رَحْمَتِهِ». هنا شيثان يُسِرُّ بهما الرب ولا يوجد تعارض بينهما: الأول المخافة والمهابة والانسحاق الذي نقف به أمام الله، والثاني أن يكون لنا رجاء غير محدود في رحمته ونعمته وقدرته على كل شيء.

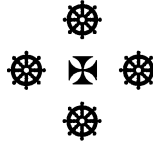
«لأنه هكذا قال العلي المرتفع ساكن الأبد القدوس اسمه: في الموضع المرتفع المقدّس أسكن ومع المنسحق والمتواضع الروح لأُحيي روح المتواضعين ولأُحيي قلب المنسحقين» (إش ٥٧: ١٥).

«وإلى هذا أنظر: إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعِد من كلامي» (إش ٦٦: ٢).



- سؤال آخر: هل ممكن، وكيف يمكن أن يقف الإنسان أمام الله وهو خاطئ؟

- الإجابة: عن طريق المسيح ومتشفعاً بدمه. تكلمنا المرة السابقة عن كتاب "توجيهات في الصلاة"، وفيه نجد الإجابة على سؤالك مشروحة جيداً في مواضع عديدة: يجب على الخاطئ أن ينسحق بشدة ويمسك بالصليب ويتمسك بدم المسيح، فيستطيع أن يدخل إلى الله الآب بدالة المسيح فيُغسل من كل خطاياه، وينال دالة المسيح لدى الآب.



### رفع العينين إلى السماء فيه قوة عظيمة

رفع العينين إلى السماء كان معروفاً في العهد القديم، واختبر قوّته كثيرٌ من الأبرار. + ففي مزمور النوم الذي يبدأ هكذا: «يا رب إليك صرخت فاستمع لي»<sup>(٣٤)</sup>

توجد آية تقول: «تبددت عظامهم عند الجحيم لأن عيوننا إليك يا رب». بمعنى أنه بمجرد أن نرفع عيوننا إلى الله، يهزم أعداؤنا للتو. والمقصود من الأعداء هنا هم الشياطين. والمرمّم يتكلّم بأسلوب تصويري ويستعمل كلمات مادية لكي يصف الحال الذي يُصيب الشيطان عندما نرفع عيوننا إلى الله.

---

(٣٤) هذا المزمور هو أهم مزامير صلاة النوم. فهو المزمور الوحيد الذي توصي به الدسقولية المسيحيين الأوائل أن يُصلّوه في المساء (الدسقولية فصل ١٠: ٥٢ طبعة د. وليم سليمان).

تكلّم يسوع بهذا ورفع عينيه إلى السماء وقال ...

+ كذلك في مزموّر صلاة باكر: «إليك يا رب رفعتُ نفسي» نقول: «عيناي تنظران إلى الرب في كل حين، لأنه يجتذب من الفخ رجلي». داود عرف بالخبرة أنه طالما عيناه ملتصقتين بالرب، فالرب بكل تأكيد يجتذب من الفخ رجليه وينجيه من فخاخ الشياطين ومن كل التجارب المحيطة به.

+ سفر أخبار الأيام الثاني ص ٢٠ يقص علينا معجزة باهرة حدثت في زمان الملك يهوذاشافاط عندما تحالف ثلاثة ملوك على يهوذا، فصرخ الشعب إلى الله وقالوا في صلاتهم: «ونحن لا نعلم ماذا نعمل ولكن نحوك أعيننا» (٢ أي ٢٠: ١٢). وانتهت القصة بتدخّل باهر من الله، إذ جعل الأعداء يُفنون بعضهم بعضاً، وما كان على الشعب إلا أن يجمعوا الغنيمة!

والآن ما هو سر هذه القوة الخفية الكائنة في رفع العينين إلى السماء؟ في الحقيقة إن سرّ هذه القوة هو أن المسيح بكيانه الواحد كابن الله وابن الإنسان قد رفع عينيه إلى السماء، رفعهما بكل دالته البنوية الإلهية كابن الله الوحيد، ولكنهما عينان بشريتان من لحمنا ومن دمنا نحن، فتحوّل بذلك شيء من دالته البنوية لدى الآب لحساب البشرية<sup>(٣٥)</sup>، بأثر رجعي وبأثر لاحق، أي لحساب كل إنسان يرفع عينيه إلى السماء بمثال المسيح، سواء كان في العهد القديم أو في العهد الجديد.

---

(٣٥) يقول القديس كيرلس الكبير إن المسيح كان يُصلّي [لكي يجعل أذن الآب مصغيةً إلى صلواتك]

الدفاع عن الحروم الاثني عشر ضد ثيودوريت: ١١ 1,6.139.22-23 ACO 1, 1, 6.139.22-23 PG 76, 441;

المسيح هو "حلقة الوصل"<sup>(٣٦)</sup> بين البشرية وبين الله، هو البؤرة التي فيها تتقابل البشرية مع الله الآب، وهو نفسه قال: «أنا هو الطريق ... ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي» (يو ١٤ : ٦). و«كل ما طلبتم من الآب باسمي يُعطىكم» (يو ١٦ : ٢٣). صلوات المسيح هي البؤرة التي تتجَمَّع فيها كل صلوات بني الإنسان وتصعد إلى الله الآب. قلنا قبل ذلك إن ما عمله المسيح لم يكن محصورًا في الزمن الواقع فيه، بل له أثر شامل يفوق الزمن، أثر رجعي يتسحب على كل صلوات العهد القديم، وأثر لاحق على كل الصلوات التي نصلّيها الآن، والتي سوف تصلّيها الأجيال القادمة من بعدنا. المسيح اختزل جميع هذه الصلوات في شخصه بصفته "ابن الإنسان"، ابن الإنسان الذي يمثّل البشرية جمعاء أمام الآب. حينما رفع المسيح عينيه البشريتين إلى السماء أعطى قيمة فائقة لصلاة كل إنسان يرفع عينيه إلى السماء بمثال المسيح فينال شيئًا من الدالة التي لابن الله الوحيد.

أخيرًا نقول إن الشركة مع المسيح في رفع عينيه إلى السماء معروضة الآن بصفة أعظم جدًّا على المسيحيين الذين صار لهم أن يتناولوا من جسده ودمه الأقدسين، فيكون هو فيهم وهم فيه.

(٣٦) يقول القديس كيرلس الكبير إن المسيح [صار مثل "حلقة وصل"، μεθόριον لأنه يجمع في نفسه

الطرفين اللذين يسعيان معًا نحو الوحدة والمحبة (أي الله والبشرية)]

## «أيها الآب...»

لم يُخاطَب أحدٌ قط الله بهذه العبارة قبل المسيح. اجث في كل المزامير وفي كل صلوات العهد القديم، لن تجد فيها من ينادي الله قائلاً: "يا أبي"، أو: "أيها الآب". ولكن كل ما ستجده هو: "أيها الرب الإله"، "يا إله إسرائيل"، "يا إله آبائنا" إلخ... المسيح هو الذي بدأ أن يُعرِّفنا باسم الله أنه "الآب" (يو ١٧ : ٢٦)، وفتح لنا الطريق لندخل إلى الآب، مستعيرين منه دالته البنوية.

قول للقديس أثناسيوس الرسولي:

[لسنا نحن أبناء بحسب الطبيعة،

ولكن الابن الذي فينا (هو ابن بحسب الطبيعة)،

وكذلك الله ليس أباً لنا بحسب الطبيعة،

ولكنه آب للكلمة الذي فينا،

الذي فيه وبه نصرخ "يا أبا الآب"؛

وهكذا الذين يرى الآب فيهم ابنه الخاص،

فأولئك يدعوهم أبناءً له]<sup>(٣٧)</sup>

[لسنا نحن أبناء لله بحسب الطبيعة]، فنحن بحسب الطبيعة مخلوقون من التراب،

نحن أولاد آدم المخلوق من التراب.

[ولكن الابن الذي فينا هو ابن الله بحسب الطبيعة]. وجود المسيح فينا حقيقة

لا يمكن إنكارها، وواقع لا يمكن أن نتجاهله، وإلا نكون كمن يتنكر لمعموديته.  
«لأن كلُّكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣: ٢٧).

[كذلك الله ليس أبًا لنا بحسب الطبيعة]، لا يمكن أن يدَّعي أحد هذا؛  
[ولكنه آب للكلمة الذي فينا]، أي آب للمسيح الذي فينا.

[الذي فيه وبه نصرخ "يا أبأ الآب"]، الآية التي في ذهن القديس أثناسيوس هي: «أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخًا يا أبأ الآب» (غل ٤: ٦). فروح الابن فينا هو الذي يصرخ: "يا أبأ الآب"، ولكن نحن من أنفسنا يستحيل أن نقول لله "يا أبانا"، ولكننا نقولها فقط من واقع وجود المسيح فينا وبروحه الصارخ فينا: يا أبأ الآب.

[وهكذا الذين يرى الآب فيهم ابنه الخاص، فأولئك يدعوهم أبناء له]، وبالتالي يكون من حقهم أن يقولوا: "أبانا الذي في السموات". فنحن من أنفسنا لا نستطيع أن نقول صلاة: "أبانا الذي"، ولكننا نقولها فقط مستعيرين من المسيح دالته لدى الآب، بحق وجوده هو فينا.

وأيضًا للقديس أثناسيوس:

[إن هذا (الدعاء باسم الآب) قد صار لنا بسببه هو (بسبب المسيح)،  
فلأن الكلمة قد لبس جسدنا وصار فينا،  
فبالتالي بسبب الكلمة الذي فينا، يُدعى الله أبًا لنا.  
لأن روح الكلمة الذي فينا، يدعو بواسطتنا أباه الخاص أبًا لنا.  
وهذا هو قصد الرسول حينما يقول:  
«إن الله أرسل روح ابنه إلى قلوبنا صارخًا يا أبأ الآب» (غل ٤: ٦)]<sup>(٣٨)</sup>

والقديس كيرلس الكبير في شرحه لصلاة "أبانا الذي ... " يقول:

[ لقد قال المخلص: "متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السموات"،  
يا للإحسان الفائق! يا للطف المنقطع النظير واللائق به وحده!  
إنه يخلع علينا مجده الخاص! إنه يرفع العبيد إلى كرامة الأحرار!  
إنه يُكَلِّل حال الإنسان بكرامة تفوق إمكانياته الطبيعية،  
إنه يُحَقِّق ما قد قيل في القديم بغم النبي القائل:  
"أنا قلت إنكم آلهة وجميعكم بني العلي تُدعون".  
فانتبه، إنه يرفعنا من وضع العبودية ويهبنا بنعمته ما لم يكن من حقنا<sup>(٣٩)</sup>.

يتضح من أقوال هؤلاء الآباء أنه لم يكن من حقنا أبدًا بحسب الطبيعة أن نقول إننا أبناء الله، أو أن نقول إن الله أبونا، أو أن نصلي صلاة: "أبانا الذي"، ولكن هذه كلها امتيازات نلناها بفضل تجسد الابن الوحيد واتحاده بطبيعتنا. ولنقرأ بقية قول القديس كيرلس الكبير:

[إنه يهبنا بنعمته ما لم يكن من حقنا،  
فهو يسمح لنا أن ندعو الله أبًا لنا، بصفتنا قد ارتقينا إلى وضع البنين،  
فمنه هو قد قبلنا هذا الإحسان مع بقية الامتيازات التي صارت لنا ...  
أو بالحري هو نفسه قد صار لنا الطريق والباب والوسيلة  
التي نلنا بها نعمة مجيدة بمثل هذا القدر،

(٣٩) تفسير إنجيل لوقا R. Payne Smith, A Commentary upon the Gospel according to St Luke by St Cyril, Patriarch of Alexandria, 2 vols, Oxford, 1859, p. 326. وهذا المرجع

يحتوي ترجمة إنجليزية عن السريانية. والأصل اليوناني موجود جزئيًا في:

PG 72.685.48-54 in TLG Commentarii in Lucam (in Catenis)

وذلك بأن اقتنى لنفسه شبهنا.

فمع كونه حرًا بسبب كونه إلهًا، إلا أنه أخذ شكل العبد

حتى يمكنه أن يمنحنا الأشياء التي له،

ويجعلنا نحن العبيد أغنياء بامتيازاته الخاصة<sup>(٤٠)</sup>

لاحظ أن مجرّد أن ندعو الله "أبانا" هو الذي يعتبره ق. كيرلس "نعمة مجيدة بمثل هذا القدر"، لأنه بذلك يكون الابن الوحيد قد جعلنا "نحن العبيد أغنياء بامتيازاته الخاصة". وذلك في مقابل أنه هو "أخذ شكل العبد، حتى يمكنه أن يمنحنا الأشياء التي له". فالقول كله مبني على أساس الحقيقة التي كثيرًا ما أشاد بها القديس كيرلس وقد تسجّلت في الثيوتوكيات: [هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له]. وهذا بعينه هو ما نقرأه في بقية القول:

[فعلى قدر ما أخذ المسيح الذي لنا لنفسه بحسب التدبير،

على قدر ذلك قد أعطانا الذي له،

والحكيم بولس خادم الأسرار يوضّح لنا ذلك قائلاً:

«إنه افتقر وهو غني لكي نستغني نحن بفقره» (٢ كو ٨ : ٩)

لأن الذي لنا - أي أمورنا البشرية - يُعتبر فقرًا لله الكلمة

بينما يُعتبر غنى للطبيعة البشرية أن تنال الذي له<sup>(٤١)</sup>.

المسيح هو الوحيد الذي له الحق الطبيعي أن يدعو الله: "يا أبي" أو "أيها الآب"،

وقد كانت هذه الكلمة على لسانه منذ طفولته:

(٤٠) نفس المرجع السابق.

(٤١) نفس المرجع السابق.

- + «ينبغي أن أكون فيما لأبي» (لو ٢: ٤٩).
- + «لكني أكرم أبي وأنتم تهينوني» (يو ٨: ٤٩).
- + «أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال...» (لو ١٠: ٢١).
- + وفي إقامة لعازر: «أيها الآب أشكر لأنك سمعت لي» (يو ١١: ٤١).
- + «أيها الآب مجد ابنك» (يو ١٢: ٢٨).
- + وفي صلاته في يو ١٧ تكررت ٤ مرات «أيها الآب» (ع ١٤ و ٥ و ٢١ و ٢٤)،  
ومرة «أيها الآب البار» (٢٥٤)، ومرة: «أيها الآب القدوس» (١١٤).
- + وفي جشيمان، في إنجيل متى: «يا أبي». وفي إنجيل مرقس: «يا أبا الآب».
- + وآخر كلمة نطق بها الرب في حياته الأرضية: «يا أبتاه في يديك أستودع روحي» (لو ٢٣: ٤٦).

فكان المسيح باستمرار يدعو الله: «أيها الآب»، وقد نقل لنا دالته لدى الآب كنتيجة لاتحاده بنا ولأخذه الذي لنا. لذلك قال لنا: «متى صليتم فقولوا: أبانا الذي في السموات...» (لو ١١: ٢)، ليس كأنكم تستحقون من ذواتكم أن تقولوا ذلك؛ بل بصفتمكم مُتَمِّينَ إليّ، أنا الابن الوحيد. أو بالحرى قولوها بفمي، قولوها باسمي، أي بالاتصاق بي والتقرب إلى الآب بالدالة التي لي عنده... لأنني أنا أيضًا لمّا نطقْتُ بهذه الكلمات في حياتي على الأرض نطقْتُها بفمكم، أي بفمي البشري المأخوذ منكم، من لحمكم ومن دمكم. لذلك صار لكم الآن أن تقولوها مستعيرين مني دالتي النبوية لدى الآب.

[لأنه هو نفسه دالتنا كلنا التي بها نتقدّم إلى الآب] (٤٢)



الكلمة الثانية: (٤٣)

«قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ وَجَدَ ابْنُكَ لِيُجِدَّكَ ابْنُكَ أَيْضاً» (ع ١)

«قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ»

ما هي هذه الساعة؟ إنها ساعة الصليب. هذه الساعة كان يراها المسيح منذ لحظة دخوله إلى العالم:

«لذلك عند دخوله إلى العالم يقول: ذبيحةً وقرباناً لم تُرد؛ ولكن هيأت لي جسداً. بمحرقاتٍ وذبائحٍ للخطيئة لم تُسرَّ. ثم قلتُ هاأنذا أُجيء، في درج الكتاب مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله» (عب ١٠ : ٥-٧).

هذه نبوة عن المسيا وردت في المزمور الأربعين ويستشهد بها سفر العبرانيين ويضعها على فم المسيح عند تجسده. فالذبائح والقربان في العهد القديم لم تكن تُسر الله، ولكن كان موضوع سروره هو أن يتجسد المسيح: «هيأت لي جسداً»، فهذا الجسد كان هو الذبيحة الحقيقية القادرة أن تُشفى وتُخلّص البشرية، فكانت موضوع سرور الله الآب. فالمسيح وُلد أصلاً لكي يكون له جسد يستطيع أن يُقدّمه كذبيحة حب، ذبيحة مُقدّمة لله الآب بالنيابة عن البشرية، فتُشفى البشرية من شرورها وبعدها عن الله، وتتم مسرة الآب. هذه الساعة هي قصد المسيح من مجيئه إلى العالم، كما يقول هو في مناسبة أخرى: «لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة» (يو ١٢ : ٢٧).

والجددير بالملاحظة أن ساعة الصليب كانت حاضرة في حياة الرب منذ زمن مبكر جدًا، منذ أن كان في بطن أمه، وكان يراها طوال حياته تقترب منه، كان يقرأها في كل الأحداث الحادثة له:

+ فمنذ أن كان في بطن أمه تأثّر من حزن أمه، بينما كان يوسف خطيبها يشكُّ فيها، وكان حزنها يتسرّب منها إلى الجنين الموجود في أحشائها<sup>(٤٤)</sup>. فتتم فيه النبوة أنه «مختبر الحزن» (إش ٥٣: ٣) وهو لا يزال في بطن أمه!

+ ثم انظر الرحلة الطويلة الشاقة من الناصرة إلى بيت لحم لامرأة حامل في شهرها التاسع تسافر مئات الكيلومترات سيرًا على الأقدام أو ركوبًا على دابة، ومع كل خطوة يتعرّض الجنين للموت. أي طبيب يقبل ذلك؟

+ ثم يولد في مذود البهائم، وسط الروائح الكريهة في الشتاء والبرد، «إذ لم يكن لهما موضع في المنزل» (لو ٢: ٧). فيكون «مرفوضًا من الناس» (إش ٥٣: ٣؛ ١ بط ٢: ٤) منذ لحظة ميلاده.

+ ثم تأتي نبوة سمعان الشيخ أن هذا قد وُضع «لعلامة تُقاوم»، وأن سيفًا سيجوز في نفس أمه، ثم يقدّم له الجحوس مرًا، وهيرودس يطلب قتله. كل هذه مسبّقات وإشارات مبكّرة إلى «هذه الساعة».

+ وعند بدء حياته العلنية، يشير إليه يوحنا المعمدان قائلاً: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم» (يو ١: ٢٩). فمنذ بدء ظهوره لإسرائيل ظهر كحمل يُجهّز ليكون ذبيحة لرفع خطايا العالم.

(٤٤) من الثابت طبيًا أن انفعالات الأم الحامل تؤثر سلبيًا وإيجابيًا على الجنين الذي في بطنها.

+ ثم بدأ الرب يتنبأ عن نفسه وما سوف يحدث له: «إن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل»، ولما اعترض بطرس قال له: «اذهب عني يا شيطان لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مر ٨: ٣١-٣٤). وكأنه يقول له: إنك لا تفهم ما هو القصد الإلهي من ميلادي، ولا تُدرك أنني «لأجل هذا أتيتُ إلى هذه الساعة».

+ وعند التجلي عندما ظهر له موسى وإيليا، كانا «يتكلمان عن خروجه الذي كان عتيذاً أن يكمله في أورشليم» (لو ٩: ٣١)، أي عن صليبه وموته، أي عن هدف حياته الذي من أجله «تَبَّتْ وجهه لينطلق إلى أورشليم» (لو ٩: ٥١) (٤٥).

+ وعندما اعترض التلاميذ على صعوده إلى أورشليم قائلين: «الآن كان اليهود يطلبون أن يرحموا وتذهب أيضاً إلى هناك؟!» (يو ١١: ٨)، لم يُبالِ باعتراضهم لأنه هو كان يعرف أن هذه هي "الساعة" التي وُلد من أجلها، وأنه يتحتم أن يتقدم نحوها: «ابن الإنسان ماضٍ كما هو مكتوب» (مت ٢٦: ٢٤؛ مر ١٤: ٢١؛ لو ٢٢: ٢٢).

+ وفي مساء أحد الشعانين، بعد دخوله أورشليم، جاءت جماعة من يهود الشتات وقالوا لفيلبس «نريد أن نرى يسوع»، وجاء فيلبس وأندراوس إلى يسوع لكي يُخبروه وفي ظنهم أن هذه هي فرصة لكي يتعرف عليه هؤلاء «اليونانيون» ولكي

(٤٥) الجزء الأكبر من إنجيل القديس لوقا يظهر في صورة رحلة صعود إلى أورشليم، نحو الصليب (من أصحاب

يروا معجزاته، فتصل بهم أخباره إلى مسامع العالم كله بعد رجوعهم إلى بلادهم، وبالتالي ينتشر الإيمان به وبرسالته. فماذا كان رد المسيح عليهم؟ «قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتُمتّ فهي تبقى وحدها؛ ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير» (يو ١٢: ٢٣-٢٤). أي لابد أن أموت وأن أُصلب، وإن لم يحدث هذا، سأبقى وحدي ولن تنفع أخباري أحدًا، ولن يستفيد مني ملايين الناس ليخلصوا. أنا لا يهمني أن تنتشر أخباري الآن، ولكن المهم هو أن أصنع الفداء وأموت كحبة حنطة لكي أُثمر ثمرًا كثيرًا.

فأجابهم يسوع: «قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان»، ثم فسّر ذلك قائلاً: «من يحب نفسه يهلكها، ومن يُبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبدية». ثم أكّد أن هذا الكلام ينطبق علينا نحن أيضًا: «إن كان أحد يخدمني فليتبني، وحيث أكون أنا، هناك أيضًا يكون خادمي» (يو ١٢: ٢٥-٢٦)، حيث كلمة "يتبني" تعني يسير ورائي نحو "هذه الساعة"، ساعة الصليب.

النفس البشرية تبقى عاقراً لا ثمر لها ما لم تقبل شركة الرب في الصليب، بأي صورةٍ من الصور: ألم من أي نوع، مرض، آلام جسدية، آلام نفسية، ظلم، اتهامات كاذبة، وشايات غير حقيقية، أعمال إضافية تُطالب بها أكثر من طاقتك واحتمالك؛ نسبوا الفشل لك والنجاح لأخيك، مع أن العكس هو الصحيح، أو... أو... فإن أنت صمتت وقبلت هذه الآلام أو المظالم من أجل الرب؛ فهنا تكون نلت - على خفيف جدًا - شركة في آلام الرب. فيوم أن يأتيك أي نوع من تلك

الآلام، عليك أن تعتبر أن هذه هي «الساعة»، ساعة الألم و«الشمر الكثير» التي «أتيت لأجلها»، أي التي من أجلها خلقك الله وأدخلك إلى الدير.

الذي يأتيه الصليب عليه أن يفرح؛ لأن هذه هي فرصته التي فيها يمكن أن تُخَصَّب نفسه وتأتي بشمر كثير. بدون هذا ستبقى نفسه عاقراً مُجْدَبَةً وبلا ثمر.

حينئذ عليه أن يشترك في صلاة المسيح التي طلب فيها أن يمجدّه الآب، أي يطلب أن يُعطيه الآب أن يقبل هذه الساعة بإيجابية وبحب، حتى ينجح في الامتحان، ويثمر ثمراً كثيراً.

### «مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً»

ما هو مضمون المجد الذي يقصده الرب؟

المجد في المفهوم الروحي غير المجد في مفهوم العالم. مجد العالم معروف لنا: هو الغنى والألقاب والسلطة والجاه والتكريم والمناصب ... إلى آخر هذه الأمور التي كلها تنتهي بالموت: «لأن نهاية تلك الأمور هي الموت» (روا: ٦: ٢١)، أما الأمور الروحية فثمرها «للقداسة والنهاية حياة أبدية» (روا: ٦: ٢٢)، حسب تعبير بولس الرسول. أمور العالم كلها في لحظة تنتهي، ويؤول كل مجدها إلى تراب. والراهب آخر من يحتاج إلى من يشرح له ذلك، لأنه بسبب إدراكه لهذه الحقيقة قد ترك العالم وأتى إلى الدير.

ولكن ما هي حقيقة المجد في المفهوم الروحي؟

إنه السمو الروحي في كل دروب القداسة وعلى الخصوص في الحب الإلهي.

عندما نقول إن طبيعة الله مجيدة جدًا، ماذا نعني بالضبط؟ هذا يُرادف قولنا إن «الله محبة»، الذي هو أبسط وأعمق وأصدق تعريف عن الله. طبيعة الله حب فائق لانهائي، أزلي وأبدي، يفوق كل حدود التصوُّر. طاقات من الحب الأبوي اللائهائي موجودة في الآب ومُنسكبة منه في الابن، ومُستعادة من الابن في صورة طاقات لا نهائية من الحب البنوي مُقدَّم للآب، كل هذا في شركة الروح القدس. هذا هو معنى أن «الله محبة» في ذاته، وهو بعينه ما نعبه حينما نقول إن طبيعة الله مجيدة جدًا في ذاتها.

ولكن هذا المجد الإلهي لا ينحصر في الله في ذاته، ولكنه يفيض منه على الخليقة كلها، لتعميم الخير على الخليقة كلها: «السموات تحدّث بمجد الله والفلك يُخبر بعمل يديه» (مز ١٩: ١)، والخليقة كلها تُخبر بمجد خالقها، أي بصلاحه وخيريته وسخائه وجُوده، التي كلها تعبيرات عن حبه الفائق ومعطائته التي لا تُحد.

والآن ماذا يعني المسيح حينما يطلب من الآب أن يُمجّده؟

المسيح عندما يقول للآب: «مجّد ابنك» وهو على عتبة الصليب، فهو يعني: اجعلني أتوهّج بالحب الإلهي، اجعلني أقبل الصليب، وأظهر على الملأ مقدار الحب اللائهائي الذي في قلبي من نحوك أيها الآب، ومن نحو البشرية كلها. هذا هو مجد المسيح الذي يطلبه من الآب وهو عتيد أن يتقدّم إلى الصليب.

الصليب هو الذي أظهر مقدار حب المسيح للآب، وهذا ما نقوله في إنجيل الساعة الثالثة: «لكن لكي يعلم العالم أني أحب أبي... قوموا نطلق من ههنا»

(يو ١٤: ٣١)، أي إلى الصليب. كذلك الصليب هو الذي أظهر مقدار حب المسيح الفائق للبشرية: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥: ١٣). هذا هو الحب الأعظم. الصليب كان أكثر موقف أظهر فيه المسيح حبه متوهجاً، سواء حبه للآب أو حبه لنا. لذلك كان أيضاً الصليب أكثر موقف ظهر فيه مجد الآب ومجد الابن.

هنا سؤال يتبادر للذهن: كيف يطلب المسيح من الآب أن يمجدّه؛ في حين أنه ممجد في حضن الآب من قبل تأسيس العالم؟ بل إنه يقول بعدها بقليل: «والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو ١٧: ٥)، فالمسيح يُقرُّ أنه ممجد في حضن الآب من قبل كون العالم بمجد أزلي لا يوصف؛ إذن، فكيف، وهو على عتبة الصليب، يطلب أن يمجدّه الآب؟!

المسيح بصفته الكلمة الأزلي، ممجد قبل كون العالم بمجد لانتهائي في حضن الآب، بسبب الحب اللانهائي المنسكب عليه من الآب والمُعَاد منه إلى الآب. ولكن الآن يوجد شيء جديد لم يكن من قبل كون العالم، وهو أن المسيح صار لابساً جسداً. فالمسيح يطلب الآن لبشريته أن يظهر فيها نفس المجد الذي كان له من قبل كون العالم عند الآب، يطلب أن يتمجد جسده بنفس هذا المجد، أن يظهر فيه نفس الحب الإلهي بكل قوته الفائقة الأزلية.

وهذا هو ما حدث تماماً على الصليب: صار جسد المسيح متفاعلاً مع الحب الإلهي الأزلي. كانت كل خلية من جسمه تتألم آلاماً مُريعة، كانت كل خلية تُرسل عن طريق الأعصاب إشارات إلى المخ أن هناك أوجاعاً فظيعة لا تُحتمل، ولكن كان

المخ يردُّ على هذه الإشارات: ”من أجل حب الآب، ومن أجل حب البشرية ينبغي أن أشرب الكأس إلى النهاية“. وهكذا كانت كل خلية من جسم المسيح تصبر على الألم من أجل حب الآب ومن أجل حب البشرية، فتتوهّج بالحب الإلهي الأزلي الذي كان في الابن من قبل كون العالم.

وهكذا نفهم طلبه الرب حينما يقول للآب: «مجّد ابنك»  
بمعنى: «اجعلني أتوهّج بحبك.

أنت تعلم أنني مشتعل بحبك منذ الأزل،

ولكن اجعلني الآن وأنا في الجسد،

أشع حبك - على الصليب - في مرأى من البشرية كلها،

فيعلم كل من يراني مقدار الحب الذي فيّ من نحوك،

وبذلك أتمجّد كابن جدير بك،

بل وتنتقل نار الحب الذي فيّ إلى كل من ينظر إليّ،

وبذلك أصير ممجّدًا فيهم أيضًا (ع ١٠)،

فإني جئتُ لألقي نارا على الأرض فماذا أريد إلا أن تضطرم!

فمجد الابن هو إظهار حبه اللائق الناري، بل وانتقال هذا الحب منه إلى كل من ينظر إليه.

«... ليُمجّدك ابنك أيضًا»

أي لكي أظهر بالصليب مقدار حبك الفائق اللائق. فالصليب هو الذي أظهر لنا أعماق قلب الآب التي كانت مجهولة. يقول إشعياء: «حقًا أنت إله محتجب يا إله إسرائيل» (إش ٤٥ : ١٥).



المسيح في العهد الجديد أظهر لنا أعماقًا من حقيقة الله كانت مخفية عن البشرية. يقول القديس يوحنا: «الله لم يَرَهُ أَحَدٌ قط، الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خَبَرٌ» (يو: ١: ١٨)، فالمسيح هو الوحيد الذي أخبرنا بأعماق قلب الله الداخلية، التي لم يدرِ بها أحدٌ من قبل. كانت كل معرفتهم عن الله في العهد القديم مبنيةً على الناموس وأقوال الأنبياء: إنه إله يُكافئُ الخير وينتقم من الشر، أمّا أعماق قلبه الداخلية فلم تنكشف إلا من خلال المسيح الذي أخبرنا بمقدار الحب الفائق المخفي في قلب الآب: «الآب نفسه يحبكم...!» (يو: ١٦: ٢٧).

يقول القديس يوحنا في رسالته الأولى: «هذا هو الخبر الذي سمعناه منه ونُخبركم به: أن الله نورٌ وليس فيه ظلمةٌ البتة» (١ يو: ١: ٥). الله نورٌ، أي حب صافي، ليس فيه أي نوع من البغضة أو من السلبية، الله إيجابية مطلقة فائقة، حبٌ فائق لا حدود له. هذا هو المكنون عنه بالنور.

«ليمجدك ابنك أيضًا»، أي لأكشف للبشرية من خلال صليبي أعماق حبك من نحوهم، حتى إذا ما عرفوني أنا، يعرفوك أنت بالتبعية.

نحن عندما نرى المسيح على الصليب مصلوبًا، نعرف مقدار حبه، وبالتالي نعرف مقدار حب الآب: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو: ٣: ١٦). هذه الآية هي ملخص الإنجيل كله. الإنجيل هو الخبر السار، الخبر المُفرح، وأعظم خبر مُفرح في الإنجيل هو: أن الله الآب أحبنا وبذل ابنه من أجلنا على الصليب.

كذلك يمكن أن نقول إن رسالة الرب يسوع الاستعلانية تتلخّص في الآية: «لِيُمَجِّدَكَ ابْنُكَ أيضًا»، أي لكي أعلن لهم أعماق قلبك. المسيح على مدى

الإنجيل كلّهُ لم يكف من أن يُعلن لنا حقيقة الآب، فهو باستمرار كان يتكلّم عن الآب: «لأن أباكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه» (مت ٦: ٣٢)، «فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه» (لو ١١: ١٣)... المسيح لم يكف طوال الإنجيل من تكرّم الآب، ولكن أكثر موقف كشف فيه بقوة أعماق قلب الآب كان هو الصليب:

+ «بهذا أظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. في هذا هي المحبة ليس أننا نحن أحببنا الله، بل أنه هو أحبنا وأرسل ابنه كفارة لخطايانا» (١ يوحنا ٤: ١٠ و ٩).

+ «الله بيّن محبته لنا لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا» (رو ٥: ٨).

+ «الذي لم يُشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين كيف لا يهينا أيضًا معه كل شيء؟!» (رو ٨: ٣٢).

+ «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضًا بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانيةً (حين أُصلب علانيةً)» (يو ١٦: ٢٥).

فبواسطة الصليب الآب مجّد الابن (بأن أظهر لنا حب الابن الفائق الذي هو مجده) والابن مجّد الآب علانيةً (بأن أظهر علانيةً حب الآب الفائق الذي هو مجده).

كلما قلنا «المجد للآب والابن والروح القدس» ليتنا نتذكّر هذه المعاني السامية لكلمة "المجد": المجد للآب الذي أحبنا بهذا الحب الفائق حتى بذل ابنه لأجلنا، والمجد للابن الذي أظهر لنا حب الآب على الصليب، والمجد للروح القدس الذي ينقل إلينا نفس هذا الحب ويسكبه في قلوبنا!

«إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته»  
«وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك»  
«ويسوع المسيح الذي أرسلته»

الأداة: ”إذ“ التي تربط هذه الآية بسابقتها هي في الأصل καθώς = ”كما“.  
فيكون المعنى: ”مجدني أيها الآب لكي أجدك (أي لكي أعرفهم مقدار حبك)، كما أعطيتني سلطاناً على كل جسد لأعطي كل ذي جسد الحياة الأبدية التي هي معرفتك الحقيقية“.

فتعريفنا بحب الآب هو الحقيقة العميقة المقصودة من عبارة «لكي أجدك»،  
وهو هو حقيقة الحياة الأبدية التي أخذ الابن سلطاناً أن يعطيها لكل ذي جسد،  
وهذا هو سبب ربط الآيتين بأداة καθώς = «كما».

الحياة الأبدية هي أن نعرف الآب. ولكن ماذا نعرف عن الآب؟ بالطبع لن نعرف منه أية صفات مادية من شكل أو لون أو حجم إلخ... لأن الله روح، والروح مُنَزَّه عن الصفات المادية. ولكن معرفتنا للآب تكون معرفةً لصفاته الروحية وأهمها المحبة، أو بالأصح المحبة ليست مجرد صفة من صفات الله ولكنها جوهر كيانه، حتى استطاع القديس يوحنا أن يُعرِّف كيان الله بأنه المحبة، قائلاً في اختصار بديع: «الله محبة» (١ يوحنا ٤: ١٦و٨).

فأهم ما نعرفه عن الآب هو محبته الفائقة غير المحدودة.

وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك

والمسيح أخذ من الآب سلطاناً أن يُعرِّفنا من هو الآب:

«كل شيء قد دُفِع إليّ من أبي، وليس أحدٌ يعرف من هو الابن إلا الآب، ولا من هو الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له» (لو ١٠: ٢٢).

ولكن ما هي الحياة الأبدية؟

صفة "الأبدية" αἰώνιον تعني في نفس الوقت ما هو أزلي وما هو أبدي<sup>(٤٦)</sup>، فالحياة الأبدية هي الحياة غير الزمنية، الحياة المنزهة عن الزمن، الكائنة قبل الزمن والدائمة إلى الأبد. الحياة الأبدية هي حياة الله. وما هي حياة الله؟ هي المحبة، كما قال القديس يوحنا. فحياة الله كائنة في علاقات الحب الفائق المتبادل بين الآب والابن في الروح القدس، والتي «لا يسوغ لإنسان أن يتكلّم بها» (٢ كو ٤: ١٢). المسيح أخذ سلطاناً أن يسكب فينا هذه الحياة الأبدية، وذلك بأن يُعرِّفنا من هو الآب ومن هو الابن. فنحن حينما نعرف الآب على حقيقته، أي كما هو من الداخل، أي حينما نعرف مقدار الحب الفائق المدّخر في قلب الآب، فحتماً ندخل في شركة هذا الحب. لأن الاستعلان في أمور الله يُنشئ دائماً شركةً فيما يُستعلن لنا. لا يمكن أن نعرف شيئاً عن الله معرفةً روحية حقيقية، بدون أن نتأثر بهذه المعرفة، وندخل في شركة مع ما نعرفه. والمسيح أكّد هذا المفهوم في آخر هذه الصلاة:

«قد عرّفْتهم اسمك وسأعرّفهم

ليكون فيهم الحب الذي أحببتي به» (يو ١٧: ٢٦).

(٤٦) هذه الصفة تُترجم أحياناً "أزلي" كما في عب ٩: ١٤ «روح أزلي» πνεύματος αἰωνίου « وكما

في تي ٢: ١ «قبل الأزمنة الأزلية» αἰώνων « πρὸ χρόνων αἰώνων »

هذه الآية الأخيرة جديدة بأن نسبق ونشرحها منذ الآن، وخصوصاً لام التعليل التي تربط بين شطريها. لأنها تبين كيف أن معرفتنا لاسم الله أو لحقيقة الله تجعل حياة الله (المعبر عنها هنا بالحب الذي أحب به الآب الابن) تنسكب فينا.

«عَرَفْتُهُمْ اسْمَكَ»: ما هو اسم الله الذي عَرَفْنَا به المسيح؟ إنه اسم "الآب". من النادر أن نجد في العهد القديم أي ذكر عن الله الآب، فالله هو "إله إسرائيل"، "الإله المخوف"، أو على أحسن تقدير "إله المراحم"، "إله آبائنا إبراهيم وإسحق ويعقوب"... ولكن أن يكون الله "أبانا"؛ فهذا هو الاسم الجديد الذي عَرَفْنَا به المسيح. فَعَرَفْتُهُمْ اسْمَكَ تعني أعلنتُ لهم أبوتك، كشفتُ لهم أعماق قلبك الأبوي، أظهرتُ لهم مقدار حبك الأبوي اللائحي.

«وَسَأَعَرَفُهُمْ أَيْضًا»: استمرَّ المسيح يكشف لهم حقيقة الآب بالكلام على مدى ثلاث سنوات، ولكن الآن جاءت الساعة لكي يُعَرِّفَهُمْ بطريقة عملية واقعية، وليس بالكلام بعد، من هو الآب. فإنهم عندما يرون المسيح مصلوبًا ويعرفون أنه «هكذا أحب الله العالم...»، حينئذ يكتشفون مقدار حب الله الآب اللائحي، فتتجرح قلوبهم بحب الآب وينسكب نفس هذا الحب في قلوبهم.

«ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به»: هذه العبارة «الحب الذي أحببتني به» تبدو بسيطة وكأنها ٤ كلمات نقولها في ثانيتين أو ثلاث ثواني، ولكن لا يمكن أبدًا استيعاب أعماقها. إنه حب فائق لا نهائي أزلي، فهو كائن قبل الزمن ويستمر بعد أن ينتهي الزمان، وهو لا نهائي في مقداره، أعظم بلا قياس من كل الطاقات المخلوقة في هذا الكون الفسيح بكل ما يحوي من نجوم ومجرات، بل لا وجه للمقارنة

وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك

إطلاقًا بين كل الطاقات المخلوقة الهائلة في هذا الكون وبين الحب الذي بين الآب والابن، «الذي به كان كل شيء». لذلك نحن لا نبالغ إن قلنا إن هذه العبارة لا يمكن أن نستوعب معناها لا في عدة محاضرات ولا في سنة ولا حتى في مائة سنة! فالحب الأبدي المعروض علينا فيها لا تكفيه الأبدية أيضًا لكي نستوعبه.

في الحقيقة إن جرأة المسيح في هذا الطلب، المبنية على ثقته الكاملة في سخاء الآب تفوق كل حدود! إنه طلب لا يتصوره عقل<sup>(٤٧)</sup>، أن يكون فينا هذا الحب اللانهائي، بينما نحن محدودون في طبيعتنا. فكيف يحل اللامحدود في المحدود إلا ويجعل هذا المحدود ينفجر أو على الأقل ينمو بلا نهاية!! فنحن كلما أخذنا منه، كلما اتسع قلبنا لنأخذ أكثر أيضًا، وكلما اكتشفنا أنه لا تزال أماننا آفاق شاسعة معروضة علينا لم نصل إليها بعد، وما أخذناه لا يساوي شيئًا بالمقارنة بما هو معروض علينا أن نأخذه من طاقات هذا الحب.

القديس غريغوريوس النيسي يصف هذا النمو المتتالي الذي سيستمر بلا نهاية في الأبدية السعيدة هكذا:

[هذا هو العجب في مشاركة الخيرات الإلهية:

إنها تجعل الذي تحل فيه يزداد اتساعًا وقدرةً على الاستيعاب،

ثم من قدرته واتساعه تتخذ فرصة لتزويد العطاء المُعطى له،

حتى أنه ينمو باستمرار ولا يكف أبدًا من النمو.

(٤٧) «ما لم تَرَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ما أعدّه الله للذين يحبونه» (١كو ٢: ٩).

وبينما ينبوع الخيرات يفيض بلا توقُّف،  
فإن طبيعة الشخص الذي ينالها تُحوَّل كل هذا الفيض  
إلى ازدياد سعتها الخاصة،  
فتصير أكثر قدرة على اجتذاب الخيرات الإلهية، وأكثر اتساعاً لاستقبالها.  
وكلُّ من الأمرين ينمو بنمو الآخر:  
فالقُدرة على الاستيعاب تجد في وفرة الخيرات ما يدفعها إلى النمو الأكثر؛  
وكذلك النعمة المعطاة تجد في نمو الذين ينالونها فرصة لتزويد  
انسكابها<sup>(٤٨)</sup>

وهكذا يستمر نمُّونا بلا نهاية. توجد آية في الرسالة إلى أفسس فيها نفس جرأة  
هذه الآية التي أُنحى بها المسيح صلاته، وثُبِّين هي أيضاً أن الاستعلان في أمور الله لا  
بد أن يُشْييء فينا شركة فيما نستعلنه:

«وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله»  
(أف ٣: ١٩). نلاحظ فيها أولاً مضادة بين قوله: “تعرفوا”، وبين وصفه ما نعرفه  
أنه “فائق المعرفة”! فكيف نعرف محبة المسيح التي هي أصلاً فائقة المعرفة؟! المعرفة  
هنا نامية، تنمو بلا حدود.

«...لكي تمتثلوا إلى كل ملء الله». نلاحظ هنا حرف الجر “إلى” eis إنه  
يعطي للآية امتداداً مفتوحاً بلا نهاية. فنحن نمتلئ و نمتلئ، وكلما امتلأنا أكثر، كلما

وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك

انفتحت أمامنا أفاقٌ جديدة من الامتلاء، «إلى كل ملء الله». وطبعًا لم يقل  
بـ “كل ملء الله” لأن ملء الله حقيقة لا نهائية يمكن أن تمتد “نحوها  
(eis=)“ ولكن يستحيل أن نستنفذها...

وأخيرًا نلاحظ أداة “لكي” (= ïva) التي تربط شطري هذه الآية «تعرفوا محبة  
المسيح الفائقة المعرفة لكي ïva تمتلئوا إلى كل ملء الله»، وهي نفسها التي  
تربط شطري الآية التي ألقى بها المسيح صلاته: «قد عرّفْتهم اسمك وسأعرّفهم  
لكي ïva يكون فيهم الحب الذي أحببْتني به»، وفي كلا الآيتين تبين “لكي =  
ïva” الارتباط بين المعرفة وبين الامتلاء، أي بين استعلان أمور الله وبين الشركة  
فيها. وهو نفس المعنى المكنون في قوله إن الحياة الأبدية هي «أن يعرفوك أنت الإله  
الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته». فالمعرفة الروحية لأمر الله تُنشئ  
دائمًا شركةً فيها، على قدر ما نفتح لها. ولكن يُلاحظ أن المعرفة الروحية  
(الاستعلان) غير المعرفة العقلية (العلم). فالمعرفة العقلية (العلم) لا تتبعها شركة مع  
ما نعرفه. فمثلاً ربما أدرس الجغرافيا وأعرف الكثير عن بلد من البلدان، ولكن يبقى  
هذا البلد بعيدًا عني، لا يَخْصني في شيء ولا أشعر بأي شركة معه. معرفة الله غير  
ذلك؛ فهو عندما يُستعلن لنا، فلا بد أن ندخل في شركة معه، على قدر ما نفتح  
قلوبنا له. حُب الله لا يمكن أن يُعرف نظريًا، لا يمكن أن نناله من كتاب ولا من  
١٠٠ كتاب ولا من مكتبة كاملة، ما لم يفتح قلبنا لانسكاب حب الله فيه.  
والقديس يوحنا يؤكد ذلك قائلاً: «كل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله.  
ومن لا يحب فلم يعرف الله؛ لأن الله محبة» (١ يوحنا: ٤: ٧ و٨). هذه الآية توضّح



بجلاء أنه لا يمكن أن يكون استعلان ولا معرفة روحية بدون شركة ومحبة. فمن المستحيل معرفة الله دون أن نُحِبّه، لأن الله محبة. كل شهادات الدكتوراه في اللاهوت لا تكفي لمعرفة الله، ما لم ينفّث القلب لمحبته. بقدر ما نُحِب الله بقدر ما نعرفه، وبقدر ما نعرفه بقدر ما ينسكب حبه في قلوبنا.

والآن نستطيع أن نستوضح أكثر معنى قول المسيح الذي ختم به صلاته:  
«عَرَفْتَهُمْ اسْمَكُ»: على مدى ٣ سنوات لم أكفّ من الإعلان عن صلاحك  
وحبك الأبوي،

«وسأعَرَفُهُمْ أَيْضًا»: على الصليب حينما يتجلّى أمامهم إلى أي مدى أَحَبَبْتَهُمْ  
حتى بذلت ابنك لأجلهم،

«ليكون فيهم الحب الذي أَحَبَبْتَنِي بِهِ»: لأن استعلان حبك اللانهائي لهم لا  
بد أن يجعل نفس هذا الحب ينسكب في قلوبهم!

والآن على ضوء هذه الآية التي أنهى بها المسيح صلاته نستطيع أن نسترجع قوله  
في بدء صلاته:

«مَجِّدْ ابْنَكَ لِيُمَجِّدَكَ ابْنَكَ أَيْضًا»: أي اجعل ابنك يتوهّج بالحب الإلهي على  
الصليب، لكي يُعْلِن ابنك بالتالي على الصليب مقدار حبك  
اللانهائي، الذي هو مجدك.

«كما أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته.  
وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك...»

وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك

المسيح يطلب أن يمجده الآب على الصليب، لأنه بالصليب سيُظهر حب الآب اللاهثائي للبشر، فالابن هو الوحيد الذي له سلطان على كل جسد يُعطي لكل جسد معرفة الآب ومعرفة الابن، هذه المعرفة التي هي بعينها مصدر انسكاب الحياة الأبدية فينا...

### ونحن على أعتاب أسبوع الآلام

في الحقيقة هذا الكلام يفيدنا جدًا ونحن على أعتاب أسبوع الآلام، وهو أفضل مدخل روحي له، وذلك حتى نستفيد من هذه الصلوات التي تستغرق ساعات طويلة من اليوم، لتأمل في الصليب الذي هو أعظم استعلان لحب الله، لحب الآب ولحب الابن:

حب الآب: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد...» (يو ٣: ١٦)،

ولحب الابن: «ليس لأحد حب أعظم من هذا

أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو ١٥: ١٣).

فنحضر أسبوع الآلام ونحن مُركّزين أنظارنا وكل مشاعرنا في المسيح المصلوب، ونرى من وراء الأحداث مقدار الحب اللاهثائي المُدّخر في قلبه، والذي دفعه لتحمل كل هذه الآلام حبًا فينا، ومن خلال حب المسيح نستشف مقدار حب الآب اللاهثائي الذي بذل ابنه حبًا فينا. على قدر ما نفتح لهذه المعرفة، على قدر ما تنسكب فينا الحياة الأبدية، ونشعر بتيارها يُحرّك قلوبنا.

هناك آيات كثيرة في العهد الجديد تبين أنه على قدر ما نتعرّض لإشعاع الحب

الإلهي، على قدر ما يؤثر فينا هذا الإشعاع تأثيرًا مُغيّرًا إلى صورة ما نراه من حب الله (وهذا هو أفضل ما نأخذه من أسبوع الآلام):

+ «ونحن جميعًا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآه، نتغيّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ٣: ١٨).  
إن معنى هذه الآية يتفق مع معنى الآية التي نحن بصدددها: «مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضًا» حتى إذا استعلن مجدك لهم وعرفوه تؤثر فيهم هذه المعرفة وتنقلهم إلى حياة أبدية!

+ والقديس يوحنا، في رسالته الأولى، يقول: «نعلم أنه إذا أظهر ذاك سنكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (١ يو ٣: ٢)، ماذا تعني عبارة «كما هو»؟ تعني أننا سنراه بحسب حقيقته الروحية الإلهية، وليس بعد «بحسب الجسد» (٢ كو ٥: ١٦)، أي بحسب منظره الخارجي الذي ألفوه لمّا كان يمشي معهم على طرق الجليل ويستضيفونه في بيوتهم. لكننا سنراه «كما هو» على حقيقته الإلهية، التي رأى بعضهم إشعاعات بسيطة منها يوم التجلي، فبهتوا وصاروا لا يدرون ماذا يقولون؛ وكما رآه شاول على طريق دمشق فصُعق وانعمت عيناه وتغيّرت حياته كلها وبقي بقية أيامه تحت تأثير هذه الرؤيا!

+ والمسيح نفسه يقول: «حينئذ يُضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت ١٣: ٤٣)، أي يُضيئون بشبه وجه المسيح الذي «أضاء وجهه كالشمس» (مت ١٧: ٢) يوم التجلي. فنحن حينما يُظهر «سنكون مثله لأننا سنراه كما هو». بل ومنذ الآن، بقدر ما يُستعلن لنا الحب الإلهي الموجود في المسيح على

وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك

الصليب، ونعرف المسيح بحسب حقيقته الروحية، بقدر ما ينتقل إلينا هذا الحب داخل قلوبنا ويُغيِّرنا لنكون على مثاله، كما أن الصورة تُشبه الأصل، أو كما أن الجسم غير المشع إذا تعرَّض لجسم مشع، يصير هو نفسه جسمًا مشعًا، بقدر ما يتعرَّض إليه من الزمن<sup>(٤٩)</sup>.

+ والقديس يوحنا الحبيب هو التلميذ الخبير في معرفة محبة المسيح، فهو الذي اتكأ على صدر الرب، وسمع نبضات قلبه الإلهي، ولم يكف طوال حياته عن أن يتكلم عن مقدار هذا الحب: «ونحن قد عرفنا وصدقنا المحبة التي لله فينا» (١ يوحنا: ١٦). وأما تقريره النهائي عن انتقال حب المسيح إلينا فهو هكذا: «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً» (١ يوحنا: ٤: ١٩). هذه الآية لها معنى ظاهري بسيط ولها معنى أعمق وأقوى. المعنى البسيط هو بشبه ما يحدث إذا أحبَّك صديقٌ لك، وبذل وضحيَّ كثيرًا من أجلك، فلا بد أنك تبادلته الحب، بسبب إحساسك أنك مديون له. أما المعنى الأعمق فهو أن قوة حب المسيح انسكبت في قلوبنا وأنشأت فينا حبًا على صورة حبه. فالأمر ليس إذن مجرد مثال نحتذي به من طرفنا؛ ولكنه نعمة تنسكب فينا من طرفه هو وتُنشئ فينا حبًا على مثال حبه لنا. فنحن نحبه بسبب انسكاب حبه داخل قلوبنا، نحن نحبه بالمحبة التي أحبَّنا بها والتي أعطانا أن نحبه بها، فحتى محبتنا له هي نابعة منه.

في الختام نقول: إن معرفة حب الله هي المدخل الوحيد لانسكاب حب الله داخل قلوبنا، ولكل تقدُّم روحي.

---

(٤٩) هذا التشبيه أوردته أبونا الروحي في كتابه "توجيهات في الصلاة" تحت عنوان "٣- تنغيَّر إلى تلك الصورة عينها"، مع شرح وافٍ لهذه الحقيقة الروحية.

الرب يعطينا في أسبوع الآلام القادم أن نختبر هذه الحقيقة أمام الصليب فنحس بطاقات الحب الإلهي تنتقل من المسيح المصلوب إلى داخل قلوبنا فننمو إلى نفس هذا الحب الذي أحبنا هو به أولاً.

### سؤال: أين دور الروح القدس في هذه الصلاة؟

الروح القدس متضمن في معظم الكلام السابق. صحيح أن المسيح لم يذكره صراحة في صلاته هذه في يوحنا ١٧؛ ولكن معظم طلبات هذه الصلاة تتضمن معانٍ متصلة بالروح القدس دون أن تذكره. مثال ذلك: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتي به»، فمعروف أن الروح القدس هو روح المحبة الذي به تنسكب محبة الله داخل قلوبنا: «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا» (رو: ٥: ٥). والقديس كيرلس الكبير في شرحه لهذه الصلاة يتكلم كثيراً عن دور الروح القدس فيها. فمثلاً عند شرحه لعبارة: «قدّسهم في حَقِّك»، يُبيّن على مدى عدة صفحات أن المقصود هو تقديس نفوسنا بالروح القدس، لأن التقديس هو عمل الروح القدس الأساسي، والمسيح حينما يقول: «لأجلهم أُقدّس أنا ذاتي»، فهو يقصد ضمناً قبوله الروح القدس تديريراً لأجلنا. كذلك عندما يشرح القديس كيرلس كلام المسيح عن وحدة المؤمنين به، يُبيّن أن الروح القدس هو أيضاً المقصود بهذا الطلب لأنه هو روح الوحدة، فكل كلام المسيح عن وحدة المؤمنين به يتضمن سرّاً طلب حلول الروح القدس وعمله فيهم. والقديس أنثاسيوس أيضاً يقول بصفة إجمالية عن صلاة المسيح لأجل وحدة المؤمنين به:

[حينما يقول المخلص لأجلنا: «كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا» (يو ١٧: ٢١)، ... إنها طلبة مرفوعة إلى الآب، كما كتب يوحنا، نُكي يُعطى الروح القدس بواسطة المؤمنين، ذلك الروح الذي بسببه نعتبر كائنين في الله، بل ومُتَّحدين معًا في الله. فحيث إن الكلمة في الآب والروح يُعطى بواسطة الكلمة، فهو يريدنا أن نقبل الروح، حتى إذا ما قبلناه، فحينئذ يكون لنا روح الكلمة الكائن في الآب، فنتعتبر نحن أيضًا بواسطة الروح قد صرنا واحدًا في الكلمة، وبواسطة واحدًا في الآب... إذن فالروح القدس هو الذي يكون في الله، وليس نحن من ذاتنا، فكما أننا نكون أبناءً وآلهةً بسبب الكلمة الذي فينا، هكذا نكون في الابن وفي الآب ونعتبر صرنا واحدًا في الابن وفي الآب بسبب الروح القدس الذي فينا، الذي هو في الكلمة الذي في الآب»<sup>(٥٠)</sup>

الرب يعطينا أن ندخل هذا الأسبوع ونحن فاتحين أذهاننا وقلوبنا لكي نستقبل ونستوعب ما يريد الرب أن يسكبه داخل قلوبنا، وهو ما دفع من أجله ثمنًا لا نهائيًا، «عالمين أنكم افتديتم لا بأشياء تفنى، بفضة أو ذهب ... بل بدم كريم كما من حملٍ بلا عيب ولا دنس، دم المسيح» (١ بط ١: ١٨ و١٩).

---

(٥٠) المقالة الثالثة ضد الأريوسيين: ٢٥ (PG 26.376.5-33 (in TLG Orationes tres contra Arianos) ويلاحظ أن ق. أثناسيوس يكرر ذكر الروح القدس سبع مرات في هذه السطور القليلة التي يتكلم فيها عن صلاة الرب في يوحنا ١٧

## صلاة

إلهنا الحبيب، أيها الكلمة الأزلي، الموجود في حضن الآب قبل تأسيس العالم، والمُتمتع بحب الآب ومجد الآب،

نشكرك نشكرك نشكرك من أعماق قلوبنا لأنك لم تكتفِ بمجديك، ولم تكتفِ بسعادتك؛ بل أردت أن نُشركنا في هذا المجد. خلقتنا لنكون باكورةً من خلائِكَ، دعوتنا إلى مجدك الأبدي: «واله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدي...» (١بطه: ١٠). خلقتنا يا الله من أجل أن نكون شركاء مجدك الأبدي، وأعطيتنا الإنجيل الذي غايته هي «اقتناء مجد ربنا يسوع المسيح» (٢تس ٢: ١٤).

نشكرك من أجل عظم مجديك، يا من قدّمت نفسك على الصليب، ولكنك قبل أن تُقبل إلى هذه اللحظة طلبت أن ينسكب فيك وفينا هذا المجد. نشكرك يا حبيبنا يسوع. اجعلنا حينما نقف أمامك وننظر إلى مجديك تتغيّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح، فينسكب فينا نفس الحب الذي فيك والذي في الآب على قدر ما نستطيع أن نستوعب. اجعلنا نفتح أكثر فأكثر وبلا نهاية للنمو في استقبال حبك، انفتاحًا واستقبالًا بلا حدود.

أنت، يا حبيبنا يسوع، بذلت كثيرًا من أجل تحقيق هذه الغايات، بذلت حياتك ودمك، وكانت كل خلية في جسمك تصرخ وتئن من الألم.

أعطنا، يا رب، روحك القدوس الذي يجعلنا نفتح لاستقبال هذا الحب الذي أردته لنا.

وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك

بشفاعة جميع القديسين الذين عاشوا في هذه البرية، والذين كانوا مُشتعلين  
بجبك، بهذا الروح الناري العظيم، فكانت أجسادهم تستضيء وسط ظلمة المغارة،  
بشفاعتهم قوّننا، يا رب، نحن الضعفاء، نحن المنحصرين في ذاتياتنا، فُكّننا، يا رب،  
حرّرنا من هذا الانحصار في ذواتنا، اجعلنا منفتحين لاستقبال هذا الروح الناري،  
الذي تشتتهي أنت أن تسكبه فينا.

بشفاعة جميع آبائنا القديسين، وبشفاعة الدم الإلهي الذي قدّمه ابنك من أجلنا،  
اسمعنا أيها الأب حين نقول: أبانا الذي...



## «قَدَّسَهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلَامُكَ هُوَ الْحَقُّ» (١٧ع)

تأملنا اليوم سيكون في صلاة الرب في يوحنا ١٧ الأعداد من ١٧ إلى ١٩:

١٧ «قَدَّسَهُمْ فِي حَقِّكَ، كَلَامُكَ هُوَ الْحَقُّ.

١٨ كما أَرَسَلْتَنِي إِلَى الْعَالَمِ، أَرَسَلْتُهُمْ أَنَا إِلَى الْعَالَمِ،

١٩ وَلَأَجْلَهُمْ أَقْدَسُ أَنَا ذَاتِي لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا مُقَدَّسِينَ فِي الْحَقِّ».

### «قَدَّسَهُمْ فِي حَقِّكَ»

ما معنى "في حَقِّكَ"؟ ما هو حق الله؟ إنه حقيقته، كما هو بالحقيقة. فيكون معنى الآية: "أجعلهم يعرفونك على حقيقتك فيتقدسون بهذه المعرفة".

ولكن ما هي حقيقة الله؟ حقيقة الله المطلقة هي حبه الفائق اللانهائي الأزلي الذي يتجاوز كل قياسات الخليفة، وكما قلنا سابقاً إن أبسط وأعمق تعريف عن الله هو ما قدّمه يوحنا الحبيب: «الله محبة». فحينما تُستعلن للإنسان حقيقة الله للتو يدخل في شركة مع تلك الحقيقة المُعلنة له، أي في شركة هذا الحب وهذه القداسة التي استُعلنت له.

فيكون معنى الآية: "قَدَّسَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ حُبِّكَ الْأَزْلِيِّ، حَتَّى إِذَا عَرَفُوا أَعْمَاقَ قَلْبِكَ الْحَقِيقِيَّةِ، وَكَيْفَ أَنَّكَ أَحْبَبْتَ الْعَالَمَ، فَأَنْهَمُ بِالتَّالِيِ يَتَقَدَّسُونَ تَلَقَّائِيًا بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ".

وهنا نُقابل نفس المبدأ الذي قلناه في المرة السابقة وهو أن استعلان حقيقة الله يُدخلنا حتمًا في شركة مع هذه الحقيقة. فالاستعلان يُؤلّد شركة. فعندما يقول المسيح هنا: «قدّسهم في حقك»، فهو يعني 'أكشف لهم حقيقة قلبك، حتى إذا ما عرفوها، يدخلون حتمًا في شركة مع هذه الحقيقة التي استُعلنت لهم ويتقدّسون بها'.

نفس هذا المعنى والمبدأ موجود في آخر آية في هذه الصلاة: «عرّفْتهم اسمك وسأعرّفهم أيضًا...»، وما هي نتيجة هذه المعرفة؟ «ليكون فيهم الحب الذي أحببته به».

في الواقع إن أكثر ما ينقص الإنسان هو أن يعرف الله على حقيقته. فلو أننا عرفنا الله كما هو بالحقيقة فلا بد أن نتحوّل، نغيّر تمامًا، أو كما يقول ق. يوحنا: «نكون مثله، لأننا نراه كما هو» (١ يو ٣: ٢)، أو كما يقول بولس الرسول: «ونحن جميعًا نأظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة نغيّر إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ٣: ١٨). استعلان حقيقة الله يُنشئ حتمًا تغييرًا، تغييرًا جذريًا، تغييرًا بقوة إلهية، بقوة هذا الاستعلان الذي يُدخلنا في شركة مع الحقيقة المُعلنة لنا. وقلنا المرة السابقة إن المعرفة الروحية خلاف المعرفة العالمية؛ فهذه الأخيرة يمكن أن تكون موجودة بدون أن ندخل في شركة أو علاقة مع ما نعرفه، ولكن حينما نعرف شيئًا روحيًا، فإننا ندخل في شركة معه، ونحس به ينساب داخل قلوبنا. وأكثر من عبّر عن هذا المفهوم هو القديس يوحنا:

«كل من يحب فقد وُلد من الله ويعرف الله،

ومن لا يحب لم يعرف الله، لأن الله محبة» (١ يوحنا ٤: ٨و٧).

بمعنى أن من عنده محبة، فهذا دليل أنه قد عرف الله على حقيقته، فانساب فيه شيء من المحبة التي عرفها في الله. ومن لا يحب، فهذا دليل أنه لم يعرف الله المعرفة الحقة، فمهما ادّعى المعرفة اللاهوتية، فمعرفة هذه باطلة وغير صحيحة ما لم ينسكب حب الله داخل قلبه.

«قَدْ سَهُم فِي حَقِّكَ» جاءت في بعض المخطوطات: «قَدْ سَهُم فِي الْحَقِّ»،

كما جاءت في آخر عدد ١٩ «ليكونوا مقدّسين فِي الْحَقِّ»، ولا فرق بين "فِي حَقِّكَ" وبين "فِي الْحَقِّ" لأن الحق بصفة مُطلقة (بالألف واللام) هو حق الله. والمعنى كما قلنا هو أن معرفة حقيقة الله تُؤلّد فينا القداسة. ولكي نستوضح هذا المفهوم أكثر نتأمّله في الوضع المعكوس:

+ المسيح قال عن الشيطان إنه «لم يثبت فِي الْحَقِّ» (يوحنا ٨: ٤٤)، أي لم يثبت في معرفة حقيقة الله، فلو كان ثبت فيها لما صار شيطانًا. ولكنه آل إلى ما آل إليه لأنه ترك عنه معرفة الحق.

+ وفي الرسالة إلى رومية، يتكلّم الرسول عن الأمم الذين تركوا عنهم حق الله، ففي ثلاث مرات يقول عنهم إنهم:

«يُحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالْإِثْمِ» (روا ١٨)،

«استبدلوا حق الله بالكذب» (روا ٢٥)

«ولم يستحسنوا أن يُبْقُوا الله فِي مَعْرِفَتِهِمْ» (روا ٢٨).

ويقابل موقفهم هذا بقوله أيضاً إلى ثلاث مرات إن الله أسلمهم...

«لذلك أسلمهم الله أيضاً في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة

أجسادهم» (روا: ٢٤)،

«لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان» (روا: ٢٦)،

«أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق» (روا: ٢٨).

فكما أن الثبوت في حق الله وفي معرفته يُنشئ فينا كل قداسة، «قدّسهم في حقك»، هكذا أيضاً «احتجاز الحق بالإثم» و«استبدال حق الله بالكذب» و«عدم استحسان إبقاء الله في معرفتنا» يُنشئ بالضرورة كل نجاسة وكل خطيئة.

ولكن ما معنى: «يحجزون الحق بالإثم»؟

الله أعطى الإنسان أصلاً قدرةً على معرفته، ولكن الإنسان يمكن أن يحجز هذه المعرفة، يتجاهلها ولا يُفكّر فيها، بل ويُحاول أن يتناساها، فتحدث غمامة بينه وبين معرفة الله، فينحجب الحق عنه.

والإنسان كثيراً ما رفض بمحض إرادته أن يثبت في معرفة الله، لم يستحسن أن يُبقي الله في معرفته، وفضّل أن يهتم بأشياء أخرى، فماذا كانت النتيجة؟ «فعلوا ما لا يليق»، «أهانوا أجسادهم بين ذواتهم»، «نائلين في نفوسهم جزاء ضلالهم المُحق»، فعلوا أشياءً تنقّز النفس من سماعها... والسبب في هذا كله هو إبعادهم الله عن معرفتهم وعن حياتهم؛ في حين أنهم لو اهتموا بمعرفة الله وعلّوها فوق كل معرفة أخرى علمية، لكانوا تقدّسوا بهذه المعرفة وكانت نفوسهم وقلوبهم تغيّرت وتحوّلت إلى حالة من القداسة لائقة بقداسة الله.

+ ونفس هذا المعنى يتكرّر في الرسالة الثانية إلى تسالونيكي، حيث يُقابل بين الذين «لم يقبلوا محبة الحق حتى يخلصوا ... لم يُصدّقوا الحق بل سُروا بالإثم» (٢تس ٢: ١٠ و ١١)، وبين الذين قبلوا ذلك: «أيها الإخوة المحبوبون من الرب، إن الله اختاركم من البدء للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق» (٢تس ٢: ١٣). فحينما نصدّق حق الله ونتمسّك به، حينئذ تتقدّس أرواحنا. إنه نفس معنى قول الرب: «قدّسهم في حقك».

+ كذلك نجد نفس المعنى في الآية القائلة: «أن تخلعوا من جهة التصرّف السابق الإنسان العتيق ... وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أف ٤: ٢٢ و ٢٣). لاحظ أنه لم يقل "في البر والقداسة والحق" (وكان القداسة مستقلة عن الحق)، لكنه قال «وقداسة الحق»، أي القداسة التي يُنشئها الحق، القداسة التي تأتي من معرفة الله على حقيقته، من معرفة حقيقة قلب الله وأعماق أبوته ومحبته. هذه المعرفة لا بد أن تُنشئ فينا القداسة.

+ ويقول الرب في إنجيل يوحنا: «وتعرفون الحق، والحق يُحرّركم» (يو ٨: ٣٢). المقصود هنا بالحق هو حقيقة الله المطلقة، وليس حقيقة أي شيء مخلوق؛ وإلا لكان أضاف إلى كلمة الحق مضاف إليه ليتحدّد المعنى. فحينما يذكر الحق بصورة مُطلقة (بالألف واللام) فهو يقصد حق الله أو حقيقة الله. ولكن مما تُحرّزنا معرفة الحق؟ المسيح نفسه أوضح ذلك قائلاً: «كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة» (يو ٨: ٣٤). فلو عرفنا الله على حقيقته، ولو ثبتنا في هذه المعرفة، ولو استحسنا أن نُبقي الله في معرفتنا، تكون النتيجة أننا نتحرر من عبودية الخطيئة.

+ والمسيح في إنجيل يوحنا يقول: «وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يو ١٦: ١٣). يقصد بعبارة «جميع الحق» جميع معرفة حقيقة الله، معرفة أعماق قلب الله. وهو نفس ما يُعبّر عنه بولس الرسول قائلاً: «الروح يفحص كل شيء حتى أعماق الله» (١ كو ٢: ١٠)، أي أعماق الحب الذي في الآب والابن. ثم يُضيف قائلاً: «ونحن لم نأخذ روح العالم، بل الروح الذي من الله لنعرف الأشياء الموهوبة لنا من الله» (١ كو ٢: ١٢). إنه نفس معنى قول المسيح: «يرشدكم إلى جميع الحق»، أي يرشدكم إلى جميع حقيقة الله المُطلقة الفائقة اللانهاية والأزلية، والتي تفوق التصوّر، والتي أسماها بولس الرسول «معرفة فائقة المعرفة»:

+ «وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩). هذه الآية تؤكد المبدأ الذي نقوله: أن المعرفة أو الاستعلان تُنشئ فينا شركة مع ما يُستعلن لنا. وأما قوله: «إلى كل ملء الله»، فيعني أننا كلّما تقدّمنا في معرفة محبة المسيح الفائقة المعرفة، كلّما امتلأنا أكثر، ولكن مهما امتلأنا فنحن لا يزال أماناً قدر لا نهائي من الامتلاء معروض علينا، ذلك لأن ملء الله لا نهائي.

كل هذه الآيات تُوضّح لنا قصد المسيح من قوله: «قدّسهم في حقك»، أي اجعلهم يعرفونك على حقيقتك، يتعرفون على أعماق قلبك، حتى يتقدّسوا بهذه المعرفة. مُنتهى الاختصار، ولكن مُنتهى العمق والغنى. هذا ما يطلبه لنا المسيح من الآب في الليلة التي أُسلم فيها، قبل أن يُسلّم نفسه لصلبيه.

كل ما طلبه المسيح قبل أن يسلم نفسه للصليب يُعبّر عن الغايات التي من

أجلها قدّم المسيح نفسه على الصليب حباً فينا. ومن أهم هذه الغايات أن نتعرّف على حقيقة الله فنتقدّس بهذه المعرفة.

ولكن كيف تكون غاية الصليب أن نتعرّف على حقيقة الله وأن نتقدّس بهذه المعرفة؟

الصليب عرّفنا بحبة الآب ومحبة الابن. لذلك نجد المسيح قبل أن يُسلّم نفسه للصليب يُعبّر بكلمات في مُنتهى الاختصار والعُمق عن هذه الغاية: «قدّسهم في حقك» أي قدّسهم بمعرفة حقيقتك كما ستُستعلن لهم على الصليب.

من المستحيل أن الإنسان يكون متواجداً أمام حقيقة الله، وله إحساس قوي بحضرة الله، ثم بعد ذلك يُخطئ! لكي يُخطئ لا بد أن يشعر أنه في غيبة عن الله، وكأن الله لا يراه، ثم بعد أن يُخطئ يتدارى من أمام وجهه الله، مثل آدم الذي اختبأ وراء الشجر.

هذا يُبيّن بوضوح أهمية "اختبار الوجود في حضرة الله". وماذا يصنعه هذا الاختبار فينا... إنه يُغيّرنا ويُقدّسنا، يجعلنا "نتقدّس في الحق". إذا كنا حقاً في حضرة الله ونعرفه على حقيقته، فلا بد أن نتقدّس بهذه المعرفة.

القديس أنطونيوس عرف أن تثبيت الفكر في معرفة محبة المسيح ومعرفة "ما فعله من أجلنا" هو سر نجاح الحياة الروحية كلها. لذلك لا يكف أن يوصي أولاده أن يثبتوا في هذه المعرفة. نجد ذلك على الخصوص في رسائله الستة التي تلي الرسالة الأولى، أي الرسائل من ٢ إلى ٧، حيث يُكرّر عدة مرات وصف ما عمله المسيح من أجلنا، وأنه من فرط محبته نزل من السماء وصُلب وبذل نفسه... ويقول لهم:

[فَمِنْ الْآنَ، أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ، لِيَكُنْ هَذَا الْكَلَامُ ظَاهِرًا لَكُمْ: أَنْ الْآبَ بِصَلَاحِهِ لَمْ يَشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ الْوَحِيدِ، بَلْ أَسْلَمَهُ مِنْ أَجْلِ خَلَاصِنَا] (الرسالة ٢: ٢). [اعلموا جيدًا هَذَا التَّدْبِيرَ الْعَظِيمَ ... لِهَذَا فَالْوَاجِبُ عَلَى جَمِيعِ النَّاطِقِينَ أَنْ يَعْلَمُوا هَذَا بِحَقِيقَةِ الْعَقْلِ ... وَلِيَكُنْ هَذَا الْكَلَامُ ظَاهِرًا لَكُمْ] (رسالة ٢: ٣). كُلُّ هَذَا التَّرْكِيزُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا فَعَلَهُ الرَّبُّ لِأَجْلِنَا لِأَنَّ الْقَدِيسَ عَرَفَ أَنَّا لَوْ ثَبَتْنَا فِي مَعْرِفَةِ حُبِّ الْمَسِيحِ وَبِذَلِكَ لِأَجْلِنَا فَسَوْفَ نَتَغَيَّرُ وَنَتَحَرَّرُ مِنْ عِبُودِيَةِ الْخَطِيئَةِ وَيَنْسَكِبُ فِيْنَا الْحُبُّ الَّذِي بَيْنَ الْآبِ وَالْإِبْنِ وَنَدْخُلُ فِي الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَةِ.

«قدّسهم في حقك، كلامك هو حق»

«كلامك» هي في الأصل "اللوغوس الذي لك" ὁ λόγος ὁ σὸς، فالمسيح هنا يُعَبَّرُ عَنْ نَفْسِهِ بِصِفَتِهِ كَلِمَةُ اللَّهِ، حَيْثُ "الكلمة" مِنْ أَلْقَابِ الْمَسِيحِ الْإِسْتِعْلَانِيَّةِ، أَيْ الَّتِي تُعَبَّرُ عَنِ الْمَسِيحِ بِصِفَتِهِ هُوَ الَّذِي يُعْلَنُ حَقِيقَةُ الْآبِ غَيْرِ الْمَنْظُورَةِ: [الابن هو حقيقة الآب المنظورة]<sup>(٥٢)</sup>. فالمسيح هو الذي يُعْلَنُ مَنْ هُوَ الْآبُ، وَيَكْشِفُ لَنَا أَعْمَاقَ قَلْبِ الْآبِ. فَكَمَا أَنَّ الْكَلَامَ الْبَشَرِيَّ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ الْإِنْسَانُ يُعَرِّفُنَا بِمَا فِي دَاخِلِهِ، كَذَلِكَ اللَّهُ الْكَلِمَةُ هُوَ الَّذِي يُعْلَنُ وَيُعَبَّرُ عَنْ حَقِيقَةِ اللَّهِ الدَّاخِلِيَّةِ.

كَذَلِكَ "الحق" هُوَ مِنْ أَلْقَابِ الْمَسِيحِ الْإِسْتِعْلَانِيَّةِ، فَقَدْ قَالَ الْمَسِيحُ عَنْ نَفْسِهِ: «أَنَا هُوَ الْحَقُّ» (يو ١٤: ٦)، بِمَعْنَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُعْلَنُ لَنَا حَقِيقَةَ الْآبِ.

(٥٢) القديس إيرينيئوس، ضد الهرطقات ٤: ٦: ٦.



المسيح في صميم كيانه هو الإعلان الحي عن حقيقة الآب. ولذلك دُعِيَ "الكلمة". ولذلك أيضًا كثيرًا ما استخدم الأفعال: "يُعَرِّف، يُعلن، يُخبر"، ليعبر عن وظيفته في إعلان من هو الآب. مثال ذلك: «أخبركم عن الآب علانية» (يو ١٦: ٢٥)، «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو خبر» (يو ١: ١٨)، «قد عرَّفْتهم اسمك وسأعرِّفهم أيضًا» (يو ١٧: ٢٦)، «ليس أحد يعرف ... من هو الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له» (لو ١٠: ٢٢).

وإنجيل يوحنا بالذات يُظهر لنا أن رسالة المسيح الأساسية هي أن يكشف لنا من هو الآب، يكشف لنا أعماق قلبه الأبوي.

هذا هو ما يقصده المسيح بقوله: «كلمتك هو حق» أي "أنا كلمتك، وأنا هو حقيقتك المنظورة، فعندما يرون فيَّ حقيقتك أنت، يتقدَّسون بالضرورة".

نحاول الآن أن نطبِّق هذا الكلام عمليًا:

عندما نرى المسيح مصلوبًا، نرى فيه استعلانًا منظورًا لحب الآب اللانهائي نحو العالم ولحقيقة قلب الآب الخفية، فمن خلال المسيح المصلوب يظهر لنا أنه «هكذا أحب الله العالم!» (يو ٣: ١٦ آية جديدة بأن تُكتب تحت صورة الصليب)، فتشرق في قلوبنا كما قال بولس الرسول: «إنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح» (٢ كو ٤: ٦). مجد الله كما قلنا هو الحب الإلهي الفائق اللانهائي الذي يفوق كل ما نستطيع أن نتصوره، مجد الله هذا نراه في وجه يسوع المسيح. هذا المجد ظهر على المستوى الحسِّي في حادثة التجلي، ولكنه ظهر على المستوى الروحي في الصليب الذي كان المسيح عليه في أوج حالة من المجد والإشعاع الروحي.

هذا هو ما يقصده المسيح بصلاته المختصرة: «قدّسهم في حقك»، فعندما يعرف الإنسان مقدار حب الله، الذي وصل إلى حد أنه «لم يُشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين» (رو ٨: ٣٢)، فلا يطيق الإنسان أن يعيش من أجل ذاته: «لأن محبة المسيح تحصرنا» لماذا؟ لأننا «نحسب هذا أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذا ماتوا. وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي مات لأجلهم وقام» (٢كو ٥: ١٥و١٤). فلم أعد أنا ملكاً لنفسي، لم أعد أستطيع أن أعيش حسب مزاجي وأهواء قلبي. إنه اشتراكي: «لستم لأنفسكم، لأنكم قد اشترتكم بثمن. فمجددوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله» (١كو ٦: ١٩-٢٠). ما معنى: «مجددوا الله في أجسادكم»؟ معناها: اجعل جسدك يُمجد الله بأن يكون أداةً للقداسة بدلاً من أن يكون أداةً للخطيئة. جسدك هذا هو الذي تستخدمه في عمل الميطنيات، وهو الذي تسكب به الدموع على أقدام المسيح، وهو الذي به تصوم حباً في الرب، وبه تتناول جسده ودمه، وهو الذي تعمل به أعمال القداسة: به ترفع يديك للصلاة، وتصلي إلى الله بشفتيك، وبدلاً من أن كانت عيناك تنجذب للمناظر القبيحة، إذ بهما تُرفع إلى فوق «إليك رفعتُ عينيَّ يا ساكن السماء» (مز ١٢٣: ١). ف «مجددوا الله في أجسادكم»، أساسها هو ما جاء في بداية الآية وهو أننا لم نعد ملكاً لأنفسنا، لأن المسيح اشترانا. ومعرفة أن المسيح اشترانا تتضمن معرفة محبته وكم كلفته هذه المحبة، وكم هو بذل من أجلنا. هنا تصوير حياة الإنسان وأعماله ومشاعره وأفكاره «محصورة» بحب هذا الحبيب الذي مات من أجله. أو كما يقول

بولس الرسول: «لم أعزم أن أعرف شيئاً بينكم إلا يسوع المسيح وإياه مصلوباً»  
(١كو ٢: ٢). فمعرفة حب المسيح تفوّقت في عقل بولس على كل معرفة أخرى،  
لتبقى فقط هذه الحقيقة الوحيدة لتماماً قلبه وتوجّه كل تصرفاته وتجعله لا يكف من  
السفر إلى كل مكان في العالم بلا هوادة ليعلن هذا الحب لجميع الأمم. وطبعاً  
السفر في ذلك الوقت لم يكن سهلاً كأيماننا الآن، ولكن كان سفره سيراً على  
الأقدام. كانت معرفة حب المسيح بالنسبة له طاقة روحية جبارة، وهذه الطاقة  
نفسها هي التي يطلبها لنا المسيح بقوله: «قدّسهم في حقك»، أي اجعلهم  
يعرفونك على حقيقتك فيتقدّسون بهذه المعرفة.

« كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم » (١٨ع).

لأول وهلة تبدو هذه الآية وكأنها غير مرتبطة بموضوع التقديس في الحق، أي بما يسبقها وما يليها. ولكن بشيء من التمعّن نجد أن الإرسالية مرتبطة أساساً بالتقديس.

يقول المسيح عن نفسه في إنجيل يوحنا: « فالذي قدّسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تُجذّف لأنني قلتُ إني ابن الله؟! » (يو ١٠ : ٣٦).

« قدّسه الآب وأرسله إلى العالم » : الإرسالية ملازمة للتقديس. التقديس معناه التكريس، أي أن يُكرّس الشخص للمهمة التي هو مُرسَل لأجلها. فعندما يقول: « كما أرسلتني إلى العالم، أرسلتهم أنا إلى العالم » يعني: كما قدّستني وكرّستني وجعلت كل مشاعري لخدمتك ولخدمة الإرسالية، اجعلهم هم أيضاً يتقدّسون حتى يقوموا هم أيضاً بهذه الإرسالية كما قمّت أنا بها، اجعلهم لا يعيشون لأنفسهم بل يعيشون لك أولاً وأخيراً، فيليقون أن يكونوا رسلاً.

المسيح كرّر عدة مرات أنه لم يأت ليُتمّم مشيئته بل مشيئة الآب الذي أرسله، وأن طعامة هو أن يصنع تلك المشيئة، هذا هو صميم القداسة التي عاشها والتي يطلبها أيضاً للرسل الذين هم عتيدون أن يُرسلوا.

كلمة « كما »، التي تبدأ بها الآية: « كما أرسلتني... » تدعونا أن نقارن إرسالية الرسل بإرسالية الرب على عدة مستويات:

١ - كما قدّستني قبل أن ترسلني (يو ١٠ : ٣٦)، هكذا أطلب أن يتقدّسوا قبل أن أرسلهم.

- ٢- كما أرسلتني إلى العالم بدون أن أكون من العالم (يو: ٨: ٢٣)؛ هكذا أرسلتهم أنا إلى العالم بدون أن يكونوا من العالم (يو: ١٥: ١٩ و ١٧: ١٤ و ١٦).
- ٣- كما أرسلتني لكي أشهد لك، وأشهد للحق (يو: ٨: ٣٨ و ٤٠ و ١٨: ٣٧)؛ هكذا أرسلتهم أنا إلى العالم ليكونوا شهودًا لي (يو: ١٥: ٢٧ وأع: ١: ٨).
- ٤- كما أرسلتني في وضع الإخلاء آخذًا صورة عبد (في ٢: ٧)، وليس لأخدم بل لأخدم وأبذل نفسي فدية عن كثيرين (مت ٢٠: ٢٨)، هكذا قبل أن أرسلهم أعطيتهم روح الإخلاء عينه، وعلمتهم أن يغسلوا بعضهم أرجل بعض، فليس رسول أعظم من مرسله (يو: ١٣: ١٦).
- ٥- وكما أرسلتني إلى العالم بدون أن انفصل عنك (يو: ١٦: ٣٢) «وأنا لست وحدي، لأن الآب معي»، هكذا أرسلتهم أنا لئيلمذوا جميع الأمم قائلاً لهم: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (مت ٢٨: ٢٠). فكما أن إرسالية الابن كانت بدون أن انفصل عن الآب، هكذا أيضًا إرساليتنا نحن هي بدون أن نفصل عن المسيح.

«ولأجلهم أقَدِّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضًا مُقدَّسين في الحق».

يلاحظ أن المسيح حينما كان يطلب شيئًا من الآب، كان بعد ذلك يُبَيِّن مساهمته مع الآب في تحقيق ما يُصَلِّي لأجله. فمثلاً حينما طلب من أجل وحدة المؤمنين قائلاً: «ليكون الجميع واحداً، كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضًا واحداً فينا» (يو ١٧: ٢١)، أضاف للتو مبيِّناً مساهمته الشخصية في تحقيق ذلك: «وأنَا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن واحد» (يو ١٧: ٢٢)؛ هكذا هنا أيضًا بعد أن طلب من الآب قائلاً: «قدِّسهم في حقِّك»، أضاف للتو مبيِّناً مساهمته في تحقيق ذلك: «ولأجلهم أقَدِّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضًا مُقدَّسين في الحق».

كذلك يلاحظ في هذه الآية ترتيب الكلمات: كان الأسهل لغويًا أن يقول المسيح: «وأنَا أقَدِّس ذاتي لأجلهم»، ولكنه قصد أن يُخلف ترتيب الكلمات الطبيعي ويضع «لأجلهم» في بداية الجملة: «ولأجلهم أقَدِّس أنا ذاتي»، حتى يقع التركيز على عبارة «لأجلهم». فهي التي تُحدِّد معنى الآية كُلِّها، لأن المسيح غير محتاج أن يقدِّس ذاته لأجل ذاته. هذا أمر بديهي، لأنه هو كُلِّي القداسة. هو كائن في حضن الآب من قبل تأسيس العالم في تجاوب مطلق معه (يو ١: ١٨). إنه في وضعه الأزلي πρὸς τὸν Θεόν أي «متَّجِّه نحو الله»<sup>(٥٣)</sup>. فإذا عَرَّفنا القداسة أنها التجاوب المطلق مع الله، أو أنها التخصُّص الكلي لله، أو أنها الانحياز الدائم نحو الله؛ فهذا كُلُّه موجود في الكلمة طَبِيعِيًّا وَأَزَلِيًّا بصفة مطلقة وغير قابلة للتغيير ولا

(٥٣) يو ١: ١ «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله πρὸς τὸν Θεόν (=متَّجِّهًا نحو الله)»

للزيادة. لذلك يستحيل أن المسيح بصفته الكلمة يقول من أجل نفسه: "أنا أقُدّس ذاتي". ولكن المسيح قالها "لأجلنا في الجسد"، بحسب المبدأ اللاهوتي الشهير الذي قرّره القديس أنثاسيوس أن كل ما فعله المسيح أثناء حياته الأرضية إنما فعله "لأجلنا في الجسد"<sup>(٥٤)</sup>، أو كما نقول في قانون الإيمان: «من أجلنا ومن أجل خلاصنا». فلم يكن الرب محتاجاً لأن يعتمد أو يصوم أو يصلي أو يُصلب أو يقوم أو يصعد للسماء لأجل ذاته، لأنه هو في كيانه الخاص بصفته الكلمة كائن في حضن الآب ولم يفارقه حتى أثناء وجوده على الأرض (يو: ١٨؛ و ٣: ١٣)، ولكن كل هذه الأفعال فعلها تديريراً «من أجلنا ومن أجل خلاصنا». ومن ضمن هذه الأفعال تقديسه لذاته، أي لجسده ولنفسه البشرية: فقد كان لصالحنا نحن، لأنه هو في ذاته لم يكن محتاجاً أصلاً لأن يلبس جسداً ولا لأن يُقَدّسه، كما يقول القديس أنثاسيوس أيضاً:

[الناس جميعاً لهم جسد ليعيشوا به ويوجدوا به؛  
أما هو فقد أخذ جسداً لكي يُقَدّس الجسد]<sup>(٥٥)</sup>

(٥٤) ضد الأريوسيين ٣: ٣٤. PG 26.396.13-29 (in TLG Orationes tres contra Arianos)

وقد اقتبس ق. أنثاسيوس هذه العبارة من بطرس الرسول (١ بط ٤: ١):

[فلنصدّق بطرس الطوباوي لأن شهادته عن المخلص صادقة وقد كتب في رسالته هكذا: «إذ قد تألم المسيح لأجلنا في الجسد...» (١ بط ٤: ١)؛ إذن فحينما يُقال أيضاً إنه جاع وعطش وضعف ولم يعلم ونام وبكى ... وبالإجمال إنه عانى كل ما يختص بالجسد، ينبغي أن يُقال بالتبعية في كل حالة: إذ قد جاع المسيح وعطش «لأجلنا في الجسد»، وإنه لم يعلم وأُطمع وضعف «لأجلنا في الجسد»، بل وأيضاً إنه رُفِعَ... وبالإجمال احتمال كل هذه الأمور «لأجلنا في الجسد»]

(٥٥) ضد الأريوسيين ٢: ١٠. PG 26.168.32-35 (in TLG Orationes tres contra Arianos)

لذلك فإن اقتناؤه للجسد هو اقتناء تدبيرِي، لصالح الجسد؛ لكي يقَدّس الجسد. غاية مجيء المسيح على الأرض هي لكي يقَدّس الجسد، ذلك بأن يُمَيّت طبيعتنا على الصليب، هذه الطبيعة القديمة التي فسدت بالخطيئة، ويقيم بقيامته إنساننا الجديد العائش «في البر وقداسة الحق». كان من المستحيل أن يتمّ ذلك بدون أن يأخذ الله هذه الطبيعة ويتحد بها ويُجرّي فيها تغييرًا جذريًا هو ما نسميه الخليقة الجديدة. من السهل على الله أن يُجرّي بمجرّد كلمة تغييرات جذرية على الجماد والطبائع المادية، ولكن لِيُغيّر طبيعة عاقلة حُرّة مخلوقة على صورة الله، فهذا أمر يستلزم من الله أن يأخذ هذه الطبيعة ويتحد بها في صميم كيانه، وُميّتها ويُقيمها ويُقدّسها في نفسه، بمعنى أن يجعلها بدلًا من أن تميل للخطيئة تميل إلى الله. هذا هو ما يقصده المسيح بقوله: «لأجلهم أقَدّس أنا ذاتي»، أقَدّس كل خلية من جسمي المأخوذ منهم، أقَدّس كل ملكات نفسي، أقَدّسها ليس لي أنا، فأنا غير محتاج لهذا التقديس؛ ولكن «لأجلهم، ... ليكونوا هم أيضًا مقدّسين في الحق».

في الحقيقة إن هذه الآية لها أهمية كبرى بالنسبة لمفهوم الخلاص، لأنها توضّح أن ما يعملهُ المسيح في ذاته يمكن أن ينتقل منه إلينا. والقديس كيرلس الكبير بارع في شرح ذلك، مستخدمًا أفعالاً عديدة لِيُبيّن أن كل ما حقّقهُ المسيح في ذاته "ينتقل منه إلينا"، "يتدفّق فينا"، "ينساب منه إلينا"، "يمتد منه إلينا"، "ينتشر منه إلى عموم الجنس البشري"، فالمسيح "يُرسل فينا ما حقّقهُ في نفسه"، "يشعّه فينا"، "يبثّه فينا"، إلخ... (٥٦)

---

(٥٦) يمكن في الدرس اليوناني أن ندرس هذه الأفعال العديدة التي يستعملها القديس كيرلس ليوضّح أن ما عمله المسيح في ذاته ينتقل منه إلينا.



بعض الآيات التي توضّح انتقال القداسة من المسيح إلينا:

+ «فبهذه المشيئة نحن مقدّسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرةً واحدةً»  
(عب ١٠ : ١٠).

بداية هذه الآية سبق أن شرحناها: «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول: ذبيحةً ومحرقةً لم تُرد ولكن هيأتَ لي جسداً... ثم قلتُ هانذا أجيء لأفعل مشيئتك يا الله» (عب ١٠ : ٥-٧). يلاحظ هنا أن ذبيحة المسيح التي قدّمها لأبيه بإصعاد جسده كان أساسها إخضاع مشيئته لمشية الآب، «لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لو ٢٢ : ٤٢). وهذه هي قمة تقديس الذات أن تكون مشيئتنا مُخضعة تماماً لمشية الله. لذلك تقول بقية الآية: «فبهذه المشيئة (المُخضعة تماماً لمشية الآب) نحن مقدّسون، بتقديم جسد يسوع المسيح مرةً واحدةً». كما يُلاحظ أيضاً هنا أن الذي أخضع مشيئته والذي قدّم جسده هو المسيح، بينما نحن الذين نحني نتيجة ما فعله، «فبهذه المشيئة (التي هو أخضعها) نحن مقدّسون...». وهذا هو بعينه ما يقصده الرب بقوله «لأجلهم أقدّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق».

+ «وأنا إن ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليّ الجميع

قال هذا مشيراً إلى أية ميتة كان مزماً أن يموت» (يو ١٢ : ٣٢).

المسيح على الصليب أنشأ قوة الانجذاب نحو الآب، جعل كل خلاياه الجسدية وملكاته العقلية وقواه النفسية منجذبة نحو الآب، إلى حد قبول الموت حباً في

الآب. وفي هذه الآية هو يَعِدنا أن هذا الانجذاب الكلي نحو الآب سيجعله يؤثّر فينا نحن أيضًا. ويلاحظ أنه في قوله «وأنا إن ارتفعت عن الأرض» لا يقصد بذلك صعوده إلى السماء، ولا أي ارتفاع مكاني؛ ولكنه - كما يؤكّد يوحنا الإنجيلي - كان يقصد ارتفاعه على الصليب «مشيرًا إلى أية ميتة كان مزعمًا أن يموت»، فكان يقصد ارتفاعًا روحيًا، ارتفاعًا في مستوى الحب، فهو يجذبنا من مستوى حب أرضي إلى مستوى حب لائق بابن الله الوحيد، يجذبنا من الترابيات إلى السماويات. «إن ارتفعتُ عن الأرض أجذب إليّ الجميع» تعني: أجذبهم بعيدًا عن الأرض وتراب الأرض واشتهاء كل ما يؤول إلى تراب الأرض. أجذبهم «إليّ» وأنا معلق على الصليب، أي أجذبهم إلى حب مشابه لحيي وأنا معلق على الصليب، أجذبهم إلى حب الآب وإلى تقديم أجسادهم ذبائح حية مرضية عند الله (رو ١٢: ١)، من داخل ذبيحتي الوحيدة المقدّمة لأجلهم مرةً واحدةً حبًا في الآب (يو ١٤: ٣١). لذلك لم يخطئ ق. كيرلس بقوله إن ما تم في جسد المسيح له تأثير سري "ينتقل" من جسده إلينا.

نحن نقول في عيد الصليب:

[السلام للصليب الذي صُلب الرب عليه فبسط يديه وجذب كل أحد إليه] (٥٧).

[السلام للصليب حجر المغناطيس الذي اجتذب إليه الجميع] (٥٨).

---

(٥٧) طرح عيد الصليب.

(٥٨) دفنار عيد الصليب.

كيف يجذب المغناطيس إليه برادة الحديد؟ يقولون عن طريق موجات كهرومغناطيسية، ولكن ماذا تكون هذه الموجات؟ لا نعرف! فإذا كان هذا في الجذب المادي بالنسبة للأشياء المادية، ونحن عاجزون عن تفسيره؛ فكم تكون سرّية الجذب الروحي الذي يجذبنا به المسيح؟! إنه جذب سرّي لا نستطيع أن نُفسّره أو نفحصه أو نشرحه، ولكننا في نفس الوقت نستطيع أن نؤمن به وأن نضع أنفسنا في مجاله ونختبره.

قِفْ أمام الصليب، قُلْ للمسيح: [أنا يا رب ترابي، اجذبني من التراب ومن الأمور الترابية، اجذبني إليك حسب وعدك أنك تجذب إليك الجميع. «لصقت بالتراب نفسي فأحيني ككلمتك»<sup>(٥٩)</sup>. أنت هو كلمة الله الحي منذ الأزل، فأحيني بحياتك الأبدية، أنت قلتَ «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو ١٤: ١٩)]. وهكذا تختبر كيف يمكن أن تنتقل من المسيح إليك قوة الانجذاب إلى أعلى، بعيداً عن الأرض وتراب الأرض. وهذا يتفق تماماً مع قوله عن انتقال تقديس ذاته منه إلينا: «ولأجلهم أقّـدس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدّسين في الحق».

+ «إذ قد تألم المسيح لأجلنا بالجسد تسلّحوا أنتم أيضاً بهذه النية، لأن من تألم بالجسد كُفّ عن الخطيئة» (١ بط ٤: ١).

هذه الآية أيضاً تُبيّن أن ما أجراه المسيح في جسده له تأثير سرّي على أجسادنا. ونلاحظ فيها تعبير: «لأجلنا بالجسد» الذي اقتبسّه القديس أنثاسيوس من هذه الآية وطبّقه كما قلنا على كل ما فعله الرب أثناء حياته الأرضية.

(٥٩) المزمور الطويل في نصف الليل، بداية القطعة الرابعة.

كما نلاحظ قوله «...تسلّحوا أنتم أيضًا بهذه النية»، حيث كلمة “النية” تُذكرنا بالآية القائلة: «بهذه المشيئة نحن مُقدسون» (عب ١٠: ١٠)، فنحن نتقدّس بالنية أو بالمشيئة التي كانت في المسيح يسوع، بشرط أن نفتني نفس هذه النية أو المشيئة.

«...لأن من تألّم بالجسد كُفّ عن الخطيئة». هذا الجزء من الآية عجيب، لأنه يُبيّن أنه يوجد اتصال سرّي وثيق بيننا وبين المسيح، بحيث أن ما يفعله هو في جسده تكون نتيجته المباشرة فينا نحن. فالمسيح قد تألّم في الجسد، ولكن لا يُمكن أن يُقال عنه إنه كُفّ عن الخطيئة، لأنه هو لم يكن ممسوكًا بالخطيئة؛ إذًا المسيح تألّم لكي نُكفّ نحن عن الخطيئة. عندما يتألّم هو، نحن نكون المستفيدين، لأن كل ما عمله المسيح في الجسد كان لأجلنا. فهذه النية أو المشيئة التي فيه، نحن نتقدّس.

كيف يكون ذلك؟ كيف حينما يتألّم المسيح، نحن نُكفّ عن الخطيئة؟ ما علاقة ألمه بتوقّفنا عن الخطيئة؟ لا بد أنه توجد شركة صميمية بيننا وبينه، ولولا وجود هذه الشركة ما كان المسيح تجسّد ولا صُلب ولا مات من أجلنا ولا صنع أي شيء لصالحنا، وبالتالي ما كان ممكنًا أن الذي يعمل في جسده ينتقل منه إلينا سرًا. فهذا الجزء من الآية لا يُمكن أن نفهمه إلا إذا قرأنا فيه بين السطور: “إذ نحن نحسب هذا أنه إن كان واحد قد تألّم لأجل الجميع فالجميع إذن تألّموا”، على وزن ما قيل: «إذ نحن نحسب هذا أنه إن كان واحد قد مات لأجل الجميع فالجميع إذن ماتوا» (٢ كو ٥: ١٤) (٦٠).

(٦٠) انظر شرح هذا المبدأ في مقدّمة كتاب “الخليقة الجديدة للإنسان المسيحي” (الجزء الأول) للأب متى المسكين.

إذن حينما يتألم المسيح "لأجلنا في الجسد" نُحسب كأُننا نحن المتألمون، ونُكف عن الخطيئة. وهكذا نأخذ من المسيح نتيجة آلامه. وهذا هو المكني عنه في العهد الجديد بـ «نعمة المسيح». فالنعمة في مفهوم العهد الجديد هي كل ما حققه المسيح لأجلنا في الجسد، فينتقل منه إلينا. لذلك تُنسب النعمة عادةً في العهد الجديد للمسيح: «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم» (٢كو ١٣: ١٤).

وكما قلنا فإن القديس كيرلس الكبير كان يلذ له أن يُكرّر هذه الحقيقة مراراً وبمرادفات كثيرة: فالمسيح "يُتُ فينا"، "يشع فينا"، "ينقل إلينا" كل ما عمله في نفسه لأجلنا...

**سؤال:** إذا كان المسيح تألم لأجلنا بالجسد، وكُفّ جسدنا عن الخطيئة؛ إذاً لماذا نحن نخطئ؟!

**الجواب:** لأننا لا نكون مرتبطين به، لا نكون ملتصقين به. العلاقة التي تربطنا بالمسيح مُفكّكة. فبقدر ما نتحد به بالحب وبالإيمان، بقدر ما نأخذ في أجسادنا نتيجة ما فعله هو من أجلنا. ولكن إذا كان الإنسان فاصلاً نفسه عن المسيح، فكيف يستطيع المسيح أن يؤثر فيه؟ لأن المسيح حينما يتعامل مع كائنات حرة، يحترم حريتها. فلا بد أن الكائنات الحرة تقبل بإرادتها عمل المسيح فيها، فهو لا يغضب أحداً على قبوله: «هأنذا واقف على الباب وأقرع. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب أدخل إليه...» (رؤ ٣: ٢٠). أمّا الذي لا يريد أن يسمع صوته ولا أن يفتح له، فكيف يشكو أن المسيح لا يعمل فيه؟ إنه مثل من يغلق (الشيش) ويشكو أن الشمس لا تدخل إليه.

ولأجلهم أقدس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضًا مقدسين في الحق

**سؤال:** ما هو الزمن الذي يتطلبه حدوث هذا التغيير ؟

**الجواب:** هذا يتم على مدى العمر كله. الولادة الجسدية والموت الجسدي يمكن تأريخهما في الزمن باليوم والساعة، ولكن موت الإنسان العتيق وميلاد الإنسان الجديد، وإن كانا يبدآن بالعمودية، ولكن تحقيقهما يستمر مدى الحياة.

+ كل يوم نقول في صلاة الساعة السادسة:

[اقتل أوجاعنا<sup>(٦١)</sup> بآلامك الشافية المحيية]

واضح من هذه الطلبة أن الآلام التي احتملها الرب يسوع في جسده الخاص لها القدرة أن تؤثر على أجسادنا وتُثِمِّت فيها الشهوات والميول الرديئة، ذلك لأن جسد المسيح متصل سرًّا بجسد كل واحد منّا، فكل ما حدث للرب في الجسد لأجلنا له تأثير سرّي على جسد كل واحد منّا حينما نلتصق به بالحب والإيمان. إنه نفس المعنى الذي قصده الرب يسوع بقوله «ولأجلهم أقدس أنا ذاتي، ليكونوا هم أيضًا مقدسين في الحق». لقد كتب أبونا الروحي بهذا المعنى في إرشاد روحي بمناسبة أسبوع الآلام (سنة ١٩٧٥):

[هكذا تستطيع آلام المسيح أن تُعَمِّم كل نِمُوتَاتنا التي بحسب الطبيعة القديمة كل سنة بعد أخرى... كالشجرة التي بعد تطعيمها تعود وتُخرج أغصانًا بحسب طبيعتها الأولى المرة، فتُقص وتُهدَّب].

نعود ونقول إن المسيح يتعامل معنا ككائنات خلقها حرة، ويريد أن يحترم

---

(٦١) المقصود بكلمة "الأوجاع" الشهوات والميول الرديئة التي تُجرُّنا إلى الخطايا.

حريتها. لذلك فإن تأثيره فينا يتوقّف على مقدار تجاوبنا معه. فعندما نرى آلامه ونحس بكم احتمل من أجلنا، ثم نطلب منه أن يقتل أوجاعنا بآلامه الشافية المحيية، هنا لا بد أن يجيبنا ويسمع صلاتنا، ويقول لنا: [أنا من أجل هذا أتيتُ، ومن أجل هذا تألّمتُ. إن شهوة قلبي أن أجيء وأُعقّم الشهوات والخطايا التي فيكم وأحرقها بآلامي الشافية المحيية].

يلاحظ أن تعبير "آلامك الشافية المحيية" نقوله مرتين في الطقوس: في قطع الساعة السادسة، وفي صلاة التحليل التي يقولها الكاهن في ختام رفع البخور<sup>(٦٢)</sup>، والشعب يحني رأسه تحت الصليب المرفوع بيد الكاهن<sup>(٦٣)</sup>.

+ «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع لكي تُظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢كو ٥: ١٠).

هذه الآية أيضاً تُبيّن أن جسد المسيح متصل سرّاً بجسد كل واحد منّا، فكل ما صنعه في جسده الخاص، يستطيع أن ينقله إلينا سرّاً في أجسادنا إذا ما انفتحنا

---

(٦٢) يقول الكاهن في هذا التحليل: [الذي قطع كل رباطات خطايانا من قِبل آلامه المخلّصة المحيية...]، حيث كلمة "المخلّصة" هي نفسها "الشافية" في كل من اللغتين القبطية واليونانية، لأن الشفاء والخلاص لهما معنى واحد في هاتين اللغتين. فهذه العبارة هي واحدة بالقبطية في كل من قطع الساعة

السادسة وصلاة تحليل الابن:  $\text{nek'uka} \tau \epsilon \text{'not} \chi \alpha \iota \text{'nre} \chi \tau \alpha \nu \delta \circ$

(٦٣) الصورة الطقسية للصليب تُظهر تحت أقدام الصليب جمجمة، هي لآدم وكل بنيه الأموات. لذلك نحن أثناء صلاة التحليل نحني رؤوسنا تحت أقدام الصليب، لينسكب الدم الإلهي علينا ويطهّرنا من كل خطية. وأثناء ذلك يقول الكاهن: [...] الذي قطع كل رباطات خطايانا من قِبل آلامه المخلّصة المحيية...].

ولأجلهم أقَدِّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضًا مقدَّسين في الحق

بحريتنا له. ويلاحظ أن الآية تقول «إماتة الرب يسوع» حيث كلمة «الإماتة» لها معنى روحي خاص، فليس المقصود منها مجرد الموت الفسيولوجي، أي انفصال النفس عن الجسد؛ ولكن الكلمة تحمل فوق ذلك معنىً نسكيًا، بمعنى إماتة الشهوات والأهواء الرديئة. فالمسيح أماتها في جسده، وأعطانا أن نحمل هذه الإماتة في أجسادنا نتيجةً لما فعله هو في جسده.

كيف نعيش هذه الآية عمليًا؟ إن كنَّا نؤمن حقًا أن يسوع المسيح هو فينا (وإلا نكون مرفوضين بحسب ٢ كو ١٣: ٥)، فلنا أن نؤمن أن يديه ورجليه المجروحة من قِبَل المسامير التي دُقَّت فيها هي موجودة سرًّا في يد ورجل كل واحد منَّا، وأن آلام الجلد التي مرَّقت ظهره هي موجودة سرًّا على ظهرنا، وأن إكليل الشوك الذي كان على رأس الرب موضوع سرًّا على رأس كل واحد منَّا... هذا هو معنى «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع»، وبالطبع الإحساس بهذه الشركة السريَّة في آلام الرب يُؤلِّد فينا مشاعر الإماتة على المستوى الروحي النسكي، ويُميت منَّا كل شهوة رديئة. هذا الإحساس الصادق بالشركة في آلام الرب هو الذي جعل القديس بولس يقول:

+ «فيما بعد لا يجلب أحد عليَّ أتعابًا لأنني حامل في جسدي سمات الرب يسوع» (غلا ٦: ١٧).

حيث كلمة «سمات»  $\sigma\tau\acute{\iota}\gamma\mu\alpha\tau\alpha$  (ستيجماتا) عُرِفَت في التقليد المسيحي القديم أنها تشير إلى علامات جروح الرب التي تنطبع سرًّا في أعضائنا. بل إن بعض القديسين كانت تظهر هذه العلامات ظاهرًا في أجسادهم على هيئة جروح غائرة،



مُشاهدةً تمامًا لجروح الرب، وفي نفس موضعها الذي كان على جسده (اليدين والرجلين والجانب).

فإن كانت جروح الرب مطبوعةً سرًّا على أعضائي، فهل يمكن أن جسدي يميل إلى الشهوة؟! استحالة! لماذا؟ لأن إماتة يسوع فيّ، فعندما يجلب الشيطان عليّ تجارب من أي نوع أقول له: «فيما بعد لا يجلب أحد عليّ أتعابًا لأنني حامل في جسدي سمات الرب يسوع». وهكذا كلما أتتكَ تجارب من أي نوع عليك أن تتذكّر هذه الآية.

عليك أن تلتصق بالمسيح، تلتصق كل عضو من أعضائك بجسده. لقد فُرت علينا أمس ضمن قراءات الصوم الكبير قصة من العهد القديم لها قيمة سرّية عالية على مستوى الرمز<sup>(٦٤)</sup>: قصة أليشع الذي أقام الميت، ماذا فعل؟ وضع يديه على يدي الميت، وفمه على فمه، وعينيّه على عيني الميت... فانتقلت الحياة من جسمه، من كل عضو من أعضاء أليشع إلى جسم الميت، فقام. هذه نبوة رمزية لما يمكن أن يفعله المسيح فينا إن نحن التصقنا به فنستمد منه القداسة والحياة.

هذا هو ما عبّر عنه المسيح بقوله: «لأجلهم أقدم أنا ذاتي ليكونوا هم أيضًا مُقدَّسين في الحق»، فالقداسة التي أكملها في جسده على الصليب تنتقل منه إلينا، بقدر ما نكون ملتصقين به بكل كياناتنا.

(٦٤) قراءة باكر يوم الخميس من الأسبوع السادس من الصوم الكبير (٢ مل ٤: ٨-٤١).

## الوجه الإيجابي لتقديس الذات

يلاحظ أن التقديس الذي أكمله المسيح في ذاته لأجلنا، لا يُقصد منه فقط الوجه السلبي، أي الكف عن الخطايا؛ ولكن له أيضًا وجه إيجابي أكثر أهمية، وهو تكريس القلب كلبية لله، والنمو في محبة الله من كل القلب ومن كل النفس ومن كل الفكر، والامتلاء بالغيرة والحارة الروحية، وبالنار التي جاء الرب يسوع ليلقيها على الأرض، تلك النار التي كثيرًا ما تكلم عنها القديس أنطونيوس، والتي كان يصلي ليلاً ونهارًا لكي يقبلها أولاده الرهبان.

فقول الرب «أَقَدِّس أنا ذاتي» يُرادف على المستوى الروحي قوله «جئتُ لألقي نارًا على الأرض» (لو ١٢: ٤٩)، تلك النار - نار الحب الإلهي - التي أشعلها على الصليب، والتي يشتهي أن تشتعل في قلوبنا أيضًا. وقوله «ليكونوا هم أيضًا مقدَّسين في الحق» يعني: ليكونوا هم أيضًا مشتعلين بهذه النار التي أشعلتها أنا على الصليب، ولكي تنتقل من جسدي إلى أجسادهم كقوة جارفة لحب الله وكغيرة قوية للبذل من أجل الله. هذا هو صميم ما يعنيه الرب بقوله: «لأجلهم أقَدِّس أنا ذاتي (= أبذلها مجانًا) ليكونوا هم أيضًا مقدَّسين في الحق»، أي لأشعل فيهم الغيرة المقدَّسة في حب الله وعبادته وخدمته. وهذه هي شهوة المسيح التي جاء إلى العالم خصيصًا ليُحقِّقها.

فلو تصوَّرتنا أننا قابلنا الرب وهو على الأرض، وسألناه ما هو سبب مجيئك يا رب إلى أرضنا؟ ستكون إجابته «جئتُ لألقي نارًا على الأرض، أي داخل قلوبكم، لكي أجعلكم حارين بالروح». هذا ما انتبه له ق. أنطونيوس وعاش لأجله كل أيام حياته يطلبه لنفسه ولأولاده.

+ يقول بولس الرسول في رسالته إلى تيطس (تي ٢: ١٤):  
«الذي بذل نفسه لأجلنا:

(١) لكي يفدينا من كل إثم

(٢) ويُطَهِّر لنفسه شعبًا خاصًا غيورًا في أعمال حسنة» (تي ٢: ١٤).

حيث «يفدينا من كل إثم» تُعبّر عن الغاية الأولى التي لأجلها بذل الرب نفسه، ولكن تتبعها الغاية الثانية وهي الأهم والأقوى والأكثر إيجابية، حيث:  
«يُطَهِّر لنفسه شعبًا خاصًا περιούσιον»<sup>(٦٥)</sup> تُعبّر عن تكريس الحياة كلبية لله، و«غَيُورًا في أعمال حسنة» تُعبّر عن الغيرة والحرارة الروحية في حب الله وخدمته؛ وهاتان النقطتان أي تكريس الحياة كلبية لله والغيرة الروحية في حبه وخدمته هما صميم القداسة التي يطلبها لنا الرب.

والملاحظ أيضًا في هذه الآية (تي ٢: ١٤) أنها تُبيّن أن الرب «بذل نفسه» ليُحقّق فينا هذا التكريس الكلّي له وهذه الغيرة المقدّسة في حبه وخدمته. فتقديسنا جاء نتيجةً لبذل نفسه لأجلنا.

هناك آياتٌ أخرى تبيّن أن المسيح بذل نفسه وسفك دمه من أجل تقديس نفوسنا ومن أجل تقديس الكنيسة كلها:

(٦٥) كلمة περιούσιον التي تُرجمت “خاصًا” لها تاريخ طويل في العهد القديم (انظر خر ١٩: ٥ و ٢٣: ٢٢ و تث ٧: ٦ و ١٤: ٢ و ٢٦: ١٨ و مز ١٣٤: ٤)، وقد وردت في الأصل اليوناني للقداس الباسيلي حيث تُرجمت [وجعلنا له شعبًا مُجتمَعًا] ويجب أن تُفهم بمعنى “بمجتمَعًا حوله” أو “ملتفًا حوله” لأن الكلمة اليونانية تتكوّن من περι = حول، ومن ούσιον التي هي مقطع مشتق من فعل الكينونة، فيكون المعنى الحرفي شعبًا “كائنًا حوله”، وهذا يفسّر لنا لماذا تُرجمت شعبًا “خاصًا” في العهد القديم وفي تي ٢: ١٤، بينما تُرجمت في القداس شعبًا “بمجتمَعًا”.

ولأجلهم أقدس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضًا مقدسين في الحق

+ «لكي يُقدَّس الشعب بدم نفسه» (عب ١٣: ١٢)

فالمسيح سكب دمه لكي يُقدَّسنا. غفران الخطايا هو الشق السليبي لما حقَّقه الرب على الصليب، أما الشق الإيجابي فهو أن يُشعل قلوبنا بالنار الإلهية.

«بدم نفسه»: دم المسيح الذي سكبه على الصليب هو بعينه الذي يُقدِّمه لنا في كأس الإفخارستيا... هناك أيقونة رمزية قديمة تُصوِّر المسيح على الصليب، وملاك يحمل كأسًا تحت رجله يجمع الدم المتساقط من جروحه النازفة. والقصد من هذه الصورة هو الإشارة إلى أن الدم المقدَّم لنا في كأس الإفخارستيا هو نفسه المنسكب من جسد المسيح<sup>(٦٦)</sup> الذي بذله لكي يعطينا إياه لنشربه ونتقدَّس به وتزداد به حرارتنا الروحية<sup>(٦٧)</sup>. عندما نردِّد هذه الآية «لكي يُقدَّس الشعب بدم نفسه» مرارًا كثيرة نأخذ منها قوة، وتقدَّسنا من كل شهوة، وتجعلنا نمتلئ من حرارة الروح القدس ومن الغيرة الروحية.

+ «كما أحبَّ المسيح أيضًا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكي يُقدَّسها مُطَهَّرًا إياها بغسل الماء بالكلمة، لكي يُحضرها لنفسه كنيسةً مجيدةً لا دنس فيها ولا غضن أو شيء من مثل ذلك، بل تكون مقدَّسة وبلا عيب» (أف ٥: ٢٥-٢٧).

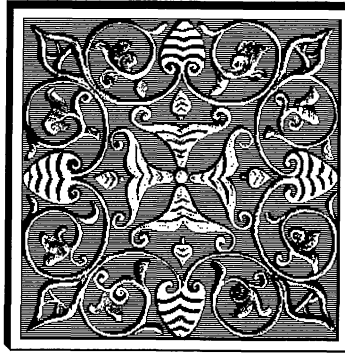
---

(٦٦) نفس القصد نجده في قسمة القدَّاس الغريغوري: [ومرَّجتَ لنا كأسًا من كرمة حقيقية التي هي جنبك الإلهي غير الدنس هذا الذي من بعد أن أسلمتَ الروح فاض لنا منه ماءٌ ودم].  
(٦٧) يقول القديس إغناطيوس الأنطاكي في رسالته إلى كنيسة أفسس (١: ١):  
[إنكم مشتعلون ἀναζωπυρήσαντες بدم ابن الله]

هنا أيضًا يُلاحظ أن تقديس الكنيسة جاء نتيجةً لبذل المسيح نفسه لأجلها.  
فثمن القداسة هو بذل المسيح ذاته على الصليب.

+ «وهو مات لأجل الجميع كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم بل للذي  
مات لأجلهم وقام» (٢ كو ٥: ١٥).

يلاحظ هنا أيضًا أن تكريس الحياة كليةً لله، وهو صميم التقديس الذي يطلبه  
لنا الرب، قد جاء نتيجة لموت الرب لأجل الجميع.



## صلاة المسيح من أجل وحدة كنيسته

### مقدمة

ستتكلّم اليوم عن صلاة المسيح من أجل وحدة المؤمنين به. المسيح كرّر هذه الطلبة في أربع آيات:

- «احفظهم في اسمك، الذين أعطيتني، ليكونوا واحدًا كما نحن» (ع ١١)
- «ليكون الجميع واحدًا... ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا» (ع ٢١)
- «ليكونوا واحدًا كما أننا نحن واحد» (ع ٢٢)
- «ليكونوا مكملين إلى واحد» (ع ٢٣)

ويهمُّنا قبل أن نتناول كل واحدة من هذه الطلبات بالتفصيل أن نبين مدى ارتباط صلاة المسيح لأجل الوحدة بكيانه الشخصي، ثم مدى ارتباطها بسر الإفخارستيا الذي أسسه الرب قبل هذه الصلاة بلحظات.

### ١. ارتباط صلاة المسيح من أجل الوحدة بصميم كيانه الشخصي

وحدة الجميع في الله كانت هي الموضوع الأساسي الذي صلّى لأجله المسيح في صلاته هذه التي تُعتبر أطول وأهم صلاة سجّلها له الإنجيل. ولم يكن ذلك جزافًا، بل سببه العميق كائن في أعماق شخصية هذا الإله المتأنّس الذي يصلّي لأجل

البشرية كلها الممثلة فيه، أو كما يقول الآباء ”المحمولة فيه“ بالجدس الذي أخذه منها:

- فمن حيث إنه ”ابن الإنسان“ - آدم الجديد - فهو متّصل في صميم كيانه بالبشرية جمعاء من كل جنس وكل شعب وكل أمة وكل لسان،

- ومن حيث إنه كلمة الله الواحد مع الآب فهو يحمل في صميم كيانه سر الوحدة الإلهية، الوحدة التي من كيان الله، لأن الله واحد ولا يمكن أن تكون فيه فرقة ولا انقسام.

لذلك فالكلمة المتجسّد، بمجرّد كيانه، يُعتبر شفاعةً فعليةً مستمرة مرفوعة إلى الآب لتوحيد البشرية كلها المتّصلة به، لتوحيدها كلها بالله، وبعضها ببعض في الآب والابن. ليست فقط شفاعةً بالصلاة والطلب كما حدث ظاهراً في مساء خميس العهد، بل شفاعةً كيانية، فبصميم كيانه المسيح يشفع باستمرار لدى الآب لتوحيد البشرية كلها المتّصلة به.

أريد أن أقول إنها شفاعة أقوى من الطلب، إنها شفاعة بالقوة، بالحدث، بالفعل...

فكما أن جروحه المرفوعة إلى الآب تُعتبر شفاعة فعلية لغفران خطايا العالم كله، وكما أن صعوده ودخوله بالجدس إلى حضرة الآب يُعتبر شفاعة فعلية لدخول البشرية كلها به وفيه؛

هكذا أيضاً كيانه الواحد كابن الله وابن الإنسان في آن واحد يُعتبر شفاعة فعلية، بالقوة والحدث والفعل، لتوحيد البشرية كلها المتّصلة به، لتوحيدها مع الله،

وتوحيدها بعضها ببعض في الله. وهذا ما يقوله القديس كيرلس الكبير في شرحه لهذه الصلاة:

|| [المسيح في الواقع هو رباط الوحدة  $\delta\ \tau\eta\varsigma\ \epsilon\nu\acute{o}\tau\eta\tau\omicron\varsigma\ \sigma\acute{\upsilon}\nu\delta\epsilon\sigma\mu\omicron\varsigma$  بسبب كونه في آنٍ واحدٍ إلَهاً وإنساناً] <sup>(٦٩)</sup> ||

## ٢. ارتباط صلاة المسيح لأجل الوحدة بتأسيس سر الإفخارستيا

لا يمكن أن نفهم صلاة المسيح في يوحنا ١٧ إلا على خلفية العمل الذي عمله المسيح قبل هذه الصلاة مباشرة. لقد قال المسيح هذه الصلاة بعد أن وُزِعَ جسده ودمه على التلاميذ، وصار بذلك داخلهم. وهو يعبر عن هذه الحقيقة بوضوح في صلاته قائلاً: «أنا فيهم» (٢٣ع و ٢٦ع). وهو صار فيهم ليس بنوع من المجاز، ولكنها حقيقة واقعية قائمة على السر الذي أسّسه منذ لحظات.

لذلك فإن صلاة المسيح من أجل وحدة المؤمنين به نابعة من الإفخارستيا، لأنه أسّس هذا السر ليكون هو سر وحدة كنيسته. لأننا حينما نتناول من الجسد الواحد نصير نحن جميعاً جسداً واحداً للمسيح. هذا ما يقوله بولس الرسول:

«فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحدٌ، جسدٌ واحدٌ،

لأننا جميعاً نشترك في الخبز الواحد» (١ كو ١٠: ١٧).

لذلك حينما نقول إن الكنيسة جسد المسيح الواحد لا نقصد بذلك مجرد تشبيه



مجازي مثلما كان عند فلاسفة اليونان قديماً<sup>(٧٠)</sup>، ولكنه واقع حي مبني على فعل واقعي تمّ فينا بالإفخارستيا. فنحن عندما نقول إن الكنيسة هي جسد المسيح، نقول ذلك على أساس ما تمّ في سر الإفخارستيا. فكون الجسد الواحد تَوْزَع وصار بكامله في كل واحد من المؤمنين، فقد صاروا بذلك جميعاً معاً هذا الجسد بعينه، لأن الجسد الواحد صار داخلهم جميعاً.

الكنيسة منذ العصور الأولى فهمت الإفخارستيا بهذا المعنى: إنها سر الجسد الواحد. يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في تفسيره لآية بولس الرسول التي ذكرناها:

[كما أن الخبز يصير واحداً من حبات كثيرة مجتمعة، حتى أن الحَبَّات لا تكون ظاهرة مع أنها موجودة، لأن الفرق بينها غير واضح بسبب الاتحاد، هكذا نحن أيضاً نتحد بعضنا مع بعض ومع المسيح. لأنك لا تأكل أنت من جسدٍ وغيرك من جسدٍ آخر، بل الجميع يأكلون من الواحد بعينه]<sup>(٧١)</sup>.

والقديس أنثاسيوس يقول كلاماً مُشابهاً:

[حينما نتناول نحن جميعاً منه هو بعينه، نصير جميعنا جسداً واحداً، إذ يكون الرب الواحد فينا]<sup>(٧٢)</sup>.

(٧٠) كانوا يُشبّهون المجتمع بجسد متكامل، حيث الرأس تمثّل الطبقة المفكّرة والقدمان الطبقة الكادحة إلخ... ولكن هذا كان مجرّد تشبيه مجازي. وأما قولنا إن الكنيسة جسد المسيح فليس على سبيل الرمز أو المجاز، ولكنه حقيقة مبنية على ما يتم بالإفخارستيا.

PG 61, 200.53-59

(٧١) عظة ٢٤ على شرح ١ كو ١٠: ١٧

PG 26, 369.10-12

(٧٢) ضد الأريوسيين ٢٢: ٣

هذا أمر بديهي، لأنه طالما نحن كلنا نتناول من جسد الرب الواحد، فبالتالي نكون جميعًا جسدًا واحدًا للرب.

أما القديس كيرلس الكبير فيزيد على ذلك بقوله إن الإفخارستيا هي ابتكار أو (اختراع) اخترعه المسيح ليجعل من المؤمنين كنيسة واحدة غير قابلة للانقسام، وأن السبب في وحدة الكنيسة هو أن المسيح نفسه لا يمكن أن ينقسم (وهو في ذلك يستلهم قول ق. بولس في ١ كو ١: ١٣ «هل انقسم المسيح؟!»). وإليك ما يقوله:

«لَمَّا أَرَادَ الابنُ الوَحِيدُ أَنْ يُوَحِّدَنَا بِنَوْعٍ مَا مَعَ اللَّهِ  
وَمَعَ بَعْضِنَا الْبَعْضَ، بَلْ وَيَمزِجُنَا بَعْضُنَا بِبَعْضٍ،  
عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَوْنِنَا مُفْتَرِقِينَ فِي نَفُوسِنَا وَأَجْسَادِنَا  
بِسَبَبِ الْكِيَانِ الذَّاتِيِّ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا،  
فَقَدْ ابْتَكَرَ لَذَلِكَ وَسِيلَةً، بِحُكْمَتِهِ الْخَاصَّةِ وَبِمَشُورَةِ الْآبِ؛  
فَقَدْ بَارَكَ<sup>(٧٣)</sup> الْمُؤْمِنِينَ بِهِ فِي جَسَدٍ وَاحِدٍ هُوَ جَسَدُهُ الْخَاصُّ،  
وَذَلِكَ بِالتَّوَالُفِ السَّرِيِّ،  
وَجَعَلَهُمْ بِذَلِكَ جَسَدًا وَاحِدًا مَعَهُ وَمَعَ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ  
فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْصَلَ وَيَفْصِمَ مِنْ هَذَا الْإِتِّحَادِ الطَّبِيعِيِّ<sup>(٧٤)</sup>

(٧٣) «بارك» εὐλογῶν حيث كانت كلمة الإفلوجيا هي الاصطلاح الشائع في كنيسة الإسكندرية في القرن الخامس للتعبير عن سر الإفخارستيا.

(٧٤) «الاتحاد الطبيعي» يقصد به القديس كيرلس «الاتحاد النافذ إلى عمق الطبيعة»، وذلك لتفريقه عن الاتحاد المعنوي بمجرّد المشاعر. وقد أوضح الفرق بينهما قائلاً: [إن المخلّص نفسه يقول: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه»، وجدير بنا أن نلاحظ جيّدًا أن المسيح لا يقول إنه سيكون فينا بمجرّد علاقة معنوية بحسب المشاعر، ولكن أيضًا بمشاركة طبيعية] (تفسير يو ١: ١٥ : ١٥-24 PG 74, 341; Pusey 2.542.19-24)

أولئك الذين ارتبطوا بالوحدة في المسيح بهذا الجسد المقدس الواحد؟!  
لأننا إن كنّا كلنا «نشترك في الخبز الواحد» (١ كو ١٠ : ١٧)،  
فإننا نكون جميعاً جسداً واحداً بالتمام،  
لأن المسيح لا يمكن أن ينقسم!]<sup>(٧٥)</sup>

هذه العبارة الأخيرة [لأن المسيح لا يمكن أن ينقسم] هي السر في أن الكنيسة واحدة وغير قابلة للانقسام، وفي أنه [لا يقدر أحد أن يفصل ويفصم من هذا الاتحاد الطبيعي أولئك الذين ارتبطوا بالوحدة في المسيح بهذا الجسد المقدس الواحد]. فهذا هو "الاختراع" الذي اخترعه المسيح ليجعلنا جسداً واحداً معه بالكمال ومع بعضنا البعض. وإليك بقية القول:

[ولهذا السبب تُدعى الكنيسة جسد المسيح، ونحن الأفراد نُدعى أعضائه، بحسب دراية القديس بولس الرسول<sup>(٧٦)</sup> ...  
فالمسيح في الواقع هو رباط الوحدة ὁ τῆς ἐνότητος σύνδεσμος  
بسبب كونه في آن واحد إلهًا وإنساناً]<sup>(٧٧)</sup>

والقديس هيلاري أسقف بواتييه، الذي يُلقَّبونه أثناسيوس الغرب، يرى هو أيضاً أن سر وحدتنا كائن في أعماق شخصية المسيح الذي وُحِّد في ذاته اللاهوت بالناسوت، ثم أعطانا جسده الذي يحوي في ذاته سر هذه الوحدة:

(٧٥) شرح إنجيل يوحنا ١٧ : ٢٠ و ٢١ P.G. 74, 560; Pusey 2.735.12-24

(٧٦) انظر أف ٣ : ٤ «الذي حينما تقرأونه تقدرون أن تعرفوا درايتي بسر المسيح»

PG 74, 560; Pusey 2. 736.20-21

(٧٧) تفسير يوحنا ١٧ : ٢٠ و ٢١

[لقد وُحِّد طبيعة جسدنا مع طبيعة كيانه الإلهي

في سر جسده الذي يُناولنا إياه.

وهكذا نحن جميعًا واحد لأن الآب في المسيح والمسيح فينا...

فنحن حينما نأكل جسده في السر المقدس،

نصير بذلك واحدًا بسبب أن الآب فيه وأنه هو فينا]<sup>(٧٨)</sup>

كل ما سبق كان مقدمة ضرورية لكي نبيّن الارتباط الصميمي بين صلاة المسيح من أجل وحدة كنيسته وبين السر الذي أسسه قبل هذه الصلاة بلحظات، وأنه كان يصلّي من واقع وجوده داخل الرسل بالجسد الذي ورّعه عليهم، بل ومن واقع وجوده داخل جميع المؤمنين به على مدى الدهور، فقد أضاف قائلاً: «ولستُ أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضًا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم»، فهو كان يصلّي من واقع وجوده في جميع المؤمنين به في جميع الكنائس التي سيؤسسها الرسل في كل قارات العالم. وبالفعل الرسل ورّعوا هذا السر، هذا الجسد المقدّس، على جميع كنائس العالم. هذا كله كان يراه المسيح بعلمه السابق في مساء يوم خميس العهد، يرى الكنائس القادمة التي كان الرسل مزعمين أن يؤسّسوها، يرانا نحن ويتكلّم من واقع وجوده فينا.

والآن لندخل إلى شرح طلبات الرب من أجل وحدتنا.

أول هذه الطلبات تأتي منفردة في منتصف الصلاة، بينما الثلاث طلبات الأخرى تأتي معًا قرب نهاية الصلاة. وفي الطلبة الأولى يقول:

«احفظهم في اسمك الذين أعطيتني

ليكونوا واحداً كما نحن»

ما العلاقة بين أن نكون محفوظين في اسم الآب، وبين أن نكون واحداً؟  
إن ما يُقسَّمنا بعضنا عن بعض هو كثرة الأسماء<sup>(٧٩)</sup>، فأنا لي اسم، وأنت لك اسم، والاسم يشير إلى الذات، وكثرة الذاتيات هي التي تُنشئ التحيزات، وهي التي تؤدي إلى انقسام الجسد الواحد. ولكن «احفظهم في اسمك» معناها أننا جميعاً لا نعمل من أجل ذواتنا أو من أجل أنفسنا أو أسمائنا، بل كلُّنا لا نريد أن نظهر، لا نريد أن نُبيِّن أنفسنا وشخصياتنا. «احفظهم في اسمك» معناها: ”اجعلهم جميعاً ينتمون إلى اسمك الواحد أيها الآب، ولتكن لهم جميعاً ذاتٌ واحدة فيك أيها الآب“.

والمسيح نفسه عاش في حياته على الأرض من أجل اسم الآب:

«أنا قد أتيتُ باسم أبي» (يو ٥: ٤٣)

فهو كان في كل مناسبة يضع نفسه ليمجِّد الآب. وفي إنجيل ق. يوحنا بالذات تتزاحم أقوال المسيح التي تفيد هذا المعنى:

---

(٧٩) التحزُّب للأسماء هو داء كنيسة كورنثوس الذي راجعهم عليه بولس الرسول: «فإني أعني هذا أن كل واحد منكم يقول: أنا لبولس وأنا لأبُلُّوس وأنا لصفا وأنا للمسيح. هل انقسم المسيح؟!» (١كو ١: ١٢-١٣)، «لأنه متى قال واحد أنا لبولس وآخر أنا لأبُلُّوس، أفلستم جسديين؟» (١كو ٣: ٤).  
ويلاحظ أن كلمة ”مذهب“ أو ”طائفة“ تُقال بالإنجليزية denomination فإن أراد أحد أن يسألك ما هو مذهبك، فإنه يقول: What is your denomination وهي تعني حرفياً: ”إلى أي اسم تنتمي؟“... وهكذا فإن كثرة الأسماء والمسميات هي التي إلى الآن تُقسَّمنا بعضنا عن بعض.

- على مستوى القول: «لم أتكلّم من نفسي... كما قال لي الآب هكذا أتكلّم»  
(يو ١٢: ٥٠ و٤٩)،

«الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني» (١٤: ٢٤)  
«أتكلّم بهذا كما علّمني أبي» (٨: ٢٨)

«الكلام الذي أكلّمكم به لستُ أتكلّم به من نفسي...» (١٤: ١٠)  
- وعلى مستوى الفعل: «الآب الحال فيّ هو يعمل الأعمال» (١٤: ١٠)  
«لستُ أفعل شيئًا من نفسي» (٨: ٢٨)،

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا» (٥: ٣٠)

- وعلى مستوى المشيئة: «نزلتُ من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (٦: ٣٨)

«لأنني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» (٥: ٣٠)

- وعلى مستوى الجسد: «أنا لستُ أطلب مجدي» (٨: ٥٠)

«من يتكلّم من نفسه يطلب مجد نفسه، وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم» (٧: ١٨)

فتأكيد المسيح المستمر أنه جاء باسم الآب<sup>(٨٠)</sup>: «أنا قد أتيت باسم أبي»

(يو ٥: ٤٣)، كان يُظهر أمام العالم الوحدة التي بينه وبين الآب. وهذا بعينه هو ما

يطلبه لنا من الآب حتى نكون واحدًا فيه وفي الآب، كما أنه هو والآب واحد:

«احفظهم في اسمك، ليكونوا واحدًا كما نحن واحد».

---

(٨٠) بسبب ذلك نُعلّمنا الكنيسة أن نقول قبل كل قراءة للإنجيل: ”مبارك الآتي باسم الرب“، على أساس أن كل ما قاله وعمله المسيح في الإنجيل كان ”باسم الآب“.

هذه كانت طلبية الرب الأولى من أجل الوحدة (ع ١١)، وقد جاءت منفردة في منتصف الصلاة. وأما الثلاث طلبات الأخرى (ع ٢١ و ٢٢ و ٢٣) فإنها تأتي معًا بعد صلاة الرب لأجل تقديس تلاميذه (ع ١٧-١٩). وقد سبق أن عرضنا هذه الصلاة من أجل تقديسنا «قُدَّسَهُمْ فِي حَقِّكَ»<sup>(٨١)</sup>. والآن قبل أن نعرض الثلاث طلبات الكبرى التي قدَّمها الرب من أجل وحدة المؤمنين به، التي تلي طلبه من أجل تقديسهم، يليق بنا أن نبحث ما هو الارتباط بين القداسة وبين الوحدة في الله، أي

بين «قُدَّسَهُمْ فِي حَقِّكَ»،

وبين «ليكونوا واحدًا فينا»

---

(٨١) انظر ص ٨٠ وما يليها.

## العلاقة بين القداسة والوحدة

نقول بمنتهى الاختصار: إن القداسة هي التي تُوصِّل للوحدة.  
«قدّسهم في حقّك» ... لكي... «يكون الجميع واحدًا».

كلمة “لكي” هذه التي وضعناها بين الطلبة السابقة (صلاة الرب لأجل تقديسنا) وبين الطلبة الحالية (صلاة الرب لأجل وحدتنا) ليست في الحقيقة مضافة، ولكن لها أصل في النص اليوناني. فإن الرب يقول عند انتقاله من الطلبة الأولى إلى الطلبة الثانية:

«ولستُ أسأل [هذا<sup>(٨٢)</sup>] (أي التقديس في الحق)] من أجل هؤلاء فقط

بل أيضًا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم

لكي ἵνα يكون الجميع واحدًا» (٢٠٤ و ٢١)

هكذا فهم القديس كيرلس هذه الآية، على أنها تربط بين الفقرة السابقة والفقرة التالية، أي بين تقديسنا في الحق وبين وحدتنا في الله، بكلمة “لكي”. أي أن وحدتنا في الله هي الغاية من تقديسنا في الحق:

|| إنه يطلب (بقوله: “قدّسهم في حقّك”), أن يُرسل الآب بواسطته عليهم (أي على الرسل) تقديس الروح القدس وبركته... ولكي لا يظن أحدٌ من غير المتمرّسين في فهم الكتب المُلهمة أنه يطلب حلول روح

---

(٨٢) فعل “أسأل” ἔρωτῶ هو فعل متعدّي يفترض وجود مفعول به مُضمّر تقديره “هذا ταῦτα”، يعود على ما في الفقرة السابقة، أي على صلاة الرب لأجل تقديسنا في الحق.



الله على التلاميذ فقط ولا يطلبه لنا نحن الآتين بعدهم،... ، لذلك يستطرد قائلاً «لستُ أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضاً من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم»... ثم إنه لم يستحسن أن يتركنا نجهل الغاية من صلاته،... ولذلك قال: «ليكونوا واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا»<sup>(٨٣)</sup>.

هنا القديس كيرلس يفسّر صلاة الرب من أجل تقديسنا بأنها صلاة من أجل حلول الروح القدس، على اعتبار أن الروح القدس هو روح التقديس، أو هو المنوط به أن يُقدّسنا. لأننا نحن نستحيل أن نتقدّس بدون حلول الروح القدس علينا. وهنا إجابة على من يسأل: لماذا لم يُذكر الروح القدس في صلاة الرب في يوحنا ١٧؟ في الحقيقة إن معظم معاني هذا الأصحاح متصلة بالروح القدس. فالروح القدس هو روح القداسة وروح التقديس. لذلك حينما يُصليّ الرب لأجل تقديسنا فهو بذلك يطلب حلول الروح القدس علينا<sup>(٨٤)</sup>. كذلك الروح القدس هو روح الوحدة<sup>(٨٥)</sup>، هو الذي يوحدنا بالله، وهو الذي يوحدنا بعضنا ببعض. فحينما يطلب الرب هذه الوحدة بشقيها فهو يطلب ضمناً حلول الروح القدس علينا. كذلك هو «روح المجد» (١ بط ٤: ١٤) وسنرى في شرح الآية ٢٢ أن القديسين

(٨٣) تفسير إنجيل يوحنا ١٧: ٢٠ و ٢١ PG 74, 553-556; Pusey 2.730.1-15, 731.20-25

(٨٤) وهكذا يفسر ق. أناسيوس هذه الصلاة: [إنها طلبية مرفوعة إلى الآب، لكي يُعطى الروح القدس بواسطته للمؤمنين] (انظر هامش ٥٠)

(٨٥) توجد مقالة بعنوان "الروح القدس روح الوحدة" في كتاب: "الروح القدس الرب المحيي"، لقداسة الأب متى المسكين، بما شرح لهذا الموضوع في الكتاب المقدس وعند الآباء.

يُفسِّرون المجد الذي أعطانا إِيَّاهُ المسيح بأنه الروح القدس<sup>(٨٦)</sup>. كذلك هو روح الحب الإلهي، فحينما يطلب الرب أن يحل فينا الحب الذي أحَبَّه به الآب، فهذا طلب ضمني لحلول الروح القدس علينا.

نعود لقول القديس كيرلس، والذي يهْمُنَا أن نلاحظه فيه هو أنه يربط صلاة الرب لأجل تقديسنا بصلاته لأجل وحدتنا، ويعتبر أن الثانية هي الغاية من الأولى. فالغاية من تقديس نفوسنا هي أن نصير واحدًا في الله.

نفس هذا المعنى هو الذي نقوله في القداس الباسيلي بعد تقديس القرايين مباشرة، أي بعد سر حلول الروح القدس:

**[واجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نتناول من قدساتك**

**تقديسًا<sup>(٨٧)</sup> لنفوسنا وأجسادنا وأرواحنا**

**لكي نكون جسدًا واحدًا وروحًا واحدًا].**

(٨٦) انظر قول القديس غريغوريوس النيسي (هامش ١١٥) وقول القديس كيرلس الكبير (هامش ١١٦).

(٨٧) [تقديسًا لنفوسنا] جاءت بالقبطية **εὐττοῦβο ἡντε μενψυχῆ** ويترجمها البعض ”طهارةً لنفوسنا“، ولكنها في الأصل اليوناني للقداس الباسيلي **εἰς ἁγιασμόν** (انظر القداس الباسيلي، النص اليوناني مع الترجمة العربية، إعداد نيافة أنبا إيفانيوس، ص ٨٦ص) وهي تعني بدون التباس ”تقديسًا“. وجدير بالذكر أن كلمة **τοῦβο** القبطية تقابل في العهد الجديد كلمتي القداسة **ἁγιασμός** والطهارة **καθαρισμός**، وكمثال للآيات التي فيها **τοῦβο** تقابل القداسة نذكر فقط من صلاة الرب الأخيرة:

**«قَدْسَهُم في الحق» ματοῦβωτ ἡ ἐρηι δὲν ἡμεῶμιν**

**«لأجلهم أَقْدَسُ أنا ذاتي» ἡ τοῦβο ἡμοι ἀνοκ ἡ ἐρηι ἑχωωτ**

**«ليكونوا هم أيضًا مَقْدَسِينَ في الحق» εἰνα ἡ τοῦβωπι εἰωωτ εὔτοῦβηοῦτ δὲν οὔμεῶμιν**

إذن فليس من الصواب ترجمة **τοῦβο** باستمرار إلى ”طهارة“، ولكن يجب الاختيار في كل حالة بين كلمة ”طهارة“ وكلمة ”تقديس“، وذلك بالرجوع إلى الأصل اليوناني إذا وُجد، أو اعتمادًا على سياق الكلام.

فهنا الكاهن يطلب تقديس نفوسنا لكي نكون واحدًا.

إنه نفس المعنى ونفس الترتيب الذي وجدناه في صلاة الرب في يوحنا ١٧. وهذا يُبَيِّنُ أن الآباء الذين وضعوا القداس، كانوا مُلْهِمِينَ بالروح، وكان يُصَلُّونَ بنفس روح المسيح.

نفس هذا المعنى نجده أيضًا في قداس يعقوب الرسول:

**[ هَبْنَا نعمة القداسة ]**

**فنصير واحدًا في كنيستك التي افتداها يسوع المسيح بدمه الكريم].**

هنا أيضًا نجد القداسة توصَّل للوحدة.

السبب في ذلك هو أن الخطيئة هي التي أنشأت انقسام البشرية. فإذا رجعنا إلى قصة سقوط الإنسان في الخطيئة الأصلية، في الأصحاح الثالث من سفر التكوين، نجد بعدها مباشرةً في الأصحاح الرابع، كنتيجة لها، أبشع صورة لانقسام البشرية، إذ أن الأخ قتل أخاه. هذه كانت بداية جرثومة الانقسام التي أصابت جسم البشرية وأمراضته حتى الآن، والتي ملأت أعراضها التاريخ البشري بالانقسامات والتحزُّبات والحروب وإبادة الشعوب بواسطة شعوب أخرى...

لأجل هذا فإن بداية عودة البشرية إلى الوحدة يكون عن طريق القداسة.

القداسة عكس الخطيئة. والوحدة عكس الانقسام.

فإن كنَّا وجدنا في تكوين ٣ و ٤ أن الخطيئة أنشأت الانقسام؛ ففي يوحنا ١٧

نجد القداسة هي التي توصَّل إلى الوحدة.

وعن العلاقة بين الخطيئة والانقسام يقول القديس أوغسطينوس:

|| [لقد سقط آدم وكأنه بذلك قد تحطّم وملاً بأشلائه العالم كله] <sup>(٨٨)</sup>.

ويقول غيره من الآباء:

|| [بسبب الخطيئة تمزّقت الطبيعة البشرية إلى ألف قطعة] <sup>(٨٩)</sup>.

ويقول القديس مليتو أسقف ساردس في القرن الثاني الميلادي إن الرب جاء

|| [لكي يُحيي الإنسان ويجمع أعضائه التي فرّقها الموت. فإن الموت  
كان قد قسّم الإنسان] <sup>(٩٠)</sup>.

والبابا ألكسندروس (بداية القرن الرابع) يقول بنفس المعنى إن الرب جاء

|| [ليُخلّص الإنسان الذي هلك ويجمع كل أعضائه التي تشتّت] <sup>(٩١)</sup>.

ويُوضّح أبونا الروحي (الأب متى المسكين) في إحدى مقالاته العلاقة بين الخطيئة  
والانقسام هكذا:

|| [الإنسان بسبب الخطيئة صار أجسادًا مُتعددة بل مُتفتتة بل مُنقسمة،  
وانقسامها لا يقف عند حد، فالبشرية تجوز انقسامًا متواترًا في كل

---

(٨٨) شرح مزمو ٩٥ PL 37, 1236

(٨٩) مكسيموس المعترف PG 90, 272

(٩٠) مليتو أسقف ساردس SC 123, 238

(٩١) عظة عن النفس والجسد وآلام الرب: ٥ ANF VI, 302

مكان وفي كل كيان: أمة على أمة، وكنيسة على كنيسة، وأسرة على أسرة، وأب على ابن، وزوج على زوجته، والنفس في عمق كيانها الواحد منقسمة على ذاتها. هذا الانقسام الداخلي الذي يطفح على كل شكل وكل مظهر هو مرض البشرية العام؛ يبدأ من النفس وينتهي بالبشرية كلها. والخطيئة هي هذا المرض عينه، بل هي ملامح أعراضه وأسبابه ونتائجه<sup>(٩٢)</sup>.

«ليكون الجميع واحدًا».

ماذا يقصد بكلمة "الجميع"؟

إنهم هم أنفسهم "الجميع" الذين ذكرهم الرب في قوله المشهور: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢ : ٣٢).

ويُعلّق أبونا متى على هذه الآية الأخيرة في كتابه: "الوحدة الحقيقية ستكون إلهامًا للعالم"، قائلاً:

[ من هم الجميع يا ترى؟ الخليقيديونيون أم اللاخليقيديونيون؟ الشرقيون أم الغربيون؟ أهل الشمال أم أهل الجنوب؟ البيض أم السود؟ ]

وترك الإجابة للقارئ!

---

(٩٢) مقالة "انشققت السموات" في كتاب "أعياد الظهور الإلهي".

والقدّيس يوحنا في سفر الرؤيا يُكرّر عبارة: «من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة» (رؤ ٥: ٩) مرات عديدة على مدى السفر، وفي كل مرة يُغيّر من ترتيب مفرداتها (رؤ ٧: ٩ و ١١: ٩ و ١٤: ٦) أو يُغيّر بعضًا من هذه المفردات (رؤ ١٠: ١١ و ١٧: ١٥)، ولكنه يلتزم دائمًا أن يكون عددها أربع مفردات، ومعروف أن الأرقام في سفر الرؤيا لها دلالة أساسية، فهذا الرقم يُشير هنا إلى أربعة أركان المسكونة.

هذه الشمولية تظهر في قول الرب:

«بل أيضًا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم،  
ليكون الجميع واحدًا»،

حيث «يؤمنون بي» تشير إلى جميع الذين يؤمنون بالمسيح، أي إلى كل من يُدعى مسيحيًا، و «بكلامهم» δια τοῦ λόγου تُشير إلى كل من يؤمن بالكلمة، أي بالإنجيل، أي كل الكنائس التي تعتبر الإنجيل وكلمة الله أساسًا لإيمانها. وأخيرًا يأتي ضمير الملكية «هم»، الذي يعود على الرسل، ويُشير إلى كل من يتمسك بالتقليد الرسولي، أي إلى كل الكنائس "الرسولية"، أي التي أسسها الرسل، وحافظت على التقليد الرسولي، أو على الأقل التي تعتبر العصر الرسولي وكل ما عمله الرسل نبراسًا لما يجب أن تكون عليه الكنيسة.

جميع هؤلاء كانوا تحت مرمى نظر المسيح وهو يصليّ صلاته هذه الخالدة!

«كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا»

هنا يُعطي الرب نموذج الوحدة التي يطلبها لنا. وفي الحقيقة إنه قد ارتفع في ذلك بلا حدود، فهو يُعطي نموذجًا إلهيًا يفوق كل ما في هذا العالم، وكل ما في هذه الخليقة، وكل ما يمكننا أن نتصوره أو نستوعبه. إنه نموذج وحدته مع الآب، وهي وحدة إلهية كيانية ontologic، أي وحدة هي من صميم كيان الله، وحدة تداخل متبادل أو احتواء متبادل<sup>(٩٣)</sup>:

«كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ...»

فالآب في الابن، والابن في الآب. هذا شيء يستحيل على طبيعتنا المخلوقة أن تستوعبه. لأنه لا يوجد في كل العالم المخلوق ما يشابه ذلك: أن يكون كائنات كل واحد منهما في الآخر!! هذا أمر مستحيل. ولكن طبيعة الله لها صفات تفوق بلا قياس الطبيعة المخلوقة وصفاتها.

فكيف يجعل المسيح هذا النموذج الفائق تمامًا نموذجًا لوحدة المؤمنين به؟؟ في الحقيقة إن الوصول إلى مجرد مشاهدة هذه الوحدة الإلهية يُعتبر على مستوى المعجزة، إنه شيء إعجازي يجعل كل من يراه يؤمن أن المسيح ابن الله وأن الآب أرسله. لذلك أضاف الرب: «... لكي يؤمن العالم أنك أرسلتني».

كيف يمكن أن ندخل في هذه النوعية الفائقة من الوحدة إن وحدة "الاحتواء المتبادل" غير موجودة أصلاً إلا في الله وحده، في علاقة الابن بالآب والآب بالابن.

---

(٩٣) الاحتواء المتبادل يُعرف في اللاهوت وفي لغة الآباء باصطلاح perichoresis = περιχώρησις ويقابله في اللاتينية circumincesso.

كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا

ولكن بتجسد المسيح أمكن أن يكون نوع من الاحتواء المتبادل بيننا وبينه «أنتم فيّ وأنا فيكم» (يو ١٤: ٢٠)، وذلك بحق الاتحاد الإعجازي الذي حَقَّقَه في عمق كيانه بين البشرية واللاهوت. وبالتالي أمكن أن ندخل في علاقة مع الله، عن طريق المسيح فقط، فيها نوع من الاحتواء المتبادل، أي أن نكون في الله ويكون الله فينا. وبدخول كل واحد منّا في هذه الوحدة الفائقة مع الله التي ليس لها ما يشابهها في هذا العالم، أمكن أن يكون بيننا في الله فقط، نوعٌ فائقٌ من الوحدة يتعجَّب له العالم وينجذب بسببه إلى الإيمان بالمسيح. هذا هو مضمون ما يطلبه الرب لنا.

ويلاحظ أن الرب وهو يطلب لنا أن نُشابه هذه الوحدة التي بينه وبين الآب قائلاً: «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك...»، لم يُقَلِّ بحسب ما كان يستلزم منطق المشابهة: "... ليكونوا هم أيضًا كل واحد منهم في الآخر"، ولكن إذ كان يعلم أن هذه النوعية الفائقة من الوحدة القائمة على الاحتواء المتبادل غير ممكنة للخلقية في ذاتها، وأنها لا يمكن أن تتم إلا في الله وحده، لذلك قال في الجزء الثاني من الآية: «... ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا»، حيث كلمة: «فينا» هي أهم جزء في الآية، فبدون هذه الكلمة تكون الطلبة مستحيلة التحقيق.

إن الآية كلها محصورة بين كلمة «كما» في أولها وكلمة «فينا» في آخرها. كلمة «كما» تضع أمامنا الوحدة التي بين الآب والابن كمثال أعلى لوحدتنا بعضنا ببعض. ونحن لسنا مدعوّين فقط أن نتمثّل بهذه الوحدة التي بين الآب والابن، ولكننا مدعوون أن تكون لنا شركة في هذه الوحدة عينها بالدخول فيها. نحن مدعوون أن ندخل في صميم هذه الوحدة بين الآب والابن «ليكونوا واحدًا



فينا»، وليس فقط أن نقف أمامها من الخارج نحاول أن نتمثّل بها دون أن نجد لذلك سبيلاً. كلمة ”فينا“ تُعطي إمكانية التنفيذ، وتعطي للآية قوتها الفائقة.

ويلاحظ أن هذا كله مبني على خلفية الإفخارستيا التي أسسها الرب قبل هذه الصلاة بلحظات. لقد قال الرب «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦)، فالإفخارستيا هي التي تُعطينا نوعاً من الاحتواء المتبادل مع المسيح. وحينما أكون أنا في المسيح، وأنت في المسيح، فلا بد بالتالي أن نكون واحداً في المسيح، لا بد أن ندخل في نوعٍ راقٍ من الوحدة، عن طريق المسيح. تصير بيننا علاقة من الاحتواء المتبادل داخل المسيح، أي ليس مباشرة بيننا. فالمسيح هو المركز الذي يجمعنا ويجعلنا واحداً فيه.

يقول القديس كيرلس الكبير:

[حينما يعتبر المسيح وحدة الآب الجوهرية معه ووحدته الجوهرية مع الآب نموذجاً ومثالاً للمحبة والتوافق والوحدة التي لا تنفصم التي يجب أن تكون بين ذوي النفس الواحدة، إنه بذلك يريدنا أن نكون مُنصهرين بنوعٍ ما بعضنا مع بعض بقوة الثالوث الأقدس الواحد في الجوهر]<sup>(٩٤)</sup>.

لاحظ هنا أن انصهارنا بعضنا مع بعض، لا يتحقّق بقوتنا ولا بتقوانا، ولكن ”بقوة الثالوث الأقدس الواحد في الجوهر“. فوحدة الآب بالابن الجوهرية هي القوة الوحيدة القادرة أن توحدنا بهذه النوعية الفائقة من الوحدة التي يطلبها الرب.

كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا

ولنكْمَل قراءة بقية القول:

[...حتى أن جسد الكنيسة بكامله يُعتبر وحدة واحدة، ويرتقي في المسيح بواسطة التحام واقتران الشُعَيْن معاً، إلى أن يصير كياناً واحداً كاملاً في المسيح. «لأنه هو سلامنا» كما يقول القديس بولس «الذي جعل الاثنين واحداً ونقض حائط السياج المتوسط، أي العداوة بجسده، مبطلاً ناموس الوصايا في فرائض، لكي يخلق الاثنين في نفسه إنساناً واحداً جديداً، صانعاً سلاماً، ويصالح الاثنين في جسد واحد مع الله، بالصليب قاتلاً العداوة به» (أف ٢: ١٤ - ١٨)<sup>(٩٥)</sup>. وهذا قد تم بالفعل إذ صار المؤمنون بالمسيح متوافقين «بنفس واحدة» بعضهم مع بعض، وصار لهم «قلب واحد» (أع ٤: ٣٢)، باتفاق الجميع في التقوى وطاعة الإيمان والغيرة على محبة الفضيلة]<sup>(٩٦)</sup>.

يلاحظ أن القديس كيرلس يستشهد بوصف الجماعة المسيحية الأولى في أعمال الرسل ليُبرهن أن صلاة المسيح استُجِبت، وأن نموذج الوحدة العالي جدّاً الذي أعطاه المسيح كان ممكناً، بل وصار واقعاً معاشاً في تاريخ الكنيسة<sup>(٩٧)</sup>.

أقوال آباء آخرين عن نموذج الوحدة الأعلى

القديس إغناطيوس الأنطاكي من أكثر الآباء الذين تأثروا بقول الرب «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك...» واعتبروه مثلاً أعلى للوحدة الكنسية.

(٩٥) هذه من الآيات المحبوبة جدّاً عند القديس كيرلس والتي يُكرها في مناسبات عديدة.

(٩٦) تفسير إنجيل يوحنا ١٧: ٢٠ و ٢١ PG 74, 557; Pusey 2.733.14-27

(٩٧) كان قد سبقه القديس أنثاسيوس في الربط بين صلاة الرب في يو ١٧ وبين تحقيقها في حياة الكنيسة الأولى في أعمال الرسل (انظر ضد الأريوسيين ٣: ١٩).

ومعروف أنه كان تلميذًا مباشرًا ليوحنا الحبيب كاتب الإنجيل الذي سجّل لنا هذه الصلاة العجيبة. ولا بد أنه سمع معلّمه يتكلّم شفويًا عن هذه الصلاة، وربما بتفاصيل أكثر ممّا وصل إلينا. لذلك نجده في رسائله إلى الكنائس يُقدّم للمؤمنين ”وحدة يسوع والآب“ كمثال أعلى لما يجب أن تكون وحدتهم بعضهم ببعض. فمثلاً يكتب إلى كنيسة سмирنا (٧: ٢):

|| [اهربوا من الانشقاقات لأنها رأس جميع الشرور  
اتبعوا جميعًا الأسقف، كما أن يسوع المسيح يتبع الآب].

وإلى كنيسة فيلادلفيا (٧):

|| [تمثّلوا بيسوع المسيح،  
كما أنه هو أيضًا يماثل الآب في كل شيء].

وإلى كنيسة مغنيسيا (٧):

|| [كما أن الرب لم يفعل شيئًا لا بنفسه ولا برسله،  
في معزل عن الآب المتّحد به،  
هكذا أنتم أيضًا لا تفعلوا شيئًا في معزل عن الأسقف والقسوس].

وإلى كنيسة أفسس (٥: ١) يكتب مناشدًا أن يكونوا واحدًا

|| [كما أن الكنيسة متّحدة بيسوع المسيح  
وكما أن يسوع المسيح متّحد بالآب]

وأيضًا إلى كنيسة مغنيسيا (١٣: ١-٢):

|| [كونوا خاضعين للأسقف وبعضكم لبعض،  
كما أن المسيح كان خاضعًا للآب بحسب الجسد]

كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا

وأيضًا إلى كنيسة مغنيسيا (١):

[إني أمتدح الكنائس وأصلّي لتكون لها وحدة في جسد يسوع المسيح وروحه  
... بل وما هو أفضل بصفة مطلقة: وحدة يسوع والآب!]

القديس كبريانوس هو أيضًا أسقف شهيد من الكنيسة الأولى ومحِب جدًا  
للوحدة المسيحية. وقد كتب كتابًا عنوانه "في وحدة الكنيسة" نقرأ فيه:

[لقد قال الرب «أنا والآب واحد» (يو ١٠ : ٣٠)،

ويوحنا يقول عن الآب والابن والروح القدس

إن «هؤلاء الثلاثة هم واحد» (١ يو ٥ : ٧).

فمن يستطيع أن يُصدّق أن وحدتنا المتولّدة من وحدانية الله،

والمتقويّة بالأسرار الإلهية

يمكنها أن تنقسم بحسب أمزجة المشيئات المتضاربة؟!]

إن فقدان هذه الوحدة إنما هو فقدان الناموس الإلهي،

بل وفقدان الإيمان بالآب والابن والروح القدس،

بل وفقدان الحياة والخلاص [في وحدة الكنيسة ٤]

إن هذا القول يُبيّن أن وحدتنا بعضنا ببعض ليست مجرد فضيلة أخلاقية، ولكنها  
متّصلة بجوهر إيماننا بوحدة الآب والابن والروح القدس، حتى أن من يُخطئ في حق  
وحدتنا بعضنا ببعض، إنما يُخطئ في حق الإيمان بوحدة الآب والابن والروح القدس،  
التي هي الأصل والمثال الأعلى لوحدتنا.

ولنفس السبب حدّد القديس يوحنا ذهبي الفم أن يُقال في قدّاسه قبل تلاوة  
قانون الإيمان:

**[لنُحب بعضنا بعضاً بقلبٍ واحدٍ،  
حتى نستطيع أن نعترف بالآب والابن والروح القدس  
الثالوث المساوي غير المنقسم]**

لأن محبتنا بعضنا لبعض هي انعكاس للحب الإلهي الذي يوحد الآب والابن والروح القدس، فبدونها يكون اعترافنا بالآب والابن والروح القدس اعترافاً باطلاً، إذ تُعوّز الشهادة العملية والأثر الفعّال في حياتنا وسلوكنا.

**سؤال:** هل معنى ذلك أن الكنائس المنقسمة الآن بعضها عن بعض لم تُعدّ تؤمن بالثالوث؟

للإجابة على هذا السؤال نضع سؤالاً آخر مشابهاً له، إذا عرفنا إجابته تتضح أمامنا الإجابة على سؤالك. كيف يقول يوحنا في رسالته الأولى: «المولود من الله لا يُخطئ» (١ يوحنا ٥: ١٨)، وفي نفس الرسالة يقول: «إن قلنا إنه ليس لنا خطيئة نُضل أنفسنا وليس الحق فينا» (١ يوحنا ١: ٨)؟ فبحسب الآية الثانية نحن جميعاً خطاة، فهل معنى ذلك أننا نحن جميعاً لم نُعد مولودين من الله بحسب ما جاء في الآية الأولى؟ نقول في إجابتنا على ذلك إننا عندما نُخطئ فلا يكون ذلك بصفتنا مولودين من الله، ولكن هذا لا يُلغي بنوتنا له المغروسة في عمق كياننا. يمكن توضيح ذلك بمثال: أب قيل له إن ابنه عمل مُنكراً، مثلاً إنه سرق. فماذا يكون رد فعله؟ إنه يغضب ويقول: أنا ليس عندي أولاد يسرقون!! فهل معنى ذلك أن الابن لم يُعد ابنه؟! معناه فقط أن الابن عندما يسرق لا يفعل ذلك بصفته ابناً لأبيه، ولكن هذا لا يُلغي أنه في عمق كيانه لا يزال ابنه. بالمثل نحن عندما نُخطئ، فإننا لا نفعل ذلك بصفتنا أولاداً لله، ولكن هذا لا يُلغي أننا في عمق كياننا أبناءه بحكم المعمودية التي نلناها والتي لا يمكن أن يُمحى أثرها، بدليل أنه حتى الإنسان الذي يُنكر الإيمان، حينما يتوب لا تُعاد معموديته، لأن أثرها لا يُمحى.

كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا

**سؤال:** كيف بعد أن صلّى المسيح مثل هذه الصلاة القوية لأجل وحدة كنيسته، لا نرى هذه الوحدة التي طلبها مُعاشرة وحية بيننا على كافة المستويات؟

صلاة المسيح هي صلاة الابن الوحيد لأبيه، لذلك هي مستجابة حتمًا وتعطي نعمة عظمى لكل من يضع نفسه في مجالها، فينال منها قوة ليتصالح مع من يخاصمه. ومع ذلك نقول إن الله يحترم حريتنا ولا يفرض علينا نعمته قسرًا. فإن لم نضع أنفسنا في مجال هذه الصلاة التي صلاها الرب، فإنها لا تفرض نفسها علينا. قلنا إن الآباء يستشهدون بالوحدة والتوافق التي كانت في الكنيسة الأولى بأورشليم كما يصفها سفر الأعمال، كدليل على أن صلاة المسيح في يو ١٧ استُجبت وكان لها أثر قوي على حياة الكنيسة. ومع ذلك كان في نفس الجليل في كنيسة كورنثوس من يتحرّب لبولس أو لأبولس أو لصفاء أو للمسيح، حتى صرخ بولس في وجههم: «هل انقسم المسيح؟». وهذا يدلُّنا على أن صلاة المسيح في يو ١٧ لها أثر قوي على من يتجاوب معها ويضع نفسه في مجالها، وأما من يخرج خارجًا عن مجالها، فهي لا تُلزمه بشيء.

فكما قلنا في المرة السابقة، الله يتعامل مع كائنات حرة، وهو لا يُلغي حريتنا. الصعوبة الشديدة في تخليص الإنسان من جهة الله كانت بسبب حرية الإنسان. فبقدر ما نتجاوب بحريتنا مع النعمة، بقدر ذلك نأخذ قوتها. أمّا إن تمّاوننا بهذه النعمة وأهملناها (كمثل من يتناول ثم يدفن الموهبة في التراب، أي في حياة جسدية متناسيًا النعمة التي أخذها)، أو إن أخطأنا في حقها (كأن يتناول شخصان وهما متخاصمان، الأمر الذي شجبه الديداخي تمامًا)، فلا ننتظر أن نأخذ شيئًا منها.

نعود لصلاة المسيح:

قلنا إن الوحدة التي يطلبها المسيح لنا هي فائقة تمامًا على كل إمكانيات الإنسان، لذلك فإن المسيح لم يوصينا بها، كأن يقول لنا: ”كونوا واحدًا بعضكم مع بعض، كما أنا في الآب والآب فيّ“، ولكنه إذ كان يعلم أن هذا يقع خارج حدود إمكانياتنا البشرية، فقد وجّه الطلب للآب رأسًا. وأمّا لنا فقد أعطى فقط وصية المحبة: «هذه هي وصيتي أن تحبوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم» (يو ١٥: ١٢).

من هذا نفهم أن تحقيق الوحدة المسيحية يقع خارج حدود إمكانياتنا البشرية، مهما كانت نياتنا صادقة وحسنة.

ولكن كل ما نملك أن نفعله هو أن نحب بعضنا بعضًا كما أعطانا وصية، ثم نطلب الوحدة كعطية من الآب، كما طلبها الرب أيضًا لأجلنا.

وأمّا أول خطوة في طريق المحبة الطويل، فهي أن لا نُدين بعضنا بعضًا وأن لا نحاول إخراج القذى من عيون الآخرين، وذلك على كافة المستويات. لقد صارت العادة الدارجة في جميع الكنائس أن كل كنيسة تُدين الكنائس الأخرى وتحاول إخراج القذى من عيونها دون أن تلتفت إلى الخشبة المغروسة في عينها هي. إن استطعنا أن نطبّق وصية المسيح هذه بعدم إدانة الآخرين، على مستوى كنسي، وليس فقط على مستوى فردي، نكون قد وضعنا أرجلنا في بداية طريق المحبة الطويل الموصّل إلى الوحدة، فنبلغها في أحضان المسيح!!

«... ليؤمن العالم أنك أرسلتني».

بِهذه العبارة يُيّن المسيح أن الوحدة الوثيقة التي يطلبها للمسيحيين ستكون أكبر عامل كرازي مُعطى للكنيسة.

ويلاحظ أن هذه العبارة عينها سبق أن قالها المسيح عند إقامة لعازر: «أيها الآب، أشكرك لأنك سمعت لي وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت، ليؤمنوا أنك أرسلتني» (يو ١١ : ٤١-٤٢).

ففي تكراره لنفس العبارة في المناسبتين تلميخ أن وحدة الكنيسة تُعتبر معجزةً على مستوى إقامة ميّت من القبر. فكل من المعجزتين تُعتبر آيةً، أي إشارةً، كفيلاً بأن تجعل العالم يؤمن بأن المسيح قد جاء فعلاً من عند الآب.

هناك آية أخرى تؤكد أيضاً القيمة الكرازية لوحدة المسيحيين ولحبتهم بعضهم لبعض: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي إن كان لكم حبٌ بعضاً لبعض» (يو ١٣ : ٣٥).

هذه هي العلامة المميّزة التي أعطهاها المسيح لتلاميذه، «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي...». توجد أربع علامات مميّزة للكنيسة نقولها في قانون الإيمان: أن تكون واحدة، مقدّسة، جامعة، رسولية. ولكن العلامة الوحيدة التي أعطهاها المسيح لتلاميذه، والتي تجمع وتُلخّص جميع هذه العلامات، هي أن يكون لهم حب بعضهم لبعض، وهي الكفيّلة بأن تجعل العالم يؤمن بالمسيح.

وقد تحقّق بالفعل ذلك في الأجيال الأولى، وقرأنا في تاريخ الكنيسة أن الوثنيين



كانوا يتعجبون من محبة المسيحيين ومن ترابطهم الوثيق الذي يفوق كل ما عرفوه ويقولون: "انظروا كيف يحبون بعضهم بعضاً!"، فينجذبون بقوة لا تُقهر للانضمام إلى هذه الجماعة المُحبّة بعضها لبعض.

يُخبرنا بذلك العلامة ترتوليان:

[إن أعمال المحبة السامية جدًّا (التي نمارسها) هي التي تُثير علينا أشدَّ الإعجاب من الكثيرين (من الوثنيين)، فإنهم يقولون: "انظروا كيف يُحبُّون بعضهم بعضاً!" لأنهم هم أنفسهم يُغضون بعضهم بعضاً. "انظروا كيف أنهم مستعدون أن يموتوا الواحد من أجل الآخر!" لأنهم هم أنفسهم مستعدون بالحري أن يقتلوا بعضهم بعضاً]<sup>(٩٨)</sup>

هكذا كانت المحبة أكبر عامل كرازي في الأجيال المسيحية الأولى. وهذا ما نقرأه في أعمال الرسل، فبعد أن وصف القديس لوقا وحدة الروح التي كانت بين المؤمنين حتى كان «كل شيء بينهم مشتركاً» يقول «وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت، كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب، مسبّحين الله ولهم نعمة لدى جميع الشعب. وكان الرب كل يوم يضمُّ للكنيسة الذين يخلصون» (أع ٢: ٤٦ و٤٧).

وكلنا نعرف قصة الأنبا باخوميوس، مؤسس حياة الشركة، الذي كان قبلاً جندياً وثنيّاً، وقد جذبته للمسيحية المحبة التي رآها عند المسيحيين في مدينة إسنا. ولمّا صار راهباً، كان هدفه من تأسيس رهبنة الشركة أن يجعل الرهبان يعيشون حياة

مماثلة لحياة الكنيسة الأولى التي نقرأ عنها في سفر أعمال الرسل، لذلك في تعاليمه وتعاليم تلاميذه (تادرس وهورسيزي...) كثيرًا ما نبجدهم يُسمّون حياة الشركة "بالحياة الرسولية"، "حياة الشركة التي أسسها الآباء الرسل".

من كل ذلك يتأكد لنا أن المحبة التي كانت بين المسيحيين في الكنيسة الأولى كانت أهم عمل كرازي جذب العالم إلى الإيمان بالمسيح، كقول الرب «ليؤمن العالم أنك أرسلتني». وللأسف العكس أيضًا صحيح: فانقسام المسيحيين وانعدام المحبة بينهم هو أهم عائق يمنع العالم من أن يؤمن بالمسيح.

فبعد أن كان العالم يُشيد بمحبة المسيحيين بعضهم لبعض، وبأنهم مستعدون أن يموتوا الواحد لأجل الآخر؛ إذ به بالعكس يراهم في عصور الانقسام المظلمة وهم مستعدون أن يقتلوا بعضهم بعضًا!

فانعدام المحبة بين المسيحيين، عندما يصل إلى أن يُعادي الأخ أخاه، هو أكثر ما يمنع العالم عن الإيمان بالمسيح وبرسالته. انقسام الكنيسة أخطر عثرة روحية تمنع تقدّم ملكوت الله.

يُحكى أنه في القرن الماضي، جاء مبشران إلى إحدى قرى أواسط أفريقيا، أحدهما كاثوليكي والآخر بروتستانتي، وكل منهما يريد أن يقنع رئيس القبيلة بعقيدته ويدعوه للانضمام إلى كنيسته، فما كان منه إلا أن طردهما من أمامه، قائلاً: ارجعا إلى بلدكما، واتفقا أولاً على رأي، وعندئذ تعاليا وبشرانا!

قصة صغيرة تبين أن كلام المسيح لا يسقط أبدًا، وأن وحدتنا بعضنا ببعض في الله هي شرط لا غنى عنه ليؤمن العالم بالمسيح.

كذلك يُعتبر انقسام المسيحيين، في نظر المسلمين، أكثر ما يُدعّم عدم إيمانهم بالمسيحية. ففي عُرفهم أن المسيحيين حرّفوا الإنجيل وادّعوا الألوهية للمسيح، وكنتيجة لذلك (في نظرهم) بلّبل الله رأيهم وجعلهم ينقسمون بعضهم على بعض إلى يوم القيامة تدليلاً على سوء مُعتقدهم<sup>(٩٩)</sup>.

إن شهادة القرآن هذه تتفق مع شهادة رئيس القبيلة الذي ذكرناه، ومؤدّاها: «نحن لا نؤمن بالمسيح بسبب أنكم منقسمون»، أو «انقسامكم يُدعّم عدم إيماننا بالمسيح». وهكذا تبرهن عملياً صحة قول المسيح «ليكونوا واحداً فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني»، إذ أن عدم تحقيقنا لهذه الوحدة التي أرادها لنا المسيح هو أكثر ما يمنع العالم عن الإيمان بالمسيح.

إن الشيطان يشمت الآن بالكنيسة المنقسمة. إنه يقف أمامها ويضحك ضحكته ذات الرائحة الزفرة جدّاً، ويُشهر بيده ورقة مكتوب عليها «ليكونوا واحداً... لكي يؤمن العالم»، ويقول: عندي في يدي فرمان بنطق الرب نفسه يسمح لي بأن أمنع العالم عن الإيمان بالمسيح بسبب أنكم منقسمون!!

إن وحدة المسيحيين في الآب والابن هي أثمن ما أعطاه المسيح لكنيسته. والاستغناء عن هذه الوحدة أعظم خسارة يمكن أن تُصيب الكنيسة، ولا يوازئها أي مكسب مهما كان.

(٩٩) [لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ... فَأَعَزَّنَا فِيْنَهُمُ الْعَادَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ] (سورة المائدة ١٧ و ١٤)

لذلك يُشَبَّه القديس إيرينيئوس الذين يسيئون إلى وحدة الكنيسة بحجة إجراء إصلاحات، بالذين يُصَفُّون عن البعوضة (ما يُريدون إصلاحه) ويبلعون الجمال (الاستغناء عن الوحدة في الآب والابن):

[إن صانعي الانقسام هم فارغون من محبة الله،

إنهم يهتمون بمصلحتهم الشخصية وليس بوحدة الكنيسة،

ولأتفه الأسباب يُمزَّقون ويُقسَّمون الجسد العظيم والمجيد الذي للمسيح،  
ويُفنونَه على قدر ما يستطيعون.

إنهم يتكلَّمون عن السلام ويصنعون الحروب،

وهم في الواقع «يُصَفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمال»،

لأنه لا يمكن أن يأتي أي إصلاح يوازي في قدره

الخسارة الفادحة الناتجة عن الانقسام<sup>(١٠٠)</sup>.

هكذا يرى القديس إيرينيئوس أن كل دواعي الانقسام إذا ما قيست بفقدان الوحدة المسيحية في الآب والابن تكون في حجم البعوضة إزاء الجمال!! والذين هم "فارغون من محبة الله" يبلعون الجمال بكل لامبالاة، ثم يضعون كل همهم في التصفية عن البعوضة.

إن وحدة الكنيسة ليست إحدى صفاتها ضمن صفات أخرى، ولكنها هي التي تُعبِّر عن جوهر كيان الكنيسة. فكما يُقال إن الله محبة، هكذا يُمكن أن يُقال إن الكنيسة وحدة في المحبة، أي وحدة في الله، «ليكونوا واحدًا فينا».

لذلك يُصوّر سفر الرؤيا أورشليم السماوية بأنها من ذهب شفاف كالزجاج:

«والمدينة ذهب نقي شبه زجاج نقي» (رؤ ٢١: ١٨).

«وسوق المدينة ذهب نقي كزجاج شفاف» (رؤ ٢١: ٢١).

حيث الذهب يرمز عادة في الإنجيل إلى اللاهوت، أو إلى مجد الله، لذلك قال أيضًا إن المدينة «لها مجد الله» (رؤ ٢١: ١١)، وأنها «لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئاً فيها، لأن مجد الله قد أثارها والخروف سراجها» (رؤ ٢١: ٢٣). هكذا الكنيسة مغمورة في مجد الله. فقلوه إن «المدينة ذهب»، وإن «لها مجد الله» يقابل كلمة «فينا» في الآية التي نشرحها «ليكونوا واحدًا فينا».

وأما الزجاج الشفاف، فهو يرمز إلى الوحدة والشركة التي بين جميع الأعضاء في أورشليم السماوية، لأن الوسط الشفاف هو الذي فيه كل نقطة ترى بوضوح جميع النقط الأخرى<sup>(١٠١)</sup>. وهكذا نرى أن وصف الكنيسة السماوية بأنها «ذهب نقي كزجاج شفاف» يُعطي معنى الوحدة في الله، ويُرادف قول الرب «ليكونوا واحدًا فينا».

لذلك قلنا إن الوحدة في الله ليست مجرد صفة من صفات الكنيسة، ولكنها هي جوهر كيائها، ولا غنى عنها لكي تكون الكنيسة كنيسةً.

الكنيسة شركة، جسد واحد، ليس بها أفراد بل أعضاء مرتبطين ارتباطاً عضوياً بعضهم ببعض، ولا يستطيع أي عضو منهم أن يكتفي بذاته ويستغني عن ارتباطه ببقية الأعضاء.

(١٠١) لذلك يقول المزمور عن أورشليم إنها «مدينة مثل مدينة متصلة بعضها ببعض» (مز ١٢١ في الأحبية).

ولكن قد يتبادر للبعض سؤال: كيف عاش الآباء المتوحدون هذه الشركة، بالرغم من عزلتهم التامة؟!

في الحقيقة هناك سرٌّ لا يعرفه إلا من يكون قد ذاق حياة التوحد، ولو لفترة وجيزة، وهو أنه كلما يقطع الإنسان علاقته الخارجية بالعالم، كلما ينمو فيه شعور بالتضامن مع الآخرين، بل ومع البعيدين عنه، وخصوصًا مع الخطاة والضالين. لذلك فالتوحد أكثر إنسان يعيش الشركة - على مستوى سرّي عميق وليس على مستوى منظور - مع جميع الأعضاء وبالأكثر الضعفاء منهم.

القديس أنطونيوس، الذي يُعتبر مؤسس رهبنة التوحد، يفاجئنا بقول يبدو غريبًا في فم إنسان عاش طيلة حياته متوحدًا:

|| [إن حياتنا هي من بعضنا البعض] (رسالة ٦:٦).

في الحقيقة لو كان هذا القول صادرًا من أنبا باخوم مؤسس حياة الشركة، لكان الأمر عاديًا، ولكن الذي يزيد وزن هذا القول جدًّا هو أنه صادر من أنبا أنطونيوس مؤسس حياة الوحدة. وهو يُقرّر أنه لا يستطيع أحد أن يبلغ الحياة (ويقصد طبعًا الحياة الأبدية) إلا عن طريق علاقته الروحية ببقية الأعضاء.

فهل تستطيع بعد ذلك أن تتجاهل أخاك، أو تدّعي أنك غير محتاج إليه، أو تقطع علاقتك به؟

القديس أنبا مقار في عظته الأخيرة يقول كلامًا مشابهاً لذلك:

|| [وأنا أريد أن تكون أنفسكم يا أولادي مسكنًا دائمًا لله، حتى تفكروا على قريكم بالخير دائمًا،

ولا يكون فيكم من يذكر الشرَّ لأخيه أو يتحرَّك بالبُغضة عليه،  
فإن القلب الذي يتفكَّر بالشر والبغضة لا يُمكن أن يكون مسكنًا لله.  
لقد علمتم المكتوب: «إن أنتم أحببتم بعضكم بعضًا،  
فإن الله يكون ساكنًا فيكم» (١ يوحنا ٤: ١٢)،  
فاقتنوا الحب بعضكم لبعض ...  
أمسكوا هذا في قلوبكم، ولا تقولوا الشر على قريبيكم، أو تُحزنوه،  
لئلا تُغضبوا الله الساكن فيه!!  
لأن كل كرامة يُكرَّم بها الإنسان أخاه هي واصله بالمسيح سبحانه].

يلاحظ في هذا القول تكراره أربع مرات معنى "سُكِنَى الله فينا" ثم تركيزه على ارتباط هذا المعنى بمحبة الآخرين، وأن من يُحزن أخاه يُغضب الله الساكن فيه. إذن فحينما نُحزن أخاك، فأنت تُحزن الله الساكن فيه. فلا يجب أن تعتبر أخاك هذا مجرد إنسان عادي، ولكن اعتبر أن الله ساكن فيه، وهو في الله.

ويلاحظ أن قول الرب «... ليؤمن العالم أنك أرسلتني» يُحتِّم أن تكون الوحدة التي يطلبها منظورة من الجميع حتى يراها العالم وينجذب بسببها للإيمان بالمسيح! إذن فلا يُمكن أن تكون متخاصمًا مع أخيك من الخارج وعائشًا في قطيعة معه، ثم تدَّعي أنك من الداخل تعيش الوحدة مع جميع الناس على مستوى روحي غير منظور وتكتفي بذلك. ليست هذه هي الوحدة التي صلَّى الرب لأجلها، طالبًا أن تكون منظورة من العالم، حتى يؤمن بسببها أن الآب أرسله!

نطلب من المسيح أن يُعطينا أن نتجاوب مع صلاته، بل ونشارك معه فيها. وبالتأكيد أفضل مناسبة لذلك هي بعد أن نكون قد تناولنا من أسرار المقدسة، هذه الأسرار التي أسسها الرب قبل هذه الصلاة بلحظات، لتكون أقوى أساس لهذه الوحدة التي يطلبها.

فاحذر بعد أن تتناول أن تدفن الوزنة التي أخذتها في التراب، أي أن تُواصل حياتك الجسدية كما كانت، متناسيًا الموهبة التي أخذتها،

بل عليك أن تشترك مع المسيح الرافع هذه الصلاة من داخل قلبك. قُلْ له: اجعلني يا رب أدخل في مجال وحدتك مع الآب، أشركني معك في صلاتك التي ترفعها للآب وأنت الآن داخل قلبي.

وبذلك تكون تاجرت بالوزنة وريحت عشرة أضعاف.

## صلاة

يا ربنا الحبيب يسوع، يا من أتيت إلينا على الأرض ولبست جسدنا لكي تُرجعنا إلى حضن الآب، وتُدخلنا معك إليه، بحسب قولك:

«أريد أن الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي».

لم ترضَ يا رب أن تتركنا خطاة، بل اشتركت معنا في اللحم والدم، جعلت نفسك أخًا لنا، صرت لنا بكرًا،

أحببتنا حبًا يفوق التصوُّر. كل ما نستطيع أن نتصوَّره من حبك لا يساوي واحدًا في المائة من الحب الذي أنت أحببتنا فعلاً به.

نشكرك يا حبيبنا يسوع! نرجوك تجاوز عن قصورنا وعن الخطيئة التي لا زالت تعمل في طبيعتنا البشرية.



ربنا الحبيب، أنت بقيامتك كسّرت قيود الموت والخطيئة. «آخر عدو يُبطل هو الموت»، معنى ذلك أن العدو قبل الأخير وهو الخطيئة أنتَ أبطلته أيضاً، ولكننا ننتظر يا رب أن تملك علينا، ونُثَقِّدَ فينا ما عملته في يوم قيامتك. أخضع فينا يا رب هذا العدو الشرير الذي هو الإنسان العتيق، الذي يُقوِّيه الشيطان.

أعطنا يا رب أن نقوم بأول خطوة في الطريق وهي أن نحب بعضنا بعضاً، كل راهب يجب أخاه من قلب طاهر بشدة، وعلى الأخص يجب أخاه الذي لا يستلطفه، أخاه الذي أخطأ في حقه، يحبّه بصفته أنه عضو في جسدك.

أنت يا رب أعطيتنا أسلحةً جبارة، يكفي سر جسدك ودمك! شكراً لك يا رب على هذا السلاح الإلهي حقاً، لأن هذا السلاح هو وجودك أنت فينا!

ربنا الحبيب اجعلنا نخضع لك، نُريحك داخلنا، نفتح لك قلوبنا. بشفاعة أمنا العذراء وجميع آبائنا القديسين الذين عاشوا معك حياة قوية، ومن أجل ذلك صاروا كلهم جسداً واحداً وروحاً واحداً، بشفاعتهم كلهم أعطنا أن نتعمّق في علاقتنا بك، لأنك إله مبارك، ولك المجد في كل جيل. اسمعنا أيها الآب حينما نقول الصلاة التي رفعها إليك ابنك لتكون كلنا واحداً فيك وفيه.

اسمعنا حينما نقول لك بصوته هو فينا: أبانا الذي في السموات...

## «وَأَنَا أُعْطِيتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أُعْطِيتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ وَاحِدًا»

كانت كلمة الأسبوع الماضي عن الطلبة الأولى التي طلبها المسيح لأجل وحدة كنيسته: «ليكون الجميع واحدًا كما أنك أنت أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني».

اليوم سنتكلم عن الطلبة الثانية:

«وَأَنَا أُعْطِيتُهُمُ الْمَجْدَ الَّذِي أُعْطِيتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ وَاحِدًا».

نلاحظ بدايةً أنها ليست طلبية، ولكنها مساهمة من المسيح في تنفيذ الطلب الذي يطلبه من الآب لأجلنا. فكما رأينا عندما كان المسيح يصلي من أجل تقدسنا قائلاً للآب: «قَدْسَهُمْ فِي حَقِّكَ»، أنه بعد ذلك قدّم مساهمته في تنفيذ ذلك قائلاً: «وَلأَجْلِهِمْ أَقْدَسُ أَنَا ذَاتِي، لِيَكُونُوا هُمْ أَيْضًا مَقْدَّسِينَ فِي الْحَقِّ» (يو ١٧: ١٩)؛<sup>(١٠٣)</sup> هكذا هنا أيضًا حينما يطلب وحدة المؤمنين به، بدأ أولاً بطلبها من الآب، ثم قدّم مساهمته في الآية التي سنشرحها اليوم، والتي بدأها الرب بكلمة «وَأَنَا...» مبيّنًا بذلك أنها مساهمة الشخصية.

(١٠٢) شريط رقم ١٦٦ بتاريخ ٢٧/٤/٢٠٠٧.

(١٠٣) انظر شرح ذلك ص ٩٣.

## معنى المجد في المفهوم الروحي

لا بد أولاً أن نتذكّر ما قلناه عن معنى المجد في المفهوم الروحي واختلافه عن المجد بالمفهوم العالمي (في شرح «مجد ابنك» انظر ص ٦٠).

المجد في مفهوم العالم يعني القوة الزمنية، الغنى المادي، الكرامة العالمية، الألقاب، التسلّط على الآخرين ... إلى آخره.

أما المجد في المفهوم الروحي فهو يختلف تماماً عن ذلك. إن أقرب تعريف له هو أنه "التوهّج بالحب الإلهي". فعندما نقول عن طبيعة الله إنها مجيدة جداً، نعني بذلك أنها متوهّجة بالحب الإلهي بدرجة فائقة.

طبيعة الله هي المحبة، بحسب قول القديس يوحنا الذي كرّره مرتين في رسالته الأولى: «الله محبة» (١ يو ٤: ٨ و ١٦). ولمّا أراد القديس غريغوريوس النيسي أن يُعرّف طبيعة الله قال إنها [الحياة النشيطة في ذاتها]<sup>(١٠٤)</sup>، ثم حدّد طبيعة هذه الحياة وهذا النشاط قائلاً [حياة الطبيعة الأسنى هي المحبة]<sup>(١٠٥)</sup>، وأيضاً [الحياة الإلهية دائماً ناشطة في ذاتها بالمحبة]<sup>(١٠٦)</sup>.

---

ζωή ἐστὶν ἐν αὐτῇ ἐνεργουμένη C. Eunom. 2.1.70.15; PG 45, 933B (١٠٤)

حيث كلمة ἐνεργουμένη من الفعل ἐνεργέω تعني الفاعلة أو العاملة أو النشيطة، ومنها جاءت كلمة energy التي تعني الطاقة والنشاط.

Ἡ τε γὰρ ζωὴ τῆς ἄνω φύσεως ἀγάπῃ ἐστὶν (١٠٥)

De anima et resurrectione, PG 46.96.34

ἀεὶ ἡ θεία ζωὴ δι' ἀγαπῆς ἐνεργηθήσεται (١٠٦)

De anima et resurrectione, PG 46.96.41

لذلك فالحبة هي التي تُعبّر عن طبيعة الله وعن حياته وعن نشاطه وعن مجده.

وحينما نقول إن الله محبة فهذا يستلزم أن نؤمن بأنه مثلث الأقانيم. فلو لم يكن الله آب وابن في شركة الروح القدس، لكان من المستحيل أن تكون المحبة في الله أزلية. فالله ”الصّمد“<sup>(١٠٧)</sup> كيف يكون محبة قبل أن يخلق العالم؟ فمن كان يُحب؟ وكيف كان مجيدًا في الأزلية؟ إن هذه الأسئلة لا تجد إجابة إلا بالإيمان بأن الله منذ الأزل آب وابن وروح قدس في إله واحد.

فحينما نقول إن طبيعة الله محبة، فهذا لأن كيانه الآب هو حب أبوي لا نهائي ينسكب أزليًا على الابن، وكيان الابن هو حب بنوي لا نهائي معاد للآب في شركة الروح القدس.

مجد الله الأزلي هو حبه المتأجّج في ذاته الذي يفوق كل ما نستطيع أن نقوله أو نتصوّره، وذلك بسبب محدوديتنا. لمّا صعد بولس الرسول إلى السماء الثالثة وعان مجد الله، عاد قائلاً إنه «سمع كلمات لا يُنطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلّم بها» (٢كو ١٢: ٤)، حيث كلمة ”لا يسوغ“ لا تعني فقط غير مسموح ولكنها تعني أنه لا توجد إمكانية، أي أنه ليس لدى البشر كلمات ولا أدوات فكرية للتعبير ولا لاستيعاب مجد الله الأزلي.

لقد قال المسيح في بداية صلاته في يوحنا ١٧: «والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاك، بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (١٧: ٥).

(١٠٧) هكذا يدعو الذين لا يؤمنون بالثالوث.

فالمجد الذي كان للمسيح عند الآب قبل كون العالم هو مجد الله الأزلي الذي لا نستطيع أن نتكلّم عنه. ولكن كيف يطلب الابن من الآب الآن ما كان له منذ الأزل؟ هل ضاع منه؟ بالطبع لا. كان له هذا المجد ولا زال له؛ ولكن الشيء الجديد الذي حدث هو أن الابن صار الآن متجسداً حاملاً في ذاته طبيعتنا البشرية. فهو يريد الآن أن ينال لحسابنا في الجسد هذا المجد الإلهي بعينه - أي الحب الأزلي - الذي كان له قبل كون العالم ولا زال له إلهياً، يُريد أن جسده أيضاً يتوهّج بهذا الحب. وقد بلغ هذا التوهّج ذروته على الصليب. لذلك لاق بالمسيح أن يطلب هذا المجد في الليلة التي كان يستعد فيها لتسليم ذاته. والآب مجّد الابن بالصليب، وكذلك في المقابل فإن الابن مجّد الآب بالصليب لأنه أظهر علناً أمام العالم كيف أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد. لذلك فالصليب كان عملية تمجيد للآب وعملية تمجيد للابن.

لذلك لمّا خرج يهوذا - وبدأت بذلك ساعة الصليب - قال الرب:

«الآن تمجّد ابن الإنسان وتمجّد الله فيه!» (يو ١٣ : ٣١).

لقد تنفّس الرب الصعداء في هذه اللحظة لأنه أحسّ أن رسالته التي جاء لأجلها بدأت تكتمل. لقد عاش طيلة حياته على الأرض منحصرًا في انتظار هذه الساعة: «لي صبغة أصطبغها، فكم أنا منحصر حتى تكمّل» (لو ١٢ : ٥٠).  
والآن قد جاءت الساعة، ساعة البذل، ساعة الحب الفائق اللانهائي، بل ساعة المجد بالمفهوم الإلهي.

في عدة مواضع أخرى يُشير إنجيل القديس يوحنا إلى عملية الصلب بكلمة "المجد":

+ «الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد» (يو ٧: ٣٩).

+ «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة لِيتمجِّد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتَمُتْ فهي تبقى وحدها، ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير... أيها الآب مجِّد ابنك»<sup>(١٠٨)</sup> (يو ١٢: ٢٣ و ٢٤ و ٢٨).

ويُعلّق القديس كيرلس الكبير على هذه الآية الأخيرة قائلاً:

[«مجِّد ابنك» تعني «لا تعفني من التقدُّم نحو الموت، بل امنح ابنك أن يُكَمِّل ذلك من أجل خير الجميع». والإنجيلي يُشير في مواضع أخرى إلى الصليب بكلمة «المجد» قائلاً «لأن الروح لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجِّد بعد». فمن الواضح هنا أنه يُشير إلى الصلب بكلمة المجد. لأن الصليب هو مجد! فمع أن المسيح احتمل في زمن آلامه إهانات كثيرة بإرادته (أي أن الصليب كان في ظاهره إهانة، وليس مجداً)، لكننا نرى أن احتماله ذلك من أجل خير الآخرين، مع أنه كان في إمكانه أن لا يتألَّم، إنما هو من سمات الشفقة الفائقة والمجد الأسنى!!]<sup>(١٠٩)</sup>

(١٠٨) هذه الجملة الأخيرة جاءت هكذا في النسخة القبطية البحرية، وهي الأكثر مناسبة لسياق الكلام. أما في الترجمة الشائعة فقد جاءت «مجِّد اسمك». ويظهر من قول القديس كيرلس الذي نوردته أن النص الذي تتبعه النسخة القبطية («مجِّد ابنك») كان هو المستعمل في كنيسة الإسكندرية في أيام القديس كيرلس.

ويشرح الأب متى المسكين العلاقة بين الصليب والمجد هكذا:

[هذا هو المجد الذي أعطاه الله الآب لابن حال تجسده، أي "آلام الصليب"، لكي يفتح به المسيح طريق المجد للإنسان، ثم يُسَلَّم هذا الصليب عينه لكل من أحبَّوه وآمنوا به، لكي يبلغ الإنسان المجد بنفس الآلام التي كان قد وُضع تحتها بسبب خطيته. فبعد أن حوَّلها له المسيح إلى آلام من أجل اسمه، طاعةً لله وحبًّا للآب والمسيح، صارت له سبب مجد، بعد أن كانت بسبب خطيته. وهكذا، ومن نفس عقوبة الإنسان الأولى صنع له المسيح إكليل مجد... وهذا هو المجد الذي إذ نتحصَّل عليه، نصير مؤهلين لشركة الوحدة وسرّها]<sup>(١١٠)</sup>

إن أعظم موقف ظهر فيه المجد الإلهي كان عملية الصلب، لأنه أكثر موقف تجلَّى فيه حب الله وخيريته الفائقة وقدرته اللانهائية على البذل لتعميم الخير على الخليقة كلها. لذلك نقول في قطع الساعة السادسة التي نذكر فيها صلب الرب:

[صنعت خلاصًا في وسط الأرض كلها أيها المسيح إلهنا،

لَمَّا بسطت يديك الطاهرتين على عود الصليب،

فلذلك كل الأمم تصرخ قائلةً:

المجد لك يا رب!

(١١٠) شرح إنجيل القديس يوحنا، الجزء الثاني، ص ١٠٨٣.

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

والآن حينما يقول الرب «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» فعبارة «المجد الذي أعطيتني» تعني المجد الذي ناله المسيح في جسد بشريته لأجلنا، أي القدرة على توهّج هذا الجسد على الصليب بالحب الإلهي. والمسيح يقول إنه أعطانا نفس هذا المجد، أي نفس هذه القدرة على التوهّج بالحب الإلهي، والبذل حبًا في الآخرين.

## كيف ومتى أعطانا المسيح هذا المجد؟

سنتكلّم عن أربع وسائل أعطانا بها المسيح مجد التوهّج بالحب الإلهي.

### أولاً - بالإفخارستيا

أول وسيلة مباشرة واضحة كانت في مساء الخميس، قبل هذه الصلاة بلحظات، حيث ينطبق عليها تمامًا قوله: «قد أعطيتهم»، فقد أعطاهم جسده ودمه، بعد ما قال: «هذا هو جسدي الذي يُبذل (أو يُكسر) من أجلكم»، وأيضًا بعد العشاء: «هذا هو دمي الذي يُسفك من أجلكم»، فأعطاهم جسده المكسور، وأعطاهم دمه المسفوك. وتعمّد الرب أن يترك مسافة زمنية بين توزيع الجسد وتوزيع الدم، فالجسد كان في بداية العشاء والدم كان بعد العشاء. وكان قصد المسيح من الفصل بين الجسد والدم هو التعبير عن موته الكامل، وأنه سكب دمه حبًا فينا إلى آخر قطرة.

فبقوله «وأنا قد أعطيتهم المجد...» كان يُشير مباشرة إلى ما أعطاهم منذ لحظات، أي «أعطيتهم جسدي مكسورًا ودمي مسفوكًا، وبهما أعطيتهم القدرة على بذل الذات والتوهّج بالحب الإلهي».



لو سُمح لنا أن نعطي تشبيهاً مادياً لذلك، نقول إن الجسد والدم الإلهيين هما مثل هرمون إلهي تُحقن به أجسادنا ويتخلل دماءنا، فنأخذ منهما قوة فائقة إلهية للبذل، على مستوى ما فعل المسيح لمّا بذل جسده وسفك دمه حباً فينا! وكأن المسيح يقول: "نفس هذه القدرة على البذل التي أعطيتها لي، أيها الآب، أنا قد أعطيتها لهم في صورة الجسد المبذول والدم المسفوك، حتى إذا ما دخل فيهم هذا الجسد ودخل فيهم هذا الدم، يكونا لهم طاقة حب وبذل على مستوى ما فعلتُ أنا".

في القداس في آخر تقديس القرايين يقول الكاهن ما قاله المسيح:  
[اصنعوا هذا لذكرى] حيث المقصود من الذكرى هنا ليس مجرد ذكرى تاريخية أو رمزية، بل "ذكرى عينية"، أي أن المسيح بعينه يكون حاضراً حينما نصنع هذا لذكره.

ثم يكمل الكاهن من كلام بولس الرسول (١ كو ١١: ٢٦) الذي يضعه على فم الرب<sup>(١١١)</sup> هكذا:

[لأن كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس،  
تُبشرون بموتي...]<sup>(١١٢)</sup>

(١١١) كان الآباء يعتمدون على قول بولس الرسول «المسيح المتكلم في» (٢ كو ١٣: ٣) ليضعوا بلا حرج أقوال بولس الرسول على فم المسيح.

(١١٢) لقد أضاف التقليد الليتورجي فيما بعد [وتعترفون بقيامتي]، ثم أضافوا الصعود أيضاً في مرد الشعب. وهذا جيد ولكن ينبغي أن لا يُنسبنا أن الأصل في آية بولس الرسول كان فيه التركيز على موت الرب فقط، لأنه أعظم دليل على حبه الفائق.

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

فكل مرة نأكل الخبز المكسور ونشرب الدم المسفوك نبشّر بموت الرب. هل موت الرب شيء يُبشّر به؟؟ البشارة تكون دائمًا بخبر سار مُفرح. نحن نُبشّر بحب الرب اللانهائي الذي أحببنا به حتى مات لأجلنا. نحن نُبشّر بطاقة الحب اللانهائية التي جعلته يبذل نفسه بإرادته على الصليب حتى الموت. فعندما نأكل من هذا الخبز ونشرب من هذه الكأس، نأخذ منهما طاقة حب وبذل غير محدودة، فنشهد بسلوكنا وبحياتنا وليس فقط بكلامنا بطاقة الحب المذخرة في موت الرب، وكأن حياتنا قد صارت بشارة حية تقول: «هكذا أحب الله العالم!!»

الرسول بولس نفّذ ما قاله فأصبحت حياته بعد أن أكل من الخبز وشرب من الكأس بشارة حية بحب المسيح: «محبة المسيح تحصرنا... فبكل سرور أنفق وأنفق...» (٢ كور: ٥: ١٤؛ ١٢: ١٥).

هذه هي أوضح وسيلة أعطانا بها الرب المجد الذي أخذه من الآب، بأن سلّمنا جسده ودمه المذخّر فيهما طاقة الحب اللانهائية الموجودة فيه.

### ثانيًا - في غسل الأرجل

ثاني عمل فائق سلّمنا الرب به مجده كان أيضًا في مساء الخميس، عندما غسل أرجل التلاميذ. ذكر القديس يوحنا ذلك بعبارات مهيبه<sup>(١١٣)</sup>:

---

(١١٣) لم يذكر القديس يوحنا في إنجيله تأسيس سرّ الإفخارستيا. فمع أن إنجيله هو أكثر إنجيل قدّم لنا شرحًا وافيًا لهذا السر في الأصحاح السادس، إلا أنه اعتبر ما ذكرته الثلاثة أناجيل الأخرى عن تأسيس هذا السر كافيًا. ولكنه تعمّد أن يضع في نفس الموضوع، وبعبارات مهيبه، تسليم غسل الأرجل: «كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضًا» (يو ١٣: ١٥).

«أما يسوع قبل عيد الفصح

وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب،  
إذ كان قد أحبَّ خاصته الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتهى.  
فحين كان العشاء،

وقد ألقى الشيطان في قلب يهوذا سمعان الإسخريوطي أن يُسلمه،  
يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه،  
وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضي،  
قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة وأترز بها،  
ثم صبَّ ماءً في مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ...» (يو ١٣ : ١-٥).

ثم لم يكتفِ المسيح بما صنع ولكنه أخذ يشرح لهم ويُسلمهم هذا العمل:

«أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأنني أنا كذلك.

فإن كنتُ وأنا السيد والمعلم قد غسلتُ أرجلكم،

فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض،

لأنني أعطيتكم مثلاً،

حتى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً» (يو ١٣ : ١٣-١٥).

لاحظ أن كلمة "أعطيتكم" هنا تقابل في الآية التي نشرحها: «وأنا قد أعطيتهم

المجد الذي أعطيتني». فقد أعطانا بتسليمنا غسل الأرجل القدرة على إنكار الذات

وعلى محبة الآخرين "إلى المنتهى"، وهذا من صميم المجد بالمفهوم الروحي.

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

كذلك لاحظ التوازي بين: «...حتى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضًا»، وبين «اصنعوا هذا للذكري»<sup>(١١٤)</sup>. بذلك يقصد القديس يوحنا أن يُبرز التوازي بين تسليم غسل الأرجل وتأسيس سر الإفخارستيا. وقد وَعَت الكنيسة القبطية جيدًا قصد القديس يوحنا هذا، فوضعت طقسًا لغسل الأرجل أسمته “قداس اللّقان”، وجعلته يسير بخطوات متوازية مع قداس الإفخارستيا، بصلوات ومشايخة، حتى جعلت به أيضًا استدعاءً للروح القدس ليحل على الماء وعلينا وينقل إلينا “فضيلة المسيح”، والمقصود بها فضيلته التي جعلته يغسل أرجل تلاميذه، أي محبته “إلى المنتهى” التي بها تواضع تحت أرجل التلاميذ لخدمتهم.

في إنجيل القديس لوقا توجد آية بها نفس روح غسل الأرجل، وهي آية عجيبة جدًا، ولكننا نمر عليها عادةً بسهولة بدون أن نلاحظ القوة العجيبة المخفية فيها. إننا نقولها كل يوم في إنجيل الخدمة الثالثة من نصف الليل:

«طوبى لأولئك العبيد الذين إذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين،  
الحق أقول لكم إنه يتمنطق (أي يربط وسطه كما فعل عند غسل الأرجل)  
ويُتَكِّهُم ويتقدّم ويخدمهم» (لو ١٢: ٣٧).

أي يقول لهم: “إجلسوا أنتم وأنا أقوم وأخدمكم”.

الأمر العجيب جدًا في هذه الآية والذي يجعلها تفوق ما فعله الرب في غسل الأرجل، هو أن الرب لم يعُدْ هنا “في أيام جسده”، في أيام تواضعه وإخلائه،

---

(١١٤) في الحقيقة إن إنجيل القديس يوحنا مملوء أسرارًا تأتي في معظم الأحيان على مستوى التلميح، وعلى القارئ اللبيب أن يفهم.

ولكنه هنا يفعل ذلك وهو في أوج مجده في الملكوت!! ربما تقول إنه مجرد مثل. نعم، ولكن الرب نفسه هو الذي اختار مفردات هذا المثل. كنّا نتوقع أن يقول إنه بعد أن يتكلمهم يأمر "عبيده" (أي ملائكته) بخدمتهم، هذه تكون كافية جدًا!! ولكن كون الرب نفسه «يتمنطق» ويقوم بخدمتهم، فهذا أمر رهيب ومهول وعجيب جدًا، أكثر جدًا مما فعل في غسل الأرجل... لماذا؟ لأن المسيح هنا، في هذا المثل الذي في إنجيل لوقا، هو الرب الممجّد، هو في ملكوته حيث تُسبّح وتخدمه ألوف ألوف من القوات السمائية. فهذا المثل يُبيّن أن المسيح لن يتخلّى عن روح غسل الأرجل حتى وهو في أوج مجده في الملكوت، لأن المجد في المفهوم الروحي، كما اتفقنا، هو قدرة التوهّج بالحب الإلهي الفائق اللاهائي. فهذا المثل يُلّمح لنا أن روح غسل الأرجل ليست غريبة عن مجد الله في الملكوت. كيف؟ نحن لا نعرف، لأننا لا نعرف ماذا سيكون هناك في الملكوت، ولكن كل كلامنا عن الملكوت هو باستعارات مادية، على قدر ما تسمح به لغتنا، فأمر الملكوت كلها لم تخطر على قلب بشر، ولم تسمع بها أذن، ولا رأتها عين إنسان (١كو ٢: ٩)، ولكننا نستشفها فقط بالروح.

وبهذا التسليم، تسليم غسل الأرجل، المسيح سلّم تلاميذه وبالتالي كنيسة الدهور من بعدهم، سرّ حبه الذي بلغ «إلى المُنْتَهَى»، سلّمهم وضع الذات تحت أرجل الآخرين حبًا فيهم. هذا هو أحد معاني قوله: «المجد الذي أعطيتني قد أعطيتهم». المسيح سلّمهم هذا المجد، وأوصاهم أنهم كما فعل هو بهم، هكذا يفعلون هم أيضًا بعضهم ببعض.

## ثالثًا - بالروح القدس

وبعد ثلاثة أيام في مساء أحد القيامة، أي في أول لقاء له بتلاميذه بعد الصليب، نفخ في وجوههم قائلاً: «اقبلوا الروح القدس» (يو ٢٠: ٢٢).

ويرى بعض القديسين (مثل غريغوريوس النيسي وكيرلس الكبير) أن الروح القدس الذي نفخه الرب في وجوه تلاميذه هو "المجد" الذي قال عنه الرب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني». وهذا الرأي على جانب كبير من الرجاحة إذا اعتبرنا أن الروح القدس هو روح الحب الإلهي الناري المتأجج في قلب الرب والمنتقل منه إلى قلوب مختاريه:

+ «لأن محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المعطى لنا» (رو ٥: ٥).  
+ «ذاك يُمجدني لأنه يأخذ مما لي ويُخبركم» (يو ١٦: ١٤)، حيث كلمة "يُخبركم" هنا لا تعني مجرد يُخبركم بالكلام، ولكن يُخبركم بالخبرة الفعلية. والذي يؤكد ذلك أنه لم يقل "يسمع مما لي ويُخبركم" بل «يأخذ مما لي ويُخبركم». فلو قال "يسمع مما لي" لكان معنى "يُخبركم" هو مجرد يُخبركم بالكلام الذي يسمعه، ولكن كونه يقول "يأخذ مما لي" فهذا يُحدّد معنى "يُخبركم" بأنه يُخبرنا بالخبرة الفعلية التي يأخذها من المسيح وينقلها إلينا.

يقول القديس كيرلس الكبير:

«وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني»...

لقد أعطانا مجده الخاص لأنه ختمنا بروحه الخاص فصرنا فيه نصرخ:  
«يا أبّا الآب»<sup>(١١٥)</sup>.

(١١٥) تفسير الرسالة إلى العبرانيين ٢: ١٤

أما القديس غريغوريوس النيسي فيقول تعليقًا على هذه الآية:

«وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحدًا كما نحن واحد»  
أعتقد أن المجد الذي يقصده هنا هو الروح القدس الذي أعطاه  
لتلاميذه بالنفخ في وجوههم. لأنه لا توجد وسيلة أخرى لتوحيد  
المفترقين إلا بتجميعهم معًا في وحدة الروح القدس.

القديس غريغوريوس هنا يعتمد على الشرط الثاني من الآية «ليكونوا واحدًا كما  
نحن واحد»، ليحدد معنى المجد في الشرط الأول. فحيث إن الروح القدس هو روح  
الوحدة، وبدون الروح القدس يستحيل توحيد المتفرقين، فلا بد أن يكون هذا  
"المجد" المعطى لنا لتوحيدها هو بعينه الروح القدس. ثم يستطرد قائلاً:

«وأما أن الروح هو المجد فهذا يظهر من قول آخر قاله الرب:  
«مجدي بالمجد الذي كان لي عندك منذ البدء قبل كون العالم».  
لأن الله الكلمة الذي له مجد الآب من قبل كون العالم،  
لما صار جسداً في أواخر الأيام، كان ينبغي أن يقتني جسده أيضاً -  
بسبب اتحاده بالكلمة - كل ما هو للكلمة،  
وقد تم ذلك بأن نال الجسد ما كان للكلمة قبل كون العالم.  
وأما هذا (الذي كان للكلمة من قبل كون العالم) فهو الروح القدس،  
لأنه لم يكن شيء قبل الدهور غير الآب والابن والروح القدس.  
ولذلك يقول: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني»

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

حتى يصيروا بواسطة هذا المجد (أي الروح) متحدين بي  
وبواسطتي متحدين بك أيها الآب! <sup>(١١٦)</sup>

وهكذا استنبط القديس غريغوريوس النيسي أن المجد المقصود هو الروح القدس من ناحيتين: الأولى، مما جاء في الشطر الثاني من الآية أن هذا المجد معطى لنا ليُوَحَّدنا، فحيث إنه لا يوجد شيء قادر على توحيد المتفرقين سوى الروح القدس، إذن فالمجد المقصود يكون هو شخص الروح القدس. والأمر الثاني هو قول الابن إن هذا المجد كان له أزلًا عند الآب من قبل كون العالم، وبما أنه لم يكن هناك شيء قبل كون العالم إلا الآب والابن والروح القدس، إذن يكون هذا المجد هو الروح القدس.

ولكن لكي نفهم مطابقة "المجد" على الروح القدس جيدًا لابد أن نعتبر أن الروح القدس هو روح الحب الإلهي، هو روح النار الإلهية، كما يدعو القديس أنطونيوس: [هذا الروح الناري العظيم...]

الروح القدس هو روح الحب الناري، الذي طلب الرب أن يتأجج في بشريته في الليلة التي أُسلم فيها، قائلاً للآب: «مجد ابنك». طلبه في بشريته لتشتعل به بشريته زمنيًا على الصليب، كما أن لاهوته مشتعل به أزلًا في حضن الآب قبل كون العالم. لذلك قال:

«والآن مجّدي أنت أيها الآب (زمنيًا في بشرتي) بالمجد الذي كان لي عندك (لاهوتيًا) قبل كون العالم» (يو ١٧: ٥).

---

(١١٦) مقالة في شرح الآية «فحينئذ الابن نفسه أيضًا سيخضع» (١كو ١٥: ٢٨)  
in TLG In illud, Tunc et ipse Filius, 21.23-22.16

ويكرر نفس المعنى في شرحه لنشيد الأنشاد ٦: ٩.



هذا المجد عينه - أي الاشتعال بالروح القدس - هو الذي سلّمه لتلاميذه فور قيامته بالنفخ في وجوههم، قائلاً: «اقبلوا الروح القدس».

اقبلوا روح التوهُج بالحب الإلهي، اقبلوا الروح الناري الذي كان لي أزلماً في حضن الآب، والذي أخذته بصفة جديدة في الجسد من أجلكم، لكي أبذل به جسدي على الصليب. اقبلوه في قلوبكم واشتعلوا به حتى يمكنكم أن تصنعوا بعضكم ببعض كما صنعتُ أنا بكم. لأن هذا هو «روح المجد» (١ بط ٤: ١٤) الحقيقي الذي قبلته أنا من الآب في بشرتي لأجلكم والذي أُعطيكم إياه الآن!

#### رابعاً - بوصية المحبة

«وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا» (يو ١٣: ٣٤).

يلاحظ هنا أيضاً المطابقة بين كلمة «أعطيكم»، وبين قول الرب «وأنا قد أعطيتهم المجد...».

وصايا المسيح بها طاقة، قدرة، نعمة، قوة، تساعد الإنسان على العمل بها، وصايا المسيح تحمل في ذاتها القدرة على تنفيذها. فعندما يقول المسيح: «وصية جديدة أعطيكم»، فهو لا يقصد أن يُثقل علينا بأوامر وقوانين جديدة؛ ولكنه يقول أنا أعطيكم قدرة جديدة، إمكانية جديدة. وهذا هو الفرق بين العهد القديم والعهد الجديد، كما نقول يومياً في إنجيل باكر: «لأن الناموس بموسى أُعطي، وأما النعمة والحق فبيسوع المسيح صار» (يو ١: ١٧).

ففي العهد القديم، كان الله يُعطي أوامره مكتوبة على لوحَي العهد: افعل هذا، ولا تفعل ذاك، حتى اعترف بطرس الرسول بعجزه وعجز جميع الأجيال السابقة عن

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

حفظ الناموس: «لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله» (أع ١٥: ١٠). أمّا بولس الرسول فصرخ بلسان الرازحين تحت الناموس قبل أن يعرفوا نعمة المسيح: «ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت؟!... فإني أُسرُّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن... والإرادة حاضرة عندي وأمّا أن أفعل الحُسنى فلستُ أجِد، لأنني لستُ أفعل الصالح الذي أُریده، بل الشر الذي لستُ أُریده فإيَّاهُ أفعل» (رو ٨: ٢٤ و ٢٢ و ١٨ و ١٩). بهذا الكلام يصف بولس الرسول حال الإنسان العائش في ظل الناموس قبل أن تُشرق عليه نعمة المسيح.

وأما الآن فحينما يُعطينا المسيح وصيةً جديدةً، فهي مزوَّدة بالنعمة اللازمة لتنفيذها. فكأنه يقول: «ها أنا أُعطيكم قدرة جديدة، إمكانية جديدة، تُحِبُّوا بها بعضكم بعضًا كما أحببتكم أنا».

لذلك قلنا إن إعطاءه هذه الوصية الجديدة لنا أي هذه القدرة الجديدة التي تدفعنا لأن نُحِبَّ بعضنا بعضًا كما أحببنا، إنما هو أحد معاني قوله:

«وأنا قد أعطيتهم المجد (أي القدرة على الحب الفائق) الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد»

مراجعة: ذكرنا أربع وسائل أعطانا بها المسيح المجد الذي أخذه من الآب هي:

١. الإِفخارستيا ٢. غسل الأرجل ٣. الروح القدس ٤. وصية المحبة.

ويلاحظ في كل واحدة من هذه أنه قد ورد أحد أفعال العطاء الذي يُقابل قول الرب «وأنا قد أعطيتهم المجد...»: ففي الإِفخارستيا قال «خذوا كلوا...»، وفي غسل الأرجل «أعطيكم مثلاً»، وعند نفخ الروح القدس قال «اقبلوا الروح القدس»، وبخصوص وصية المحبة قال «وصيةً جديدةً أعطيتكم».

## كيف استوعب الرسل هذا المجد

إلى أي مدى استوعب الرسل معنى المجد بالمفهوم الروحي، وبالتحديد مجد المسيح، وكيف ينتقل إلينا؟

القديس بولس يؤكد أننا نستطيع أن نقفني مجد المسيح، بل يقول إن غاية الإنجيل كله هي أن نقفني مجد المسيح، بمعنى أن نستمد من المسيح القدرة على البذل والتوهُج بالحب الإلهي:

+ «الأمر الذي دعاكم إليه بإنجيلنا لاقتناء مجد ربنا يسوع المسيح»  
(٢ تس ٢: ١٤).

يلاحظ هنا أن غاية دعوتنا وغاية الإنجيل هي اقتناء مجد ربنا يسوع المسيح. ولكن ليس المقصود بذلك طبعاً أن الناس يسجدون لنا!! وإلا نكون قد عُذنا للمجد بالمفهوم العالمي، ليس هذا هو المقصود إطلاقاً. المجد الروحي المقصود هو مجد الحب والبذل. واقتناء مجد ربنا يسوع المسيح، هو اقتناء مجد الصليب، اقتناء القدرة على الحب والبذل.

وفي رسالته الأولى إلى تسالونيكي، يقول بنفس المعنى:

+ «لكي تسلكوا كما يحق لله الذي دعاكم إلى ملكوته ومجده» (١ تس ٢: ١٢).

كذلك بطرس الرسول يقول في رسالته الأولى:

+ «والله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع...»  
(١ بط ١: ١٠).

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

يلاحظ هنا أن كلمة "الأبدي" αἰώνιον تعني في نفس الوقت الأبدي والأزلي<sup>(١١٧)</sup>. فما هو مجد الله الأبدي الأزلي، أي الموجود قبل كون العالم؟ إنه الحب الذي بين الآب والابن. هذا الحب هو المجد الذي نحن مدعوون إليه. والقديس بطرس لم يتجرأ من نفسه أن يُقرّر ذلك، ولكنه سمع ما دفعه إلى قول ذلك من فم الرب في نفس هذه الصلاة، حيث قال في نهايتها: «ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به!» (يو ١٧: ٢٦). وطبعًا معروف أن القديس بطرس كان حاضرًا هذه الصلاة مثل القديس يوحنا. فإن كان يوحنا سجّلها كتابة، فإن بطرس استوعبها وخبأها في قلبه حتى ذكره بها الروح القدس وهو يكتب رسالته، بحسب وعد الرب: «يُدْغِرْكُمْ بِكُلِّ مَا قَلْتَهُ لَكُمْ» (يو ١٤: ٢٦).

بقية هذه الآية تقول:

«...الذي دعاكم إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع، بعد ما تألّمتُم سِيرًا، هو يُكَمِّلُكُمْ وَيُثَبِّتُكُمْ وَيَقْوِيكُمْ وَيُمْكِّنُكُمْ» (١بط ٥: ١٠).

في العهد الجديد كثيرًا ما يرتبط المجد بالألم:

«إِنْ كُنَّا نَتَأَلَّمُ مَعَهُ، لَكِي نَتَمَجَّدَ أَيْضًا مَعَهُ» (رو ٨: ١٧)،  
«أَنَا الشَّيْخُ الشَّاهِدُ لآلَامِ الْمَسِيحِ وَشَرِيكَ الْمَجْدِ الْعَتِيدِ أَنْ يُعْلَنَ» (١بط ٥: ١)،  
«رُوحُ الْمَسِيحِ الَّذِي فِيهِمْ إِذْ سَبَقَ فَشْهَدَ لآلَامِ الْمَسِيحِ وَالْأَمْجَادِ الَّتِي بَعْدَهَا» (١بط ١: ١١)،  
«أَمَّا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ الْمَسِيحُ يَتَأَلَّمُ بِهَذَا وَيَدْخُلَ إِلَى مَجْدِهِ؟!» (لو ٢٤: ٢٦)،  
«نَرَاهُ مُكَلَّلًا بِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ مِنْ أَجْلِ أَلَمِ الْمَوْتِ» (عب ٢: ٩).

(١١٧) أعطينا أمثلة لذلك في هامش (٤٦).

السبب الرئيسي والعميق لهذا الارتباط الوثيق بين الألم والمجد هو أن مضمون المجد في المفهوم الروحي هو الحب الفائق اللائق المجيد. والألم كما عاشه المسيح وكما سلّمه لنا هو تعبير عن الحب بتقديم ذبيحة حياته حباً للآب على الصليب.

فالذي ربط بين الألم والمجد هو أن الاثنين في حقيقتهما العميقة مرتبطان بالحب الإلهي: الألم تعبير عن الحب المقدم لله، والمجد في حقيقته الروحية هو التوهج بهذا الحب.

كان الألم في العهد القديم مُراً جداً، لماذا؟ لأنه كان مُرتبطاً باللعنة، بالعقوبة، فكان إحساس الإنسان المتألم أنه مغضوب عليه من الله. ولكن بعد أن تألم المسيح واحتمل هذه اللعنة طاعةً وحباً لله، تحوّل معنى الألم وصار تعبيراً عن الحب المقدم لله، وشركةً في آلام المسيح وفي شرب الكأس التي شربها المسيح. لذلك لم تُعدّ الآلام مُضطبعةً بطابع مأساوي، بل أصبحت مرتبطةً بالفرح: «أفرح في آلامي» (كو ١: ٢٤). لذلك نجد كثيراً من آيات العهد الجديد تربط بين الألم والفرح:

«احسبوه كل فرح يا إخوتي حين تقعون في تجارب متنوعة» (يع ١: ٢)،  
 «أسرُّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات» (٢ كو ١٢: ١٠)،  
 «فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حُسبوا مُستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع ٥: ٤٢)،  
 «كما اشاركتم في آلام المسيح افرحوا، لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مُبتهجين» (١ بط ٤: ١٣).

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

استعلان مجد المسيح هو أن نراه متوهجًا بالحب الإلهي، وحينئذ نصير مثله:

«إذا أظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو» (١ يو ٣: ٢)،

«حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت ١٣: ٤٣).

فإن كنت قد اشتركت في آلام المسيح؛ فافرح لكي تفرح أيضًا عند استعلان

مجده مبتهجًا؛ افرح الآن ولا تنتظر مجيء الملكوت لكي تفرح.

ولاحظ أنه تتكرر في الآية مرتين كلمة افرحوا: «كما اشركتم في آلام

المسيح افرحوا، لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضًا مبتهجين». افرحوا الأولى

تخص الزمان الحاضر، أي وأنتم مغمورون في الآلام افرحوا، والثانية هي في المجيء

الثاني.

أهمية هذه الآية أنها تُبين أنه ليس علينا أن نتألم الآن ثم غدًا، في الدهر الآتي،

يُعطى لنا أن نفرح. أي أن الفرح مؤجل للدهر الآتي بعد انقضاء رحلتنا الأرضية.

لا، هذا غير صحيح. علينا أن نفرح الآن ونحن في صميم الألم. لماذا؟ لأننا نشترك

مع المسيح في شرب الكأس التي شربها هو، فنفرح بشركة الحب مع المسيح، حتى

نفرح في الملكوت بشركة المجد معه.

+ «إن غيرتم باسم المسيح فطوبى لكم. (لماذا؟) لأن روح المجد والله

يحل عليكم» (١ بط ٤: ١٤).

+ آية أخرى فيها ينطبق المجد على الألم، إذ يقول بولس الرسول إلى أهل

أفسس: «لا تكلؤا في شدايدي لأجلكم التي هي مجدكم» (أف ٣: ١٣).

فشدائد الرسول التي يحتملها من أجل الكنائس هي مجدهم وهي فخرهم.

+ «ونحن جميعًا ناظرين مجدهم بوجه مكشوف نتغير إلى تلك الصورة

عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح» (٢ كو ٣: ١٨).

رؤية مجد المسيح كفيلة بأن تغيّرنا إلى شبه هذا المجد. ولكن متى ننظر ”مجد

الرب“؟ أكثر موقف ظهر فيه مجد المسيح كان في صليبه، لأنه أكثر موقف تجلّى فيه حبه الفائق اللاهائي.

والمسيح يشتهي أن يُسلّمنا هذا المجد بكل وسيلة:

«وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني!»

«وأنا ممجّد فيهم» (يو ١٧ : ١٠).

«متى جاء ليتمجّد في قديسيه» (٢ تس ١ : ١٠).

«ليتمجّد اسم ربنا يسوع المسيح فيكم وأنتم فيه!» (٢ تس ١ : ١٢)

هذه هي قمة مشتهانا التي نطلبها كل يوم في نصف الليل أن يُعطينا شركة

في ”مجده الإلهي الحقيقي“، أي في حبه الإلهي الفائق الأزلي:

[فانظري يا نفسي لا تنعسي،

لئلا تقفي خارجًا قارعةً مثل الخمس العذارى الجاهلات،

بل اسهري متضرّعة، لكي تلتقي المسيح الرب بدهن دسم،

ويُنعم لك بعُرس مجده الإلهي الحقيقي]

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

عودة للآية:

«أنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني لـ يكونوا واحدًا كما نحن واحد».

«ليكونوا واحدًا ivā» كيف يوحّدنا هذا المجد؟

شرحنا الآن سيكون لـ "لام التعليل" التي تربط جزئي الآية، والتي تُترجم كلمة ivā في الأصل اليوناني (وهي εἰνα في اللغة القبطية).

«وأنا قد أعطيتهم المجد... لكي ivā... يكونوا واحدًا كما نحن واحد».

إن كنّا قد فهمنا المضمون الروحي لكلمة "المجد" فمن السهل أن نفهم الارتباط بين شطري الآية.

فلو لنا المجد بهذا المفهوم الروحي، أي المحبة الباذلة، لو لنا شهوة غسل أرجل إخوتنا؛ يكون تحصيل حاصل أن نكون واحدًا. أما أي نوعية أخرى من المجد فيستحيل أن تكون عامل توحيد للبشرية، بل بالعكس تكون عامل انقسام. فالأنواع العالمية من المجد كالألقاب والكرامات والنفوذ، كلها عوامل تضخيم للذات البشرية، والذات هي بمثابة الجرثومة التي أصابت طبيعة آدم بعد الخطيئة، والتي تتسبب في كل المشاجرات والانقسامات والتحزبات والخصومات والحروب، التي قد تصل إلى أن تُبيد شعوبٌ شعوبًا أخرى!

فإن لم نفهم الجزء الأول من الآية: «وأنا قد أعطيتهم المجد...» بالمعنى الروحي للمجد، فمن المستحيل أن يستقيم معه الجزء الثاني من الآية: «ليكونوا واحدًا كما نحن».



بل على العكس نرى أن الأنواع المزيّقة من المجد التي يُرَكِّبها الشيطان تُفَرِّقنا وتجعلنا ننقسم بسببها، وكل واحد يريد أن يكون الأول ويطلب المتكأ الأول، وأن يكون كرسيه أعلى من كرسي أخيه. وقد ظهرت مثل هذه المشاجرات في الإنجيل بين التلاميذ في حياتهم الأولى. وكتبة الأناجيل كانوا صادقين ولم يُحَرِّجوا من إظهار ضعفات التلاميذ، إذ كانوا يُمَثِّلون حال الإنسان بحسب طبيعته القديمة. يذكر الإنجيل في أربع مناسبات<sup>(١١٨)</sup> مشاجرة التلاميذ على من هو الأعظم، من هو الأول، من الذي يجلس عن يمين الرب. والمسيح في كل مرة كان يُفَهِّمهم أنه «إذا أراد أحد أن يكون أولاً فيكون آخر الكل وخادماً للكل» (مر ٩: ٣٥)، و«من أراد أن يكون فيكم عظيماً فليكن لكم خادماً، ومن أراد أن يكون فيكم أولاً فليكن لكم عبداً» (مت ٢٠: ٢٦-٢٧). أما آخر مشاجرة للتلاميذ فكانت في عشاء الخميس، قبل الصليب مباشرة، وقد عاجلها المسيح بأن أعطاهم درساً لا يمكن أبداً أن ينسوه: قام عن العشاء، وأثّر بمنشفة، وابتدأ يغسل أرجلهم...! هذا كله لكي يُسَلِّمهم ”المجد“ الذي أخذه من الآب، أي القدرة على ”الحب إلى المنتهى“، الذي يبلغ إلى أن يشتهي الإنسان أن يغسل أرجل إخوته، وهكذا يصيرون واحداً بهذا المجد.

(١١٨) الأولى لما سألو السيد بسذاجة: «من هو أعظم في ملكوت السموات؟» (مت ١٨: ١-٥).

والثانية كانت لما تناقشوا في نفس الموضوع في الطريق، ولما دخلوا البيت سأهم الرب «بماذا كنتم تتكالمون؟ فسكتوا. لأنهم تحاجوا في الطريق بعضهم مع بعض في من هو أعظم» (مر ٩: ٣٣-٣٧).

والثالثة كانت لما طلب ابنا زبدي أن يجلسا واحد عن يمين الرب والآخر عن اليسار. فلما سمع العشرة اغتاظوا (مت ٢٠: ٢٠-٢٨؛ مر ١٠: ٣٥-٤٥).

والرابعة كانت في العشاء الأخير: «وكانت بينهم مشاجرة من منهم يُظن أنه يكون أكبر» (لو ٢٢: ٢٤-٢٧).

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

أما أي موهبة أخرى غير هذا المجد، فإنها لن تكون أبدًا عاملاً لتوحيد البشرية، وأوضح مثال لذلك هو ما حدث في كنيسة كورنثوس، فقد كانت هي أكثر كنيسة حصلت على مواهب متنوعة، ومع ذلك فقد كانت أكثر كنيسة فيها تحزُّبات وانقسامات. فالمواهب ليست أبدًا عاملاً للتوحيد ولتجميع البشرية بل على العكس قد تؤدي كثيرًا إلى ظهور الحساسيات والمنافسات وأن ينتفخ الأخ على أخيه. أما الموهبة الوحيدة التي تؤوّل إلى توحيد البشرية فهي هذا المجد الذي قال عنه الرب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد».

«... كما نحن واحد» καθώς

يعود هنا المسيح للمرة الثالثة للنموذج الإلهي الذي يُريده للوحدة التي يطلبها لنا: أن تكون على مثال الحب والوحدة التي بين الآب والابن. وقد سبق أن ذكره مرتين قبل ذلك:

«أيها الآب القدوس احفظهم في اسمك الذين أعطيتني،

ليكونوا واحدًا كما καθώς نحن» (١٧ : ١١).

«ليكون الجميع واحدًا،

كما καθώς أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك

ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا» (١٧ : ٢١)

وفي الحقيقة إن هذا النموذج والمثال الإلهي صار موضوع هيام الآباء القديسين الشغوفين بوحدة الكنيسة. وأول هؤلاء الآباء هو القديس إغناطيوس الأنطاكي.

كان من أكثر القديسين الحارين بالروح، المحبين للمسيح، المشتغلين بالحب الإلهي والرغبة في الاستشهاد، وكانت لديه شهوة وحدة الكنيسة، كما كان شغوفًا بمحبة الإفخارستيا: [إني أشتهي خبز الله الذي هو جسد يسوع المسيح، والشراب الذي أشتهيه هو دمه الذي هو الحب الذي لا يفنى!] (١١٩).

أما اهتمامه بوحدة الكنيسة فقد فاق سائر اهتماماته، حتى دعا نفسه [إنساناً أقامه الله من أجل الوحدة] (١٢٠). وقد سبق أن ذكرنا بعضاً مما يوصي به مختلف الكنائس بخصوص وحدة الكنيسة في سائر رسائله (١٢١)، وكيف يجب أن يتشبه الجميع في كل شيء بخضوع وحب الابن للآب. والآن نكتفي بأن نذكر فقط أهم هذه الأقوال، لأنه يُبين أن هذا القديس "الذي أقامه الله لأجل الوحدة" لا يزال يُصلي لتكون لنا "وحدة يسوع والآب":

|| [إني أمتدح الكنائس وأُصلي لتكون لها وحدة في جسد يسوع المسيح وروحه ... بل وما هو أفضل بصفة مطلقة: وحدة يسوع والآب]! (١٢٢)

إن "وحدة يسوع والآب" التي لا يزال إلى الآن القديس إغناطيوس يصلي وكل جمع القديسين معه، لتقنيها الكنائس، هي وحدة قائمة على الحب الإلهي الفائق اللائهائي الذي يُؤخذ الآب بالابن في الروح القدس من قبل كون العالم.

(١١٩) رسالة ق. إغناطيوس إلى كنيسة رومية ٧: ٣.

(١٢٠) رسالة ق. إغناطيوس إلى كنيسة فيلادلفيا: ٨.

(١٢١) انظر ص ١٢٩.

(١٢٢) رسالة ق. إغناطيوس إلى كنيسة مغنيسيا: ١.

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

يوضّح أبونا متى المسكين كيف أن الوحدة الإلهية قائمة على الحب قائلاً:

[الله واحد آب وابن، ليس واحدًا عدديًا، لأن الواحد العددي يمكن أن ينقسم نصفين، ولكنه واحد مطلق، أي واحد في ذاته، غير منقسم ولا متعدّد. لأن حب الآب للابن هو كل كيان الآب الذاتي، وحب الابن للآب هو كل كيانه الذاتي، فالذي وحّد الآب بالابن هو جهما المطلق]

(شرح رسالة يوحنا الأولى ٤ : ٩، ص ١٦١-١٦٢).

[الآب يحب الابن جدًّا حبًّا لا يمكن توصيفه، فمحبة الآب للابن ومحبة الابن للآب بالحب الإلهي المطلق هي سر وحدانية الله. فالآب والابن واحد بالحب المطلق]

(شرح رسالة يوحنا الأولى ٢ : ١٥، ص ٨٩).

فلكي تكون وحدتنا مشابهة (كما καθώς) لوحدة الآب والابن، لا بد أن تكون قائمة على الحب الإلهي.

والآية التي نشرحها اليوم تُبيّن أن المسيح أعطانا، على قدر ما تحتمل طبيعتنا، التوهّج بهذا الحب الإلهي، الذي دعاه "المجد"، لنكون واحدًا كما أنه هو والآب واحد:

«وأنا قد أعطيتهم المجد (التوهّج بالحب الإلهي) الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد».

وقد رأينا أنه أعطانا هذا "المجد" بالإفخارستيا وبالروح القدس، وبوصية المحبة،  
وبتسليمنا الحب «إلى المنتهى» بغسل الأرجل.

نطلب من المسيح إلهنا أن يُثَبِّتَ فينا هذا "المجد" كلما تناولنا من جسده ومن  
دمه، وكلما فتحنا فمنا واجتذبتنا لنا الروح القدس.

فكلما دَعَوْنَا الروح القدس قائلين: **[أيها الملك السماوي المعزي... هَلَمْ  
تَفْضُلَ وَحِلَ فينا]**، يأتي لنا الروح القدس بهذه القوة: قوة هذا "المجد"، الذي هو  
نفسه الروح القدس.

## صلاة

يا إلهنا الحبيب، يا ربنا يسوع المسيح،  
يا محب البشر الصالح؛ يا من لم تكتفِ بأن تكون ممجداً في حضن الآب،  
وتتمتع وحدك بحبه الذي لك منذ الأزل؛  
ولكنك خلقت الكون كله لكي في النهاية تخلق الإنسان كقمة الخليقة، وتجعل  
هذا الإنسان يشترك في تيار الحب المُتبادل بين الآب والابن،  
هذه هي قمة ما اشتهيته، يا رب، هذا هو منتهى قصدك من الخليقة كلها،  
والذي عبَّرت عنه في آخر لياليك على الأرض قائلاً:  
«ليكون فيهم الحب الذي أحبتني به».

ما هذا الحب، يا رب، ما هذا الذي صنعته في نفسك، ما هذه الآلام المُريرة

وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد

التي احتملتها على الصليب لكي تُسلّم لنا هذا المجد، لكي تُدخلنا معك في شركة الآب، في حضن الآب؟! نشكرك... نشكرك... نشكرك.

ما دمنا موجودين سنكون مديونين لك بدين لا نهائي،

مديونين لك إلى الأبد بالشكر والتسبيح والحب على ما صنعته حبًا فينا،

إلى الأبد سنبقى مع ألوف الألوف الذين حولك نقول معهم:

قدوس قدوس قدوس مستحق أنت أن تأخذ المجد والكرامة إلى الأبد،

لأنك ذُبحْتَ واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة،

وجعلتنا ملوكًا وكهنة لله أبليك.

ربنا الحبيب، اجعلنا نعيش هذا الزمان الباقي لنا على الأرض،

لا نكف ليلاً ونهارًا، عن الشكر على ما أعطيتنا.

بشفاعة جميع آبائنا القديسين الذين عاشوا ملتصقين بهذا المجد وبهذا الحب.

أعطنا نفس القوة التي كانت لهم، بالروح القدس الذي يأخذ مما لك وينقله

إينا.

بشفاعة دم ابنك وحيدك يسوع الذي قدّمه لك بعد أن صلّى بهذه الصلاة

المملوءة بالطلبات الروحية يشفعها بدمه،

استجب لنا أيها الآب، حينما نُقدّم لك هذه الصلاة التي صلاّها ونقول لك

أيها الآب: أبانا الذي في السموات...

## «أنا فيهم وأنت في ليكونوا مكملين إلى واحد»

تكلمنا في المرتين السابقتين عن أول طلبتين طلبهما المسيح من أجل وحدة المؤمنين به، في ختام صلاته في إنجيل يوحنا ١٧.

كانت الطلبة الأولى: «كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك، ليكونوا هم أيضًا واحدًا فينا» (٢١ع).

وكانت الطلبة الثانية: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحدًا كما نحن واحد» (٢٢ع).

واليوم تأملنا سيكون في الطلبة الثالثة:

«أنا فيهم وأنت في ليكونوا مكملين إلى واحد» (٢٣ع).

«أنا فيهم...»

عبارة: «أنا فيهم»، يقولها الرب من واقع الوضع الجديد الذي صار فيه منذ لحظات، إذ وزّع جسده على التلاميذ، ومن خلاهم على جميع كنائس العالم. لذلك يحق له أن يقول بطريقة واقعية: «أنا فيهم». وقد سبق الرب وتكلم عن وجوده فينا قائلاً: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦).

أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكملين إلى واحد

والقديس كيرلس يُكرّر كثيراً أن المسيح يحل فينا بوسيلتين<sup>(١٢٤)</sup>:

الأولى الإفخارستيا: أي حلول جسده ودمه فينا.

والثانية حلول الروح القدس فينا، وذلك لأن الروح القدس هو «روح المسيح»  
(رو ٨: ٩)، ولذلك يقول ق. كيرلس الكبير:

|| [بواسطة الروح القدس نحن نقنّي المسيح ساكنًا ومتداخلاً فينا]<sup>(١٢٥)</sup>.

|| [فالذي يوحدنا بالمسيح مخلصنا إنما هو روحه القدوس]<sup>(١٢٦)</sup>.

وهذه الحقيقة قد سبق أن قرّرها القديس يوحنا في رسالته الأولى:

|| «بهذا نعرف أنه يثبت فينا: من الروح الذي أعطانا» (١ يو ٣: ٢٤).

|| «بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه»  
(١ يو ٤: ١٣).

وأيضًا القديس بولس:

|| «أن تتأيدوا بالقوة بروحه في الإنسان الباطن، ليحلَّ المسيح بالإيمان  
في قلوبكم» (أف ٣: ١٧).

ويقول أيضًا القديس كيرلس إن السبب في إعطائنا وسيلتين لتتحد بالمسيح  
يرجع إلى أن كيان الإنسان مزدوج، يتكوّن من جسد وروح، ولذلك أعطانا المسيح

---

(١٢٤) أقواله في ذلك معروضة في مقال بعنوان "الروح القدس والإفخارستيا، وسيلتان إلهيتان لتوثيق علاقتنا

الكيانية بالمسيح" في كتاب "الروح القدس الرب المُحيي" للأب متى المسكين.

(١٢٥) تفسير ٢ كو ٢: ١٥ PG 74, 925C; Pusey 3.329.17-18

(١٢٦) تفسير يوحنا ١: ١٥ PG 74, 333A; Pusey 2.534.12-13



الإفخارستيا لنكون معه جسدًا واحدًا، وأعطانا الروح القدس الذي نفخه في وجوه تلاميذه، والذي نأخذه نحن في المعمودية، لنكون معه روحًا واحدًا.

ويلاحظ أننا في كل صباح في صلاة باكر نقول جزءًا من رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس: «... جسدًا واحدًا وروحًا واحدًا كما دُعيتُم في رجاء دعوتكم الواحد» (أف ٤: ١-٦). الكنيسة رُتبت أن نقول هذه القطعة في كل صباح لكي يبدأ الإنسان يومه بمشاعر الجسد الواحد والروح الواحد مع بقية أعضاء الكنيسة. ولكن ما هو المقصود من ”رجاء دعوتكم الواحد“؟

رجاء دعوتنا هو ما تؤول إليه دعوتنا، وهو أن نصير ”مكمّلين إلى واحد“، كما تقول الآية التي نشرحها اليوم. هذه هي الغاية التي من أجلها خلّقنا بل والتي من أجلها خلّق العالم كله (انظر أف ١: ١٠ و٩).

### «أنا فيهم»

في الحقيقة هذا هو السر الأعظم في الحياة المسيحية. وعلى أساسه تأسست الكنيسة. فالكنيسة قائمة الآن على وجود المسيح فينا. والقديس بولس يقول عن هذه الحقيقة، إنها هي السر المجيد، بل والغني في المجد:

«الذين أراد الله أن يُعرّفهم ما هو غنى مجد هذا السر في الأمم،

الذي هو: المسيح فيكم رجاء المجد!!» (كو ١: ٢٧).

فوجود المسيح فينا هو السر الغني في المجد، الذي يريد الله أن يُعرّفنا مقدار غنى مجده.

ولكن ما هو المقصود من «رجاء المجد»؟ المسيح فينا هو رجاء «المجد

العتيد أن يُستعلنَ فينا» (رو٨: ١٨) في الملكوت، كما وعدنا الرب: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت١٣: ٤٣). فالمسيح فينا الآن هو عربون هذا المجد، عربون خيرات الملكوت. ونحن ننال هذا العربون أساساً بالإفخارستيا، كما يقول ساويروس بن المقفع: [إن القربان هو عربون ثمار ملكوت السموات التي يحيا بها المؤمن هناك]<sup>(١٢٧)</sup>. ويُعطي في ذلك تشبيهاً أنه كما أحضر يشوع بن نون وكالب بن يفنة عناقيد عنب فاخرة من أرض الموعد لكي يُشجّعوا شعب الله في جهادهم للدخول إلى تلك الأرض؛ هكذا الله يعطينا ونحن في صميم هذا الدهر عربون ثمار الملكوت لكي يُشجّعنا في جهادنا لدخول الملكوت. فالإفخارستيا، أي وجود المسيح فينا، هي عربون المجد العتيد أن يُعلن فينا.

### «أنا فيهم»

هذا كان سبب فرح المسيحيين الأوائل وتحليلهم المتواصل ليلاً ونهاراً: إحساسهم الواقعي بوجود المسيح فيهم. لم يكن ذلك على مستوى الفكر أو على مستوى العقيدة أو المعرفة النظرية، بل على مستوى الواقع المُعاش:

المسيح فينا؟ إذن «فلنفرح ونتهلل ونعطه المجد، لأن غرس الخروف قد جاء وامرأته هيأت نفسها» (رؤ١٩: ٧).

المسيح فينا؟ إذن «فمجدّوا الله في أجسادكم وأرواحكم التي هي لله» (١كو٦: ٢٠)<sup>(١٢٨)</sup>.

---

(١٢٧) "الدرُّ الثمين في إيضاح الدين"، المقال الثالث: "التجسد والفداء في سفر يشوع بن نون".

(١٢٨) قبل هذه الآية قال: «ألستم تعلمون أن أجسادكم هي أعضاء المسيح؟... أم لستم تعلمون أن جسديكم هو هيكل للروح القدس؟» (١كو٦: ١٩و١٥).

المسيح فينا؟ إذن «لِنُظْهِرْ ذواتنا من كل دنس الجسد والروح، مُكَمِّلِينَ القداسة في خوف الله» (٢ كو ٧: ١) (١٢٩).

المسيح فينا؟ إذن «لتهتم الأعضاء اهتمامًا واحدًا بعضها لبعض ... لكي لا يكون انشقاق في الجسد» (١ كو ١٢: ٢٥).

«المسيح فينا»، هو أساس كل الحياة المسيحية.

«المسيح فينا»، هو أساس ومنبع كل فضيلة وتقويم كل سلوك.

هو أساس طهارة الجسد والبعد عن كل نجاسة (اقرأ ١ كو ٦).

وهو أساس محبة الإخوة وحفظ وحدانية الروح في الكنيسة (اقرأ ١ كو ١٢).

فلم يكن عند القديس بولس ولا عند سائر الرسل شيء اسمه أخلاقيات مُجَرَّدَة؛ بل كل تعاليمهم الأخلاقية نابعة من هذه الحقيقة الأساسية: أن المسيح فينا، فإذا كان المسيح فيك، فاحذر من الخطيئة، لأنك صرت للمسيح. جسدك لم يَعدْ لك، أعضاؤك هي له. كذلك لا يصح أن تتشاجروا لأن أعضاء الجسد الواحد لا يمكن أن تنقسم!

«المسيح فينا» هو الدافع لكل تقدُّم في الحياة الروحية إلى أن نصير "قديسين وبلا لوم قدام الآب في المحبة".

«المسيح فينا» هو رجاء المجد العتيق أن يُستعلن فينا: «المسيح فيكم رجاء المجد!»

وبالنهاية «المسيح فينا» هو الضمان الإلهي لوصولنا إلى كمال وحدتنا مع الله ومع بعضنا البعض في الله. يمكن اختصار الآية هكذا:

«أنا فيهم... ليكونوا مكَمَّلِينَ إلى واحد»

---

(١٢٩) قال قبل هذه الآية: «فإنكم أنتم هيكل الله الحي كما قال الله إني سأسكن فيهم... فإذ لنا هذه المواعيد أيها الأحباء لنُظْهِرْ ذواتنا...» (٢ كو ٦: ١٦، ٧: ١).

أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكملين إلى واحد

### «المسيح فينا» حقيقة لا تُمحي

هذه الحقيقة نأخذها منذ بداية حياتنا في سر المعمودية:

«لأن كلَّكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غل ٣: ٢٧).

فبعد المعمودية يتمتع أن يقول أحدٌ إن المسيح ليس فيه، أو إن المسيح يكون في المتقدمين روحياً والقديسين فقط، أمّا أنا فمبتدئ وخاطئ... إلى آخر هذه الخدع التي يحاول بها الشيطان أن يجعلنا نتكرَّ لوجود المسيح فينا، لأن هذا أهم سلاح لنا ضده.

لمن يقول مثل ذلك نسأل: هل أنت اعتمدت أم لا؟ إذا كنت قد اعتمدت، فلماذا تُنكر معموديتك؟!

لاحظ أن المعمودية لا تُمحي، فحتى لو فرضنا أن شخصاً أنكر المسيح وعمل ما لا يعمل، ثم بعد ذلك جاء تائباً، فإن الكنيسة لا تُعمّده ثانية. قد يُعطى قانون توبة، ولكن معموديته قائمة لم تُمَح، فحتى لو استطاع هو أن يكشف الصليب من على يده فإن ختم المعمودية داخل قلبه لم ولن تستطيع أي خطيئة أو إنكار أن تكشطه.

فمهما زاد شرُّنا، مهما تفنَّنا في الخطيئة، فإن المسيح فينا، لا يمكن أن يُمحي ختمه منا. قد نُحزنه أو كما تقول الرسالة إلى العبرانيين، قد “نصلبه ثانية” أو قد “ندوس ابن الله”، قد نُشهيه أي نفضحه أمام غير المؤمنين؛ ولكن لا يمكن أبداً أن نُلغي هذا الختم أو هذه السمة التي لا تُمحي التي أخذناها في المعمودية. ففي قانون الإيمان كما نُقرُّ بإيماننا بالآب وبابن وبالروح القدس، ثم بكنيسة واحدة مقدَّسة جامعة رسولية؛ هكذا أيضاً نؤمن بمعمودية واحدة، بمعنى أن المعمودية لا تُكرَّر. إذاً «المسيح فينا» حقيقة لا يمكن أن تُخطف أو تُنزع منّا أبداً.

يقول الرسول: «أم لستم تعرفون أنفسكم أن يسوع المسيح هو فيكم إن لم تكونوا مرفوضين؟» (٢كو ١٣: ٥). أي أنه لا يجوز أن تقولوا إن المسيح ليس فيكم، إلا إذا لم تكونوا مسيحيين على الإطلاق، ولم تدخلوا الإيمان. أما إذا كنتم غير مرفوضين، فإن المسيح فيكم بكل تأكيد.

### «المسيح فينا» عند المسيحيين الأوائل

قلنا إن حقيقة «المسيح فينا» كانت هي سبب فرح وتحليل المسيحيين الأوائل. ومن أكثر الآباء الأوائل الذين تمسكوا بهذه الحقيقة القديس إغناطيوس الأنطاكي. ففي مطلع كل واحدة من رسائله السبع يُقدّم نفسه هكذا: "إغناطيوس الثيوفوروس"، أي الحامل للإله. ولم يكن اعتزازه بهذا اللقب نوعاً من الفخر الشخصي أو من تمييز نفسه عن الآخرين، بل دليل أنه كان يُطلق هذا اللقب بل وأكثر منه على المؤمنين الذين كان يرأسهم، فقد كان يعتبر أن هذه هي الحالة العادية لكل المؤمنين بالمسيح. فهو يكتب إلى أهل أفسس (٩: ٢):

[إنكم جميعاً شركائي في الطريق، حاملين الإله θεοφόροι ، حاملين هيكَل الله ναοφόροι ، حاملين المسيح χριστοφόροι ، حاملين القدوس ἁγιοφόροι ]

وإلى كنيسة مغنيسيا (١١):

[فإن لكم في أنفسكم يسوع المسيح  
[Ἰησοῦν γὰρ Χριστὸν ἔχετε ἐν ἑαυτοῖς ]

وأيضاً إلى كنيسة مغنيسيا (١٤):

[أنا أعلم أنكم مملوون بالله ὅτι Θεοῦ γέμετε ]

أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد

«أنا فيهم» هي أساس مسيحيتنا، فكوننا نقول إن هذا الإنسان مسيحي معناها أنه حامل للمسيح.

«أنا فيهم» هو سر وحدتنا

إن كان المسيح فيّ وفيك في نفس الوقت، وهو واحد وغير قابل للانقسام (١ كو ١: ١٣)؛ إذن لابد أن نكون كلانا «واحدًا في المسيح» (غل ٣: ٢٨).  
يقول بهذا المعنى القديس أنثاسيوس:

|| [حينما نتناول نحن جميعًا منه هو بعينه نصير جميعنا جسدًا واحدًا،  
إذ يكون الرب الواحد فينا] (١٣٠).

لقد أسّس المسيح هذا السر - «ابتكره بحكمته ومشورة الآب» بحسب تعبير القديس كيرلس الذي ذكرناه (١٣١) - ليكون هو سر وحدة كنيسته وضمن استمرار وحدتها عبر الأجيال على الرغم من كل ما يمكن للزمن أن يجور به على الكنيسة من مظاهر الانقسام...

ومنذ العصر الرسولي والكنيسة وعت جيدًا قصد المسيح الأساسي من تأسيس هذا السر:

|| «فإننا نحن الكثيرين خبزٌ واحدٌ، جسدٌ واحدٌ،  
لأننا جميعنا نشترك في الخبز الواحد» (١ كو ١٠: ١٧).

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم تعليقًا على هذه الآية:

[كما أن الخبز يصير واحدًا من حَبَّات كثيرة مجتمعة، حتى أن الحَبَّات لا تكون ظاهرة مع أنَّها موجودة، لأن الفرق بينها غير واضح بسبب الاتحاد، هكذا نحن أيضًا نتحد بعضنا مع بعض ومع المسيح. لأنك لا تأكل أنت من جسدٍ وغيرك من جسدٍ آخر، بل الجميع يأكلون من الواحد بعينه]<sup>(١٣٢)</sup>.

ولم تخلُ أيُّ من الليتورجيات القديمة من طلب تحقيق وحدة الكنيسة على مثال اتحاد حبات القمح في الخبز الواحد الذي صار جسدًا للرب. فتقول الديداعي:

[كما أن هذا "المكسور" (أي الخبز المكسور وهو أقدم اصطلاح للإفخارستيا) كان مُبَعَثَرًا على الجبال، وصار واحدًا عندما اجتمعت συναχθέν أجزاءه، هكذا فلتكن كنيستك مجموعة συναχθήτω من أقاصي الأرض للدخول إلى ملكوتك]<sup>(١٣٣)</sup>.

وكذلك قداس القديس سيرايون (الذي كان معاصرًا للقديس أنثاسيوس).

[كما أن هذا الخبز الذي كان فيما سبق مُبَعَثَرًا على الجبال، قد انجمع συναχθείς ليصير واحدًا، هكذا اِجْمَع σύναξον كنيستك المقدسة

من كل جنس وكل أمة وكل مدينة وكل قرية وكل بيت، واصنع منها كنيسةك الواحدة الحية الجامعة<sup>(١٣٤)</sup>.

وقداس المراسيم الرسولية:

[أنت يا ملكنا الضابط الكل، يا الله الأبدي مثلما كان هذا القمح مفترقاً ثم اجتمع συναχθέν وصار خبزاً واحداً، هكذا اجمع συνάγαγε كنيسةك من أقاصي الأرض إلى ملكوتك]<sup>(١٣٥)</sup>.

والقداس العريق الذي وُجد في مخطوط دير البلايزة (القرن السادس) يقول:

[وكما كان هذا الخبز مبعثراً على الجبال والآكام والحقول ثم امتزج معاً فصار جسداً واحداً، وكما أن هذه الخمر النابعة من كرمة داود الحقيقية وهذا الماء الذي من حمل بلا عيب امتزجا معاً فصارا سراً واحداً، هكذا اجمع επισύναξον كنيسة يسوع المسيح الجامعة!]<sup>(١٣٦)</sup>

(١٣٤) قداس سيرايبون BEΠ 43, 77

(١٣٥) قداس المراسيم الرسولية ٧: ٢٥ In TLG Constitutiones apostolorum 7.25.10-12

وله ترجمة إنجليزية في ANF VII, 470 ويقابله قداس الدسقولية العربية ٣٦: ٢٨.

(136) *An Early Euchologium: The Dêr-Balizeh Papyrus* (Bibliothèque du Muséon 23), 1949, p. 26.

والقدّيس أناسيوس قد نقل هذه الصلاة من مجال الممارسة الليتورجية إلى مجال الممارسة اليومية كصلاة تُقال قبل الأكل، ففي وصاياه للعداري يقول: [ومتى جلست على المائدة وأقبلت على كسر الخبز، ارشميه ثلاث مرات بعلامة الصليب، واشكري هكذا قائلة: «نشكرك يا أبانا على القيامة المقدسة التي أعلنتها لنا يسوع فتاك. وكما كان هذا الخبز الذي على هذه المائدة مبعثراً ثم اجتمع وصار واحداً، هكذا فلتجتمع كنيسةك من أقطار الأرض إلى ملكوتك، لأن لك القوة والمجد إلى دهر الدهور. آمين»] PG 28,265



كذلك كثير من الآباء لاحظوا قصد المسيح من اختيار خبز مكوّن من حبات كثيرة وخمر مكوّنة من عصير عناقيد كثيرة ليحملهما سر جسده ودمه، الذي هو سر وحدتنا في المسيح. فيقول القديس كبريانوس:

[حينما يدعو الرب جسده خبزًا مكوّنًا من حَبّات كثيرة، فهو يُشير بذلك إلى وحدة شعبنا؛ وحينما يدعو دمه خمرًا من نتاج عناقيد كثيرة من العنب صارت شرابًا واحدًا، فهو يعني بذلك أن قطيعنا مكوّن من كثرة تحوّلت إلى وحدة]<sup>(١٣٧)</sup>

ويكرّر القديس أوغسطينوس نفس المعنى:

[إذن فبالحق، كما فهم ذلك رجال الله الذين سبقونا<sup>(١٣٨)</sup>، قد وضع ربنا يسوع المسيح جسده ودمه أمام أذهاننا بأشياء تحوّلت من كثرة إلى وحدة، إذ أن وحدة واحدة قد تكوّنت من عدة حَبّات قمح معجونة معًا، وكذلك وحدة واحدة صارت من عدة حَبّات عنب معصورة معًا]<sup>(١٣٩)</sup>.

لقد أسّس الرب هذا السر ليكون سر "الكثرة التي تحوّلت إلى وحدة"، أي سر وحدة كنيسته، ليحفظها واحدةً عبر الدهور على الرغم من كل ما يمكن للزمن أن يجور عليها. وهكذا سلّمه لرسله الاثني عشر، وهم سلّموه للكنائس التي أسّسوها. فطالما هذا السر ممارَس بالروح والحق في الكنائس التي أسّسها الرسل، فهو يربطها

(١٣٧) رسالة ٢٩: ٥: ٢.

(١٣٨) يقصد القديس كبريانوس الذي ذكرنا قوله بهذا المعنى، والذي كان أسقفًا قبله في شمال أفريقيا.

(١٣٩) شرح إنجيل يوحنا، مقالة ٢٦: ١٧.

أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكملين إلى واحد

معاً في وحدة عميقة غير منظورة، على الرغم من كل مظاهر الانقسام التي يمكن أن تطرأ عليها من الخارج. فهي في حقيقتها تُشبه قرابة منقسمة بحسب الظاهر، ولكنها واحدة بحسب الجوهر، لأن جوهرها واحد وهو المسيح نفسه غير القابل للانقسام!

اسمع ما يقوله القديس كيرلس الكبير:

فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْصَلَ وَيَفْصِمَ مِنْ هَذَا الْإِتِّحَادِ الطَّبِيعِيِّ  
أُولَئِكَ الَّذِينَ ارْتَبَطُوا بِالْوَحْدَةِ فِي الْمَسِيحِ بِهَذَا الْجَسَدِ الْمُقَدَّسِ الْوَاحِدِ؟!  
لَأَنَّا إِنْ كُنَّا كُلُّنَا «نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ» (١ كو ١٠: ١٧)،  
فَإِنَّا نَكُونُ جَمِيعًا جَسَدًا وَاحِدًا بِالْتِمَامِ،  
لَأَنَّ الْمَسِيحَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْقَسِمَ! <sup>(١٤٠)</sup>

حقاً «المسيح فينا» هو سر وحدتنا غير القابلة للانقسام، لأنه هو غير قابل للانقسام. فهو بسبب لاهوته له في ذاته سر الوحدة الجوهرية غير القابلة للانقسام، فحينما يحل فينا فهو يكون «رباط وحدتنا» غير القابلة للانقسام. ولذلك يستطرد القديس كيرلس قائلاً:

فَالْمَسِيحُ فِي الْوَاقِعِ هُوَ رِبَاطُ الْوَحْدَةِ  
ὁ τῆς ἐνότητος σύνδεσμος  
بسبب كونه في آن واحد إلهًا وإنسانًا <sup>(١٤١)</sup>

(١٤٠) شرح إنجيل يوحنا ١٧: ٢٠ و ٢١-٢٤ Pusey 2.735.19-24 P.G. 74, 560;

(١٤١) شرح إنجيل يوحنا ١٧: ٢٠ و ٢١-٢٤ Pusey 2.736.20-21 P.G. 74, 560;

«أنا فيهم وأنتَ فيَّ...»

المسيح يقول «وأنتَ فيَّ»، لأن «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤ : ٩)،  
ولأني «أنا في الآب والآب فيَّ» (يو ١٤ : ١٠)،  
ولأني «أنا والآب واحد» (يو ١٠ : ٣٠).

فبقوله «وأنتَ فيَّ» يؤكد الرب أنه فينا بكل قوة وحدته مع الآب، هذه الوحدة التي هي أقوى قوة في الوجود والقادرة وحدها أن تتغلب على كل انقساماتنا.  
وكأنه يقول: «أنا فيهم بكل قوة الوحدة السريّة الإلهية الفائقة التي لا تنفصم التي تربطني بك أيها الآب، ليكونوا مكتملين إلى واحد بفعل هذه الوحدة الإلهية الفائقة التي بيني وبينك، والتي حلّت فيهم بسبب حلولي فيهم وأنتَ فيَّ».  
ويقول القديس هيلاري أسقف بواتييه:

[لقد وُحِدَ المسيح طبيعة جسدنا مع طبيعة كيانه الإلهي

في سر جسده الذي يناولنا إياه.

وهكذا نحن جميعًا واحد، لأن الآب في المسيح والمسيح فينا.

إذ أن حلول الآب في المسيح، والمسيح فينا

هو الذي يجعلنا واحدًا في الآب وفي الابن.

فنحن حينما نأكل جسده في السر المقدس

نصير بذلك واحدًا بسبب أن الآب فيه وأنه هو فينا]<sup>(١٤٢)</sup>.

أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد

يُلاحظ في هذا القول أن القديس هيلاري يُكرّر إلى ثلاث مرات أن حلول الآب في المسيح والمسيح فينا هو سبب وحدتنا. فحينما تحل فينا قوة الوحدة التي بين الآب والابن، فهذه الوحدة الفائقة اللاهائية تتغلب على اختلافاتنا وانقساماتنا. لو قلنا إن المسيح فينا وحده، أو إنه فينا بجسده فقط بدون لاهوته، فإننا لا ننتفع شيئاً «الجسد لا يفيد شيئاً... الروح هو الذي يُحيي» (يو: ٦: ٦٣). ولكن الواقع هو أن جسد المسيح فينا غير منفصل عن لاهوته "لحظة واحدة ولا طرفة عين"، ولاهوته لا ينفصل عن الآب. فقوة وحدة المسيح بالآب، حينما تحل فينا، هي التي تجعلنا «مكملين إلى واحد».

ويُلاحظ أن الرب قال: «أنا فيهم وأنت فيّ». ولم يقل: "أنا فيهم وأنت أيضاً فيهم". ما قاله المسيح أقوى جداً. المسيح فينا والآب فيه، معناه أن المسيح فينا بكل قوة وحدته اللاهائية بالآب، فليس الآب والابن فينا اثنين متوازيتين، ولكن الآب في الابن والابن فينا. هذه الطاقة الوحدوية التي بين الآب والابن هي التي تجعلنا مكملين إلى واحد.

ويقول القديس غريغوريوس النيسي تعليقاً على هذه الآية:

«[أنا فيهم وأنت فيّ - لأنني أنا وأنت واحد -

ليكونوا مكملين إلى واحد».

أعتقد أن شرح هذه الآية يتوافق مع معنى الآية السابقة،

أي «ليكونوا واحداً كما نحن واحد»،

لأنه يستحيل بوسيلة أخرى أن يصير الجميع واحداً كما نحن واحد

إِلَّا بَأَنْ يَتَخَلُّوا عَنْ كُلِّ مَا يُفَرِّقُهُمْ،

وَيَتَّحِدُوا بَنَا نَحْنُ الَّذِينَ وَاحِدٌ، لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ.

كيف يصير ذلك؟ «لأنني أنا فيهم»، ولا يمكن أن أكون وحدي فيهم،

ولكن بالتأكيد معك أنت أيضاً، أيها الآب، لأنني أنا وأنت واحد.

وهكذا يصيرون مكملين إلى واحد أولئك الذين صاروا مكملين فيّ،

لأننا نحن واحد! <sup>(١٤٣)</sup>.

وبهذه الجملة الأخيرة «لأننا نحن واحد» يؤكّد القديس غريغوريوس أن وحدة

الآب والابن هي العامل الفعّال الذي يُنشئ وحدتنا نحن حينما يحلّ فينا الابن

والآب فيه. وهذا هو المعنى العميق المتضمّن في قول الرب.

وهذا يُذكّرنا بقول القديس إغناطيوس الذي ذكرناه:

[إني أمتدح الكنائس وأصليّ لتكون لها وحدة في جسد يسوع المسيح وروحه

... بل وما هو أفضل بصفة مطلقة: وحدة يسوع والآب!] <sup>(١٤٤)</sup>

إن وحدة يسوع والآب التي يتمنّاها القديس إغناطيوس للكنائس هي طاقة

فائقة لانهاية تفوق كل ما يوجد في هذه الخليقة. هي وحدة لا مثل لها في الطبيعة

المخلوقة، هي وحدة كيانية، وحدة حلول متبادل: الآب في الابن والابن في الآب،

هي وحدة غير قابلة للانفصال.

---

(١٤٣) مقالة في شرح الآية «فحينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع» (١ كور ١٥: ٢٨)

In TLG In illud, Tunc et ipse Filius, 22.18-23.8

(١٤٤) رسالة إغناطيوس إلى كنيسة مغنيسيا: ١.

نقول إن هذه الوحدة بطاقتها اللاهائية عندما تحل فينا تجعلنا «مكملين إلى واحد»، تعطينا كمال الوحدة.

لكي نستطيع أن نتخيّل قليلاً عدم محدودية هذه القوة الإلهية المهولة، قوة الوحدة التي بين الآب والابن؛ يكفي أن نعتبر أنها تفوق بلا قياس كل الطاقات المخلوقة الموجودة في هذا الكون. لو تأملنا الشمس، نجد أن حجمها يفوق حجم الأرض مليون مرة، والضوء المنبعث منها ناتج عن انفجارات نووية مستمرة، ولو علمنا أن هذه الشمس هي واحدة من ٢٠٠ مليون نجمة في مجرتنا وحدها، عدا ما يوجد في ملايين من المجرات الأخرى... يتوه العقل ويتوقّف عن ملاحقة عظمة هذه الخليقة التي خلقها الله. ثم يعود ويعتبر أن هذه الخليقة التي تفوق تصوّرنا لا تُعطينا إلا صورة باهتة ومصعّرة جدّاً عن لاهائية الله الذي خلقها!

والإنجيل نفسه يدعونا لأن نرتقي من التأمل في الخليقة إلى التأمل في عظمة الله خالقها:

«السموات تُحدّث بمجد الله والفلك يُخبر بعمل يديه» (مز ١٩ : ١).

«فبمن تُشبهونني فأساويه يقول القدّوس. ارفعوا إلى العلاء عيونكم وانظروا من خلق هذه؟ من الذي يُخرج بعددٍ جندها (أي النجوم) يدعو كلها بأسماء؟ لكثرة القوة وكونه شديد القدرة لا يُفقد أحدٌ» (إش ٤٠ : ٢٥ و٢٦).

نريد أن نقول إن هذه القوة غير المحدودة التي تفوق تصوّرنا، قوة الوحدة التي توحد الآب والابن، هي ضمان وصولنا إلى كمال وحدتنا في المسيح: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد».

قول أخير للقديس كبريانوس:

«[إن أفضل ذبيحة تُقدَّم لله هي تآلف الشعب  
بفعل وحدة الآب والابن والروح القدس] (في الصلاة الربانية ٣٤).

القديس كبريانوس هنا لا يطلب فقط أن نكون واحدًا؛ ولكنه يطلب الوحدة  
بفعل وحدة الآب والابن والروح القدس. فحينما نكون واحدًا بهذه الوحدة الموجودة  
في الثالوث، نكون قد قدّمنا أعظم ذبيحة يُمكن أن تُسرَّ الله.

«... ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحد»

عبارة: «مُكَمَّلِينَ إلى واحد»: هي ترجمة عربية دقيقة للأصل اليوناني:

ἵνα ὅσιν τετελειωμένοι εἰς ἓν

وهنا ملاحظتان لغويتان لهما دلالة روحية هامة. فالوضع الأسهل كان أن يقول  
الرب: «ليكونوا كاملين في الوحدة» ولكنه قصد أن يقول «مُكَمَّلِينَ إلى واحد»،  
حيث نلاحظ:

١ - كلمة: «مُكَمَّلِينَ τετελειωμένοι»، فعل مبني للمجهول، القصد منه  
أن يُبين أن وصولنا إلى كمال الوحدة لا يعتمد على إمكانياتنا الشخصية أو  
اهتمامنا أو نشاطنا أو لباقتنا، ولكن كمال وحدتنا ناشئ ونابع من قوة تفوق تمامًا  
كل إمكانياتنا، هي قوة الله، قوة حلول المسيح فينا والآب فيه، أي قوة الوحدة  
الإلهية التي بين الآب والابن.

لذلك فإن وحدة الكنيسة ليس في مقدورنا أن نصنعها نحن بإمكانياتنا؛ ولكننا  
نستقبلها من فوق من عند الله «أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله»

(رؤ ٢: ٢)؛ «وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله، ولها مجد الله...» (رؤ ٢١: ١٠ و ١١). فهي نعمة كل المطلوب منَّا أن نستقبلها، أن نفتح لها، نفتح لطاقات الوحدة اللانهائية الآتية إلينا من عند الآب والابن، نفتح لقوة الوحدة التي بين الآب والابن.

فكلمة «مُكَمِّلِينَ» تبيِّن أن الاعتماد الأكبر في موضوع الوحدة هو على النعمة وليس علينا. وتُقابلها في صلاة الرب لأجل تقدسنا عبارة «مقدِّسين في الحق»، التي فيها أيضًا فعل مبني للمجهول. فقد قال الرب «ولأجلهم أقُدِّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضًا مقدِّسين في الحق»، مظهرًا بذلك أن الاعتماد الأكبر في عملية تقدسنا لا يقع على جهادنا نحن، ولكن على مدى استقبلنا للتقدس الذي أكمله الرب في نفسه لأجلنا، وهذا هو المقصود من "نعمة المسيح"، فنعمة المسيح هي كل ما حقَّقه الرب في نفسه في الجسد لأجلنا، ومن ثم يمتد منه إلينا. فالقداسة هي أن نستقبل من المسيح طاقات التقديس التي بها قدِّس ذاته لأجلنا.

٢- «إلى واحد εἰς ἓν»: فهو لم يقل: "ليكونوا كاملين في الوحدة"، وكأن كمال الوحدة أمر يمكن أن نحصل عليه ونتوقَّف عنده في وضع استاتيكي غير متحرك. لم يُقلْ ذلك بل قال: «ليكونوا مكملين إلى واحد»، حيث حرف «إلى εἰς» يُعطي الآية قوة ديناميكية، قوة حركة بلا نهاية. لذلك فإن تقدُّمنا ونموُّنا في الوحدة مع الله وبعضنا مع بعض في الله هو تقدُّم ونمو بلا نهاية، وفيه ديناميكية لا تنتهي، لماذا؟ لأننا نتقدَّم إلى هدف لا نهائي، نتقدَّم إلى قامة المسيح اللانهائية في وحدته بالآب، نتقدَّم إلى الوحدة التي بين الآب والابن، وهذه الوحدة حقيقة لا يمكن استنفادها أو ادعاء الوصول إلى نهايتها، ولكننا باستمرار نؤول إليها.



والآن السؤال هو: إذا كنّا دائماً في الطريق إلى الواحد؛ إذا فكيف نكون مُكَمَّلِينَ؟! ألا يوجد تناقض بين هذا وذاك؟

هنا سر المسيح.

المسيح هو الطريق. معنى هذا أن أي إنسان سائر في الطريق، يكون قد وصل إلى المسيح. فالمسيح هو غاية الطريق وهو نفسه الطريق. والإنسان الذي هو في الطريق هو كامل بسبب وجوده في المسيح، ولكن ما زال عليه أن يسعى نحو الكمال. والكلام هنا ليس متناقضاً كما قد يبدو للذهن.

ذلك لأن الحديث عن اللانهايات دائماً يبدو متناقضاً، إذا قيس بمنطق المحدوديات؛ فمثلاً قد تقول إنك تُدرك شيئاً من الفراغ اللانهائي، وفي نفس الوقت إذا سئلت عن نسبة ما تُدركه منه تقول إنه يُعتبر لا شيء بالنسبة للانهائية!! وسبب ذلك يكمن في أن جزءاً من اللانهائية يُعتبر لا نهاية وهو في نفس الوقت يُعتبر صغراً بالنسبة للانهائية! لذلك فالكلام عن اللانهائيات دائماً يبدو متناقضاً مع بعضه. ذلك لأننا نتكلّم عنه بلغتنا المحدودة، التي لا تصلح أبداً للتعبير عن اللامحدود!

«مُكَمَّلِينَ إلى واحد»، يبدو فيها تناقض:

«مُكَمَّلِينَ» تعني الوصول إلى النهاية وبلوغ الكمال.

«إلى واحد» تعني أننا ما زلنا في الطريق، نسعى باستمرار نحو الكمال.

ولكن في هذا التناقض يكمن سر المسيح، هذا الذي وُحّد المتناقضات، جمع في نفسه اللانهائية مع الطبيعة المحدودة، وُحّد الزمن المحدود مع الأبدية اللامحدودة، وُحّد في شخصه الجسد مع اللاهوت، وُحّد محدوديتنا مع إمكانياته اللامحدودة.

أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد

هناك آيات أخرى عديدة فيها حرف «إلى»، بنفس هذا المعنى الممتد:

+ «لكي تمتلئوا إلى إلى إلى كل ملء الله» (أف ٣: ١٩).

الشيء الطبيعي أن يأتي فعل "يتمتلئ" مع حرف "ب"، فمثلاً نقول إن الكوب يتمتلئ بالماء، هذا هو التعبير اللغوي السليم. ولكن لا يصح أن يقال: "الكوب يتمتلئ إلى الماء".

ولكن الأمر مختلف في الإلهيات. فهنا لا يجوز أن يُقال "لكي تمتلئوا بكل ملء الله"، لأن ملء الله لا نهائي، ولا يمكن استنفاده أبداً أو بلوغ نهايته، لذلك فنحن نمتلئ إليه، ومهما امتلأنا فلا يزال أمامنا مقدار لانتهائي لم نبلغه بعد، بل ولن نزال في الأبدية السعيدة نزداد ونمتد بلا نهاية في الامتلاء «إلى كل ملء الله».

+ كذلك في إنجيل السامرية يقول:

«الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو ٤: ١٤).  
هنا أيضاً «إلى إلى» تُعطي معنىً ممتداً إلى ما لا نهاية.

+ «ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد» (يو ١١: ٥٢).

هنا أيضاً لم يقل يجمعهم في الوحدة، بل إلى واحد.

+ كذلك في كلام بولس الرسول عن الجسد الواحد، وعن بلوغنا قامة ملء المسيح، يُكرّر حرف إلى = "إلى" عدة مرات:

«إلى إلى إنسان كامل، إلى إلى قياس قامة ملء المسيح،... ننمو في كل شيء إلى إلى ذلك الذي هو الرأس، المسيح» (أف ٤: ١٣ و١٥).

«وليعلم العالم أنك أرسلتني وأحببتهم كما أحببتني»<sup>(١٤٥)</sup>

ما هي علاقة هذا الجزء ببداية الآية: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مُكَمَّلين إلى واحد...؟»

قلنا إن كلمة "مُكَمَّلين" جاءت في صيغة المبني للمجهول، أي أن وصولهم إلى كمال الوحدة لم يأت نتيجةً لسعيهم أو لشطارتهم أو أي صلاح فيهم، بل بسبب وجود المسيح فيهم ووجود الآب في المسيح، وبالتالي وجود الوحدة التي بين الآب والابن فيهم، بفضل وجود هذه الوحدة الإلهية فيهم صاروا مُكَمَّلين إلى واحد.

هنا استعلان لعمل إلهي بارع يُقنع العالم بحقيقتين:

الأولى: «ليعلم العالم أنك أرسلتني..» وهذه تكرر لنهاية عدد ٢١: «ليؤمن العالم أنك أرسلتني»، وهو يُشبه أيضاً ما قاله الرب عند إقامة لعازر من الموت (يو ١١: ٤٢)، وذلك لأن وصولهم إلى أن يكونوا «مُكَمَّلين إلى واحد» بفضل حلول وحدة الآب بالابن فيهم يُعتبر عملاً إعجازياً على مستوى إقامة ميت من القبر، فيجعل العالم يؤمن بالمسيح وبارسالته من قبل الله.

والثانية: «ليعلم العالم أنك...أحببتهم كما أحببتني»

كيف عندما يكونون «مُكَمَّلين إلى واحد» يعرف العالم أن هؤلاء محبوبون من الله بدرجة فائقة؟ لأن وجود هذه الوحدة الفائقة في أي جماعة مسيحية هو دليل أن هذه الجماعة أخذت من الله أعظم عطية يمكن أن يعطيها الله لبني البشر. فأعظم

---

(١٤٥) هذا الجزء قبل في الكلمة السابعة، ولكننا نقلناه إلى هنا لأنه يختص بالآية (يو ١٧: ٢٣).

عطية يمكن أن تناولها الخليقة من الله هي أن يحل فيها الابن والآب فيه، وبالتالي تحل فيها الوحدة الفائقة التي بين الآب والابن. هذه أعظم منّة يُمكن أن يَمَنَّ بها الخالق على خليقته. لا يوجد في تاريخ الكون كله منّة أعظم من هذه. بل ولا الملائكة نالوا مثل ذلك... فإنها هي الأمور «التي تشتهي الملائكة أن تَطَّلِعَ عليها!» (١بط ١: ١٢). فحينما يُنعم الله بهذه المنّة على جماعة من البشر، فهذا دليل قاطع أنه يُحب هذه الجماعة فوق كل شيء.

«...أحببتهم كما καθώς أحببتي»

كلمة «كما καθώς» هنا فيها صعوبة كبيرة: كيف يُمكن أن نكون محبوبين من الآب كما يحب ابنه الوحيد؟ وكيف يبقى بعد ذلك هو الابن الوحيد μονογενής الذي استقطب منذ الأزل كل طاقات الحب اللانهائية الموجودة في قلب الآب؟ الذي أفرغ فيه الآب منذ الأزل كل طاقات الحب الأبوي التي تُشكِّل كيانه الأبوي غير المحدود؟

الحقيقة أن الله لا يُحبُّنا كأبناء بجوار الابن الوحيد، أو بالإضافة إلى الابن الوحيد، وكأننا آخرون غيره، ولكنه يُحبُّنا في الابن الوحيد. فمحبتته لنا متضمّنة في محبته لابنه الوحيد لأننا صرنا أعضاء من جسده، أو كأغصان فيه وهو الكرمة الحقيقية.

فمعنى «كما καθώς» في هذه الآية هو معنى ضمني (inclusive). فالآب يُحبُّنا بنفس الحب الذي يحب به ابنه الوحيد بصفتنا متداخلين في الابن الوحيد. فهو لا يُحبُّنا بحُبٍ آخر مساوٍ لحبه لابنه الوحيد، كأننا أبناء آخرون بجواره أو بالإضافة إليه، حاشا!! وإلا فكيف يُدعى هو الابن «الوحيد» μονογενής؟ ولكنه يحبنا

كما يحب ابنه الوحيد بالمعنى الضمني، أي بمعنى أنه يحبنا بحب متضمن في حبه لابنه الوحيد لأننا أعضاء جسده.

يشرح القديس غريغوريوس النيسي هذه الآية بالمعنى "الضمني" هكذا:

«وَأَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي»، لأنه إن كان الآب يحب الابن ونحن جميعًا صرنا في الابن، نحن الذين بالإيمان به قد صرنا جسده؛ فبالتالي الذي يحب ابنه الخاص يحب جسد ابنه كما καθώς يحب ابنه نفسه، لأننا نحن جسده [١٤٦].

ويشارك أيضًا القديس أغسطينوس في شرح هذا المعنى "الضمني" لحب الآب

لنا:

«إِنَّكَ أَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي» تعني أن الآب يحبنا في ابنه، لأنه اختارنا فيه قبل تأسيس العالم. فالذي يحب ابنه الوحيد يحب بكل تأكيد أعضاء الذين أدخلهم في التبني بواسطته... إذن «إِنَّكَ أَحْبَبْتَهُمْ كَمَا أَحْبَبْتَنِي» لا تعني شيئًا آخر سوى «إِنَّكَ أَحْبَبْتَهُمْ لِأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي»، لأن الآب لا يستطيع أن لا يحب أعضاء ابنه بينما يحب ابنه نفسه، وهو يحبهم ليس لأي سبب آخر سوى لأنه يحب الابن نفسه. وهو يحب ابنه من جهة لاهوته لأنه مولود منه ومساوٍ له، كما يحبُه من جهة ناسوته

(١٤٦) مقالة في شرح الآية «فحينئذ الابن نفسه أيضًا سيخضع» (١كو ١٥: ٢٨)

لأن الكلمة الوحيد قد صار جسداً، وبالتالي بسبب الكلمة، قد صار  
جسد الكلمة محبوباً لدى الآب. وأمّا نحن فهو يحبُّنا بقدر ما نكون  
أعضاء ابنه المحبوب [١٤٧]

هذا المعنى "الضمني" لحب الآب لنا المتضمَّن في حبه لابنه الوحيد هو من  
المعاني التي يعود إلى شرحها أبونا الروحي - الأب متى المسكين - في مواضع كثيرة  
من كتاباته. ففي كتاب "الإيمان بالمسيح" يقول:

[في المسيح يسوع انسكبت كل محبة الآب المطلقة، وكل رحمته،  
وكل أبوته المطلقة بمجدها وكرامتها، لذلك بدون المسيح وخارجه لا  
يتبقى لله محبة لإنسان ما قط، ولا رحمة ولا أبوة بل ولا حياة أيضاً.  
لذلك يقول الكتاب: «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء (يخصُّنا)  
في يده. فالذي يؤمن بالابن له حياة أبدية» (يو ٣: ٣٥)]

(الإيمان بالمسيح ص ٦).

ويقول أيضاً في نفس الكتاب:

[إن صفتي المحبة والطاعة اللتين في الذات الإلهية ليستا منغلقتين على  
نفسيهما في الآب والابن، بل فائضتان بالخير العميم على الخليقة  
كباقي صفات الله!...]

وهكذا أحبَّ الآب العالم من خلال حبِّه لابنه [الإيمان بالمسيح ص ٦١].

وأيضاً:

[لأن حبه الذاتي لابنه غير محدود ولا محصور قط، فهو يشمل الخليقة كلها أيضاً] (الإيمان بالمسيح ص ٨).

[فالله هو أبونا بسبب يسوع المسيح ابنه] (الإيمان بالمسيح ص ٧)

وهذه الحقيقة الأخيرة يوضحها أكثر القديس أناسيوس قائلاً:

[لسنا نحن أبناء الله بالطبيعة، بل هذا يخص ابن الله الذي فينا، وكذلك ليس الله الآب أباً لنا بالطبيعة، بل هو أب للكلمة الذي فينا، الذي فيه وبواسطته نحن نصرخ "يا أبا الآب!" وهكذا الذين يرى الآب فيهم ابنه الخاص فهؤلاء يدعوهم بنين له] (١٤٨)

ويعود أبونا الروحي - الأب متى المسكين - ويقول في مقالة "المحسوب":

[لقد ملأ الابن قلب الآب، فلم يغدُ الآب يرى أو يحب إلا في الابن، فنحن محبوبون لدى الآب في الابن، أي في المسيح] (المحسوب ص ٦).

وفي شرحه لإنجيل يوحنا (ص ١٠٩٠) يقول:

[لقد امتدَّ مجال حب الله الأبوي لابنه الوحيد، فشمل كل الذين آمنوا به وقبلوه... لقد نلنا بالتبني عينة من حب الله الأزلي للابن: «لأنك أحببتي قبل إنشاء العالم»، «وأحببتهم كما أحببتي»]

والقديس أنثاسيوس يقارن بين مسرة الآب بابنه الوحيد في الأزلية كما يقول سفر الأمثال على فم الابن: «كنت كل يوم لذته» (أم ٨: ٣٠)، وبين مسرته بيني البشر كما يقول نفس سفر الأمثال بعدها مباشرة: «ولذاتي مع بني آدم» (أم ٨: ٣١)، ويبيّن أن المسرة الثانية هي متضمّنة في الأولى:

[الآب يُسرُّ بالابن، وبنفس هذا السرور يُسرُّ الابن بالآب قائلاً:

«كنت موضوع مسرته، وكنت كل يوم أفرح أمامه» (أم ٨: ٣٠)

وهذا أيضًا يثبت أن الابن ليس غريبًا عن جوهر الآب

بل إنه من نفس هذا الجوهر.

لأن الله ليس بمحتاج أن يصطنع لنفسه سببًا خارجًا عن ذاته ليُسرَّ به،

بل الكلمات تُشير هنا إلى ما هو من ذات الله ومساوٍ له.

فمتى كان الآب بدون سرور؟

وإن كان دائم المسرة فلا بد أن يكون موضوع مسرّته دائم الوجود.

فبما يُسرُّ الآب إلا بأن يرى نفسه في صورته الخاصة التي هي الكلمة؟

وإن كان بعد أن أكمل خلقه العالم يُسرُّ أيضًا ببني البشر،

كما هو مكتوب في نفس سفر الأمثال (يقصد «ولذاتي مع بني آدم»)

فهذا له أيضًا نفس المعنى السابق،

لأنه يُسرُّ بهم هكذا: ليس بأن يدخل إلى نفسه سرورًا آخر (غير الأول)

بل بأن يرى فيهم الخليفة التي تكوّنت بحسب صورته الخاصة (أي ابنه)،

حتى أن سبب هذا السرور أيضًا هو مسرته بصورته الخاصة!]<sup>(١٤٩)</sup>



والآن من كافة هذه الأقوال يمكننا أن نلخص المعنى "الضمني" لمحبة الله للخليقة، ولبني البشر، وبصفة خاصة للمفدين منهم، ضمن محبته لابنه الوحيد، على ثلاثة مستويات هكذا:

+ الآب يحب الخليقة بصفته مخلوقة بواسطة الابن: «الذي به كان كل شيء»،  
فلأنها مخلوقة بواسطة الابن فهي أصبحت محبوبة لدى الآب، لذلك فحبه للخليقة هو متضمن في حبه لابنه الوحيد.

+ وعلى مستوى أرقى نقول إن قمة الخليقة وهو الإنسان ليس فقط مخلوقاً بواسطة الابن كباقي المخلوقات، ولكنه مخلوق على صورة الابن، على صورة اللوغوس، ولذلك صار مخلوقاً عاقلاً λογικός، وبهذه الصفة هو قمة الخليقة المنظورة، وقد صار محبوباً لدى الآب حباً مُضاعفاً: أولاً بصفته جزءاً من الخليقة المخلوقة بواسطة الابن، وثانياً لأنه يحمل في ذاته صورة اللوغوس كمخلوق عاقل.

+ وعلى مستوى ثالث أرقى أيضاً نقول إن الذين آمنوا بالابن وقبلوه صاروا محبوبين لدى الآب ليس فقط لأنهم من الخليقة المخلوقة بواسطة الابن، وليس فقط لأنهم من الخليقة العاقلة المخلوقة على صورة الابن، ولكن لأنهم اتحدوا بالابن وحلّ فيهم روح الابن الذي نالوه في المعمودية، صارحاً فيهم "يا أباً الآب".

وهكذا في كافة المستويات حب الآب للخليقة هو متضمن في حبه لابنه الوحيد.

«...أحببتهم كما أحببتني» في شرح القديس كيرلس الكبير

يعتمد القديس كيرلس الكبير في كافة شروحاته اللاهوتية على المبدأ «الخلاصي» الذي مؤداه أن كل ما فعله أو تقبله الرب في حال تجسده إنما كان «من أجلنا ومن أجل خلاصنا»، وبالتالي تكون لنا شركة ونصيب في جميع ما فعله أو تقبله «في الجسد لأجلنا». وهو يشرح هذه الآية «أحببتهم كما أحببتني» بنفس هذا المعنى: فكما قمنا فيه من الأموات لمّا قام هو من الأموات، هكذا صرنا فيه محبوبين من الآب لمّا تقبل هو حبّ الآب بصفة جديدة «في الجسد لأجلنا»:

[ولذلك يقول للآب: «إنك أحببتهم كما أحببتني» (يو ١٧: ٢٣).

فكما أنه لما استعاد الحياة بعد أن نقض سلطان الموت، لم يُكَمَّل قيامته من أجل نفسه هو بصفته الكلمة والإله، بل لكي يمنحنا نحن القيامة من خلال نفسه وفي نفسه، - لأن كل طبيعة الإنسان المقيّدة برباطات الموت كانت في المسيح - هكذا أيضاً يجب أن نعتبر أنه اقتبل حب الآب (بعد أن صار إنساناً) ليس لنفسه، - إذ أنه محبوب بصفة أزلية وفي كل حين - ولكن، لكي يحوّل إلينا نحن محبة الآب، لذلك اقتبل هذه المحبة من الآب من جديد بعد أن صار إنساناً.

فكما أننا سنكون مشابهين لصورة قيامته ومجده، بل وقد صرنا كذلك منذ الآن في المسيح كباكورة جنسنا وبدء لنا، هكذا أيضاً قد نلنا نوعاً من المشابهة معه في نوال حب الآب؛ غير أننا ننسب للابن الوحيد التفوّق في كل شيء، ونندesh حقاً من تحن الطبيعة الإلهية الذي لا يُجَارَى من نحنوا، إذ أنها تُضفي على الذين خلقتهم الأشياء التي لها، وتُشرك الخلائق فيما يختص بها وحدها!!] (١٥٠).

## مراجعة شاملة لطلبات الرب الثلاثة من أجل الوحدة

لو عُدنا وألَقَيْنَا نظرة شاملة على الثلاث طلبات التي طلبها المسيح في نهاية صلاته من أجل وحدة المؤمنين به، نجد في كل واحدة منها أن وحدة البشرية لا تتم إلا باتحادها بالله، وأن العامل الفَعَّال لتحقيق هذه الوحدة لا بد أن يكون عاملاً إلهياً كَيَانِيًّا، أي الله بكيانه وليس بمجرد نعمة أو مساعدة أو معونة يُتقدَّمُها لنا. هذا المعنى نجده بوضوح في الطلبتين الأولى والثالثة، وبطريقة خفيّة في الطلبة الثانية:

❖ الطلبة الأولى: «كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك

ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا» (٢١ع).

الكلمة الرئيسية في هذه الآية والتي تعطيها إمكانية التحقيق هي كلمة «فينا»، فالوحدة السامية جدًّا التي يطلبها لنا المسيح على مثال وحدته بالآب لا يمكن أن تتحقّق إلا بدخولنا في الآب وفي الابن، أي في مجال العلاقة التي بين الآب والابن، وحينئذ نكون واحدًا في الآب وفي الابن. فهذه النوعية من الوحدة لا يمكن أن تتم بمهارتنا أو بجهادنا أو بعملنا أو بمشيئتنا، ولكن فقط بدخولنا في الآب وفي الابن.

❖ الطلبة الثالثة: «أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مُكَمَّلِينَ إلى واحد»

(٢٣ع).

«أنا فيهم وأنت فيّ» تُعبّر عن حلول الله فينا، وبالتالي حلول الوحدة التي بين الآب والابن فينا، وهذه الوحدة حينما تحل فينا تجعلنا مُكَمَّلِينَ إلى واحد.

إذن ففي الطلبة الأولى الوحدة تتم بوجودنا في الله، وفي الطلبة الثالثة تتم بوجود الله فينا.

أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد

## ❖ الطلبية الثانية: «أنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني

ليكونوا واحدًا كما نحن واحد» (ع ٢٢).

أين هو العامل الإلهي في هذه الآية؟ ماذا أعطانا المسيح؟ إنه أعطانا «المجد». والمجد هو تعبير سري عن وجود إلهي فينا، كشف عن هويته القديس غريغوريوس النيسي والقديس كيرلس الكبير، وقالوا إنه الروح القدس. ذلك لأن المجد بالمفهوم الروحي هو طاقة التوهج بالحب الإلهي، طاقة البذل ومحبة الله التي «انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا» (رو ٥: ٥).

إنها النار التي جاء الرب يسوع لكي يلقبها على الأرض، نار الروح القدس، هذه التي حلت على الرسل يوم الخمسين، والتي سلّموها إلى كل الأجيال من بعدهم.

إذن «أنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» ترادف: أنا أعطيتهم الروح القدس.

هذا هو العامل الإلهي المخفي في هذه الطلبية والذي يجعلنا واحدًا: «ليكونوا واحدًا كما نحن واحد».

نُلخّص ما قلناه عن العامل الإلهي في طلبات المسيح الثلاث من أجل وحدتنا في الله:

- في الطلبية الأولى: هو وجودنا نحن في الآب والابن.
- في الطلبية الثانية: هو وجود الروح القدس فينا.
- في الطلبية الثالثة: هو وجود الآب والابن فينا.

إذن فالمسيح في كلٍ من هذه الطلبات الثلاث يطلب حلولنا نحن في الله أو حلول الله فينا.

والحقيقتان متلازمتان ومترادفتان، كما قال الرب عدة مرّات: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيّ وأنا فيه» (يو ٦: ٥٦)، «في ذلك اليوم تعلمون إنني أنا في أبي وأنتم فيّ وأنا فيكم» (يو ١٤: ٢٠)، «اثبتوا فيّ وأنا فيكم» (يو ١٥: ٤).

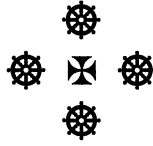
والقديس بولس يقول أحياناً إننا نحن «في المسيح»، وأحياناً أخرى إن «المسيح فينا»، والتعبيران مترادفان. صحيح أنه في الأمور المادية العبارتان غير متطابقتين؛ ولكن على المستوى الروحي يكون حلول المسيح فينا مرادفاً لوجودنا نحن في المسيح.

وهكذا نرى في الثلاث طلبات أن المسيح يطلب أن تتم وحدتنا بهذا العامل الإلهي الذي هو الوجود المتبادل بيننا وبين الله: أي وجود الله فينا ووجودنا نحن في الله. وهذا العامل الإلهي هو سر تحقيق الوحدة، الوحدة التي تفوق العالم، الوحدة الإعجازية التي عندما يراها العالم يكون كمن يرى ميتاً يقوم من الأموات، فيؤمن. ولذلك قال المسيح تعقيماً على كلٍ من الطلبة الأولى والثالثة: «ليؤمن (أو ليعلم) العالم أنك أرسلتني» (ع ٢١ و ٢٣)، وهي نفس العبارة التي قالها عند إقامة لعازر: «ليؤمنوا أنك أرسلتني» (يو ١١: ٤٢).

وقد قرأنا قول العلامة ترنوليان الذي يُخبرنا فيه أن المحبة والوحدة التي كانت بين المسيحيين الأوائل كان يتعجّب لها الذين هم من خارج، وينذهلون من استعداد

أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكملين إلى واحد

المسيحيين أن يموتوا الواحد من أجل أخيه، الأمر الذي ليس له مثيل أبدًا في وسط مجتمعاتهم، ولم يروه في حياتهم؛ هذا الأمر مساوٍ في جذبه للعالم وفي قيمته الكرازية لإقامة ميت من الأموات<sup>(١٥١)</sup>.



## صلاة

يا ربنا الحبيب يسوع،

يا من خلقتنا وقصدتَ قبل كل الدهور وقبل كل الخليقة أن تجعلنا قمةً لخليقتك،  
لكي توحدنا بك، ولكي تجمع كل شيء تحت رأس واحد في كيانتك الإلهي،

ثم كشفت لنا هذا السر الذي لم يُعرَف به بنو البشر في الأزمنة السالفة كما قد  
أُعلن الآن للقدسين بالروح أن الأمم شركاء في الجسد.

نحن شركاء في جسدك! هذا هو سر الدهور! هذا هو القصد الأزلي الذي كنتَ  
تفرح به في حضن الآب من قبل خلقه العالم.

قبل أن تؤسس الجبال، وقبل أن يُخلق العالم كانت لذتك مع بني آدم، كانت  
لذتك في هذا القصد: «ليكونوا واحدًا فينا»!

---

(١٥١) انظر قول العلامة ترتوليان الذي ذكرناه ص ١٣٦.

ربنا الحبيب يسوع،

هذا هو السر الذي هام به القديسون، حتى جعلهم يخرجون عن وعيهم،  
وسلب عقولهم، مثل أنبا مقار الذي كان كل حين مثل سكران بالأمور الإلهية،  
ومثل أنبا يوحنا القصير الذي لم يكن متفرغاً إلا للتأمل في الأسرار الإلهية.

أعطنا، يا رب، بصلواتهم وشفاعتهم أن ندرك هذا السر، وأن نفهمه، بل أن  
نعيشه.

حَلِ أَنْتَ فِينَا بِجِسْدِكَ وَدَمِكَ وَرُوحِكَ الْقُدُّوسِ، حَلِ فِينَا، وَاجْعَلْنَا كُلَّنَا وَاحِدًا.

أزِلْ مِنْ وَسْطِنَا كُلَّ مَرَارَةٍ، كُلِّ انْقِسَامٍ، كُلِّ غَضَبٍ، كُلِّ ضَعْفَةٍ؛

وأعطنا، بالعكس، الخليقة الجديدة التي انتقلت من الموت إلى الحياة بمحبتها  
لكل الإخوة. اجعلنا نحب بعضنا بعضاً من قلب طاهر بشدة، وعلى الأخص نحب  
البعيدين عنّا، المختلفين عن طبائعنا، الذين أخطأوا في حقنا. ساعدنا لنحبهم  
بصفتهم أعضاءك، بصفتهم أعضاءً في جسدك.

استجب لنا بشفاعة جميع القديسين الذين عاشوا هذه الوحدة، حينما نقول

لك: يا أبانا الذي في السموات....

## «أَيُّهَا الْآبُ أَرِيدُ أَنْ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي يَكُونُونَ مَعِي»

يمكن تقسيم هذه الآية (يو ١٧: ٢٤) إلى أربعة مقاطع هكذا:

«أَيُّهَا الْآبُ،

أَرِيدُ أَنْ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي، يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا،

لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أُعْطِيتَنِي،

لَأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ»

في هذه الطلبة يطلب المسيح أعز شيء إلى قلبه وهو أن نكون معه حيث يكون، لذلك بدأها وأنهاها (سفر ١ و ٤) بأهم ما يُعطيه دالة لانتهائية لدى الآب:

«أَيُّهَا الْآبُ

.....

.....

لَأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ»

فموضوع الطلبة الموجود في سطر ٢ و ٣ محصور بين سطر ١ و ٤ اللذين فيهما أقوى ما يمكن أن يسند هذه الطلبة لدى الآب! فالمسيح يبدأ ويُنتهي طلبته بدالته اللانهائية لدى الآب.



وكان إنساناً عزيزاً جداً لدى الملك يدخل إليه ويقول له: إن كنت حقاً تُحِبُّني، فافعل لي هذا وذاك!

ولكنها في حالة المسيح تكون: ”نما أنك تُحِبُّني حباً فائقاً لانهائيًا بما لا الأزلية كلّها، التي تفوق بلا قياس ملايين السنين، أي حباً يوازن ويفوق بلا قياس كل ما هو مخلوق في الزمن المحدود، وكل ما يختص بالطبيعة المخلوقة، فافعل لي هذا الأمر!“

هذا الاعتبار يجعل موضوع الطلبة (أي أن نكون مع المسيح حيث يكون هو) يهون (مع أنه ضخّم) إزاء السند الإلهي اللانهائي الذي يسندها!

فكأنني بالمسيح هنا يراهن بكل علاقته الحبية الأزلية المطلقة بالآب في سبيل إدخال أحبائه معه حيث هو كائن!

إنه هو نفسه الذي ألهم هذه الروح لعبده موسى:

«إن غفرت خطيتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت» (خر ٣٢: ٣٢)،  
ولرسوله بولس:

«كنت أودُّ أن أكون أنا نفسي محروماً من المسيح لأجل إخوتي أنسابي حسب الجسد» (رو ٩: ٣).

ولكنها هنا في حالة المسيح تأتي بإيجابية صرفة بدون أي احتمال لزعة علاقته بالآب: «أريد أن الذين أعطيتني يكونوا معي...

لأنك (أي بحق أنك) أحببتني قبل إنشاء العالم!»

أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا

«أيها الآب ... لأنك أحبيتني قبل إنشاء العالم»

«Πάτερ ... أيها الآب»

هذه الكلمة في فم المسيح لها معنى مطلق يفوق بلا قياس معناها حينما نقولها نحن. لأن الآب ليس أبًا بصفة مطلقة إلا للابن الوحيد، فكل كيان الآب متَّجه بصفة مطلقة منذ الأزل نحو ابنه الوحيد، وكل حبه وكل أبوته وكل عطفه الأبوي تنصب بالضرورة وبصفة مطلقة منذ الأزل في هذا الابن الوحيد.

وكذلك كل كيان الابن متَّجه بصفة مطلقة وأزليًا نحو الآب، كما تقول بداية إنجيل يوحنا: «والكلمة كان نحو الله πρὸς τὸν Θεόν». فالابن لا يوجد إلا بعلاقته البنوية المطلقة «نحو الآب»، أي أن كل كيان الابن ليس إلا حبًّا بنويًّا لانهائيًّا متَّجهًا نحو الآب!

وهذه العلاقة المطلقة المتبادلة بين الآب والابن كائنة هكذا منذ الأزل، قبل إنشاء العالم: «لأنك أحبيتني قبل إنشاء العالم!».

لذلك فعبارة «أيها الآب Πάτερ» في فم المسيح تلخّص في كلمة واحدة كل الحب الأزلي المتبادل بين الآب والابن قبل إنشاء العالم، فهي ترادف تمامًا "يا من أحبيتني بصفة مطلقة، كمحبوبك الوحيد، من قبل إنشاء العالم".

هذه المحبة الإلهية التي تربط الآب بالابن من قبل إنشاء العالم هي قوة لا نهائية فائقة تفوق بلا قياس أي قوة موجودة في العالم المخلوق، فعلى قدر قوة المحبة هذه، يطلب الابن أن نكون معه حيث يكون هو، وكأنه يوظّف هذه القوة اللانهائية لكي يسند بها طلبه لدى الآب.

لقد شرح أبونا الروحي - الأب متى المسكين - هذه العلاقة الفائقة التي بين الآب والابن هكذا:

[«الأبوة» في الله هي خاصة بـ «البنوة»،

وكذلك البنوة في الله هي خاصة بالأبوة،

بمعنى أن الآب هو أب للابن وحده، وأن الابن هو ابن للآب وحده.

كذلك أيضاً نفهم أن الابن ليس ابناً لأجل نفسه، بل هو كله للآب.

والآب ليس أباً لأجل نفسه، بل هو كله للابن...][<sup>(١٥٣)</sup>.

فكل كيان الابن كائن في علاقته البنوية بالآب، وكل كيان الآب كائن في علاقته الأبوية بالابن.

ويعود ويشرح ذلك في مقالة "المحسوب":

[إن كان المسيح هو محبوب الآب، كما قال المسيح عن وعي

واستعلان: «الآب يحب الابن» (يو ٣: ٣٥ و ٥: ٢٠)؛ فهذا هو حال ممتد

في قلب الآب إلى ما شاء الله. وهو حال واقع كامل لا يُبقي للابن شيئاً

خارج قلب الآب، إذ عاد المسيح وشرحها في سرّ قائلاً: «أنا في

الآب» (يو ١٤: ١٠)، حيث الأنا *ἐγώ* هو الكيان الكامل والكلّي

للمسيح الابن الذي ملأ قلب الآب.

ولكن كما أحبّ الآب الابن، هكذا أحبّ الابن الآب بذات الحب

وبكل الكيان الذي ملأ قلب الابن. لذلك أسرع المسيح من واقع

(١٥٣) شرح إنجيل القديس يوحنا ص ١٠٧٤

إحساسه بكيانه يقول: «والآب في» (يو ١٤: ١٠). فصار الحب في الآب والابن كياناً معبراً عن قوة تجاذب كلية، فلا نجد الابن خارج الآب ولا الآب خارج الابن، لذلك قال المسيح عن قناعة من واقع هذا الحب المالى للكيان بل والوجود الكلّي: «أنا والآب واحد» (يو ١٠: ٣٠) [١٥٤].

فالوجود المتبادل الذي للآب في الابن والابن في الآب، هو نتيجة الحب المطلق الذي يجعل كل كيان الآب موجوداً في الابن، وكل كيان الابن موجوداً في الآب. لذلك الآب في الابن، والابن في الآب، ولأجل ذلك الله واحد.

[لأن حب الآب للابن هو كل كيان الآب الذاتي، وحب الابن للآب هو كل كيان الذاتي، فالذي وحد الآب بالابن هو بهما المطلق] [١٥٥].

ربما بدأنا الآن نحس بالحجم اللاهائي لكلمة: «أيها الآب Πάτερ»، حينما ينادي المسيح بها الآب. هذه الكلمة في فم المسيح تُعبّر عن كل كيان، إنها ليست مجرد كلمة، ولكن المسيح يُلخّص فيها كل كيان وكل كيان الآب، فكل علاقته بالآب وكل علاقة الآب به متضمنة في هذه الكلمة: «أيها الآب Πάτερ»

لذا فكلمة «أيها الآب» بفم المسيح تُرادف تماماً السطر الرابع، أي المقطع الأخير من الآية الذي يقول فيه: «... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم».

فحينما يقول المسيح «أيها الآب» يقصد: "يا من أحببتني بكل كيائك الأبوي، يا من سكبت في كل كيائك الأبوي من قبل تأسيس العالم، بينما أنا ابنك أقدم لك من قبل تأسيس العالم كل كياني البنوي، ولا أحتفظ بشيء من كياني لنفسى".

(١٥٤) مقال "المحوب" ص ٤٠٣.

(١٥٥) شرح رسالة يوحنا الأولى ٤: ٩، ص ١٦١-١٦٢.

أو بمعنى آخر: «بحق أبوتك المُنطقَة لي وبنوّتي المطلقة لك، أريد أن تفعل هذا...».

هذه الأبوة وهذه البنوة تُرادف الحب الفائق اللاهائي الأزلي المتبادل بين الآب وابنه الوحيد من قبل إنشاء العالم.

وإذا اعتبرنا أن كل شيء مخلوق من الآب بواسطة الابن، أي أنه بالعلاقة التي بين الآب والابن تكوَّنت كل الخليقة المخلوقة، فلا بد أن تكون هذه العلاقة التي بين الآب والابن هي قوة فائقة لكل ما يوجد في هذا الكون الفسيح، لا يمكن أن نقارنَها بأي قوة أخرى مخلوقة. وبالتالي يكون المسيح قد استند في طلبه بسندٍ يفوق كلّ تصوُّر وكلّ ما يمكن أن نُعبّر عنه، ألا وهو حب الآب الأزلي له.

والآن ما الذي يطلبه المسيح؟ ما هو أعز طلب إلى قلبه حتى يوظّف له هذه القوة اللاهائية؟

«أريد أن الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا»

«حيث أكون أنا» ὅπου εἰμι ἐγώ ترجمتها الأدق «حيث أنا كائن» بصفة دائمة غير زمنية، أي منذ الأزل وإلى الأبد.

كرّر المسيح هذا التعبير «حيث أنا كائن» ὅπου εἰμι ἐγώ ثلاث مرات في إنجيل القديس يوحنا:

+ «إن كان أحد يخدمني فليتبِعني، حيث أنا كائن ὅπου εἰμι ἐγώ هناك أيضًا سيكون<sup>(١٥٦)</sup> خادمي» (يو ١٢: ٢٦).

(١٥٦) يلاحظ أن الفعل في عبارة «حيث أنا كائن» ὅπου εἰμι ἐγώ جاء في زمن الحاضر المستمر، بينما جاء الفعل في عبارة «سيكون خادمي» في زمن المستقبل لذلك لا يجوز ترجمة هذين الفعلين بنفس الزمن المضارع كما فعلت الترجمة العربية الدارجة: «وحيث أكون أنا هناك أيضًا يكون خادمي».

أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا

+ «أنا أمضي لأعدّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددتُ لكم مكاناً آتي أيضاً وأخذكم إليَّ حتى حيث أنا كائن ὅπου εἰμι ἐγὼ تكونون أنتم أيضاً» (يو ١٤ : ٣).

+ «أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أنا كائن ὅπου εἰμι ἐγὼ لينظروا مجدي» (يو ١٧ : ٢٤).

المسيح في هذه الثلاث آيات يُعبّر عن أعز ما يتمناه لنا: أن نكون معه "حيث هو كائن".

وأما هذا الموضوع أو هذا الوضع الذي يُشير إليه بقوله «حيث أنا كائن» (بصفة دائمة أزلياً وأبدياً)، فهو بلا شك "حضن الآب"!

«الابن الوحيد الكائن ὁ ὢν في حضن الآب هو خبّر» (يو ١ : ١٨).

حيث كلمة الكائن ὁ ὢν تُعبّر عن كيان المسيح الأزلي الأبدي، وقد صارت لقباً للمسيح (انظر رؤ ١ : ١٨) يُكتب حول رأسه في الأيقونات الطقسية.

ويلاحظ أن عبارة «حيث أنا كائن ὅπου εἰμι ἐγὼ» تتضمن مع تبديل ترتيب الكلمات عبارة ἐγὼ εἰμι مع كل ما تحويه هذه العبارة من مضمون لاهوتي ضخم.

والآن الرب يطلب من الآب أن نكون معه «حيث هو كائن»!  
طبعاً بصفة نسبية وليس بصفة مطلقة مثله، وبالنعمة وليس بالطبيعة مثله؛  
ولكن حتى مع هذه التحفظات، أن نكون معه في وضعه الفائق في حضن الآب! هذا شيء مهول!

هذا هو أعظم ما يشتهي المسيح: أن نكون معه في حضن الآب.

من أجل هذا أدخل نفسه ونزل من السماء. هذا ما يقوله القديس إيرينيئوس:

[من أجل هذا أدخل نفسه:

لكي يجمعنا في حضن الآب]<sup>(١٥٧)</sup>

آية عطية أعظم من هذه؟! وأي حب أعظم من هذا؟!

بالحق إن هذا هو «ما لم تَرَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر،

ما أعدّه الله للذين يحبّونه، فأعلنه لنا بروحه» (١ كو ٢: ١٠ و ٩)،

هو «ما لا يسوغ لإنسان أن يتكلّم به» (٢ كو ١٢: ٤)،

هو «الأمر التي تشتهي الملائكة أن تطلّع عليها» (١ بط ١: ١٢)،

ولكنها قد مُنحت لنا مجاناً بحق تجسّد ابن الله الوحيد واتحاده بطبيعتنا وتطهيره

إياها وخلقتها من جديد بالصليب والقيامة.

لم يمنح ذلك للملائكة، لأنه لم يتّحد بطبيعتهم. لم يصير الكلمة ملاكاً بل صار

إنساناً! (انظر عب ٢: ١٦).

اختار الطبيعة الأضعف ليمنحها النعمة العظمى التي تشتهي الملائكة أن تطلّع

عليها.

فلنُسبّحه ولنباركه ولنزده علوّاً!

ولنكن أمناء على ما أعطانا!

---

(١٥٧) ضد الهرطقات ٥ : ٢ : ١

أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا

[إننا نندعش حقًا من تحنُّ الطبيعة الإلهية الذي لا يُجارى من نحن،  
إذ أنها تُضفي على الذين خلَقَتْهم الأشياء التي لها،  
وتُشرك الخلائق فيما يختص بها وحدها!!] (١٥٨).

والآن ما هي حقيقة "حُضن الآب" الذي المسيح كائن فيه، والذي يطلب لنا  
أن نكون معه فيه؟

من البديهي أن "حُضن الآب" لا يتكوَّن من ضلوع جسدية، ولا يجوز تصوُّره  
بأي تصوُّر مادي، ولكن "حُضن الآب" تعبير بلغة البشر عن مجال حب الآب  
الفائق للانهائي. الحُضن في لغة البشر موضع القلب، مركز الحب. فأن احتُضن  
طفلاً أو شخصاً محبوباً معناها أن أضْمَّه إلى قلبي وأُحيط به بمجال محبتي، لذلك  
فحُضن الآب تعبير عن مجال حبِّ الآب الفائق للانهائي.

فحينما يطلب المسيح لأجلنا: «أريد أن يكونوا معي حيث أنا كائن» (أي في  
حُضنك)، فكأنه يقول: «أريد أن يتمتَّعوا معي، على قدر ما تسمح طبيعتهم،  
بالحب الفائق للانهائي الذي يربطني بك أيها الآب، أي أن يدخلوا عن طريقي  
(لأنني أنا هو الطريق وأنا هو الباب)، أن يدخلوا عن طريقي في مجال حُبِّك غير  
الزمني أيها الآب!»

المسيح يطلب لنا عطيةً فائقة، وهي أن نكون معه حيث هو كائن، في قلب  
الآب، في حب الآب. وبما أن حب الآب هو حب لا نهاية له، فنحن لن نستطيع



أبدأ أن تنتهي من استيعابه أو نصل إلى آخره، فهذا يُشبه مضمون الآية: «لكي تمتلئوا إلي كل ملء الله...».

الآن في الزمان الحاضر نبدأ استيعابنا للحقائق الأبدية، ثم نبحر فيها في الملكوت في الأبدية اللاهائية، التي لن نكف فيها من النمو في استيعاب حب الآب وفي الدخول مع المسيح حيث هو كائن، في حضن الآب وفي قلبه ومجال حبه.

هذا الطلب الذي طلبه المسيح هو فعلاً أسمى مطلب يمكن أن يطلبه لنا، ومن أجل ذلك شفعه بأقوى ما يُعطيه دالة لدى الآب، وهو ما عبّر عنه بقوله: «أيها الآب... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم».

ولكن نُكرّر ونقول: إنها علاقة نسبية، وليست أبداً على مستوى علاقة الابن الوحيد المطلقة بالآب؛ ولكنها مُتضمنة ضمن علاقة الابن الوحيد بالآب. فالآب يحبنا بحبه للابن الوحيد بصفقتنا جسده:

**[لأن الذي يحب ابنه الخاص يحب جسد ابنه، لأننا نحن جسده]** (بحسب تعبير القديس غريغوريوس النيسي، انظر ص ١٩٦).

**[والذين يرى الآب فيهم ابنه الخاص يدعوهم بنين له]** (بحسب تعبير القديس أنثاسيوس، انظر ص ١٩٨).

إن المسيح لم يكتفِ بأن يطلب لنا هذا الطلب بمجرد الكلام، ولكنه دَعَم طلبه بالفعل، بالحدّث، وذلك بإصعاد جسده وإدخاله إلى حضن الآب. وبذلك أدخلنا معه سرّاً، أدخل طبيعتنا معه إلى حضن الآب. فما أكمله الرب لنا بصعوده هو

أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا

بالحقيقة المستحيل الذي صار حقيقة! فقد أدخل طبيعتنا البشرية ”إلى الموضع الذي لا يدخل إليه ذو طبيعة بشرية“، كما تقول قسمة سبت النور:

**[ودخل داخل الحجاب، موضع قدس الأقداس، الموضع الذي لا يدخل إليه ذو طبيعة بشرية، وصار سابقاً لأجلنا (في الدخول بالجسد إلى هذا الموضع!) صائراً رئيس كهنة إلى الأبد على طقس ملكي صادق]**

ويلاحظ أن عبارة ”وصار سابقاً لأجلنا“ مقتبسة من (عب ٦: ٢٠):

«حيث دخل يسوع كسابق لأجلنا πρόδρομος ὑπὲρ ἡμῶν».

ولذلك استطاع بولس الرسول أن يقول: إنه «أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات» (أف ٢: ٦).

والرب نفسه قد وعدنا قائلاً:

«وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً، لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر» (لو ٢٢: ٢٩ و٣٠).

«من يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي، كما غلبتُ أنا أيضاً وجلسْتُ مع أبي في عرشه» (رؤ ٣: ٢١).

هذه الآية الأخيرة قوية جداً، فأن نجلس مع المسيح في ذات عرشه أقوى جداً من مجرد الجلوس على اثني عشر كرسيًا. شرح هذه الآية فائق تمامًا عن كل تصوّر بشري، وعن كل ما يستطيع العقل أن يقبله، ولولا أن الرب نفسه هو الذي نطق

بهذا الوعد، لاعتُبر مجرد القول بذلك نوعًا من الاجترار الزائد أو من التجديف. لذلك لا يمكن أبدًا شرح هذه الحقيقة، ولكننا نقبلها فقط بالإيمان. أما كلمة: ”كيف؟“ فنتركها - كما يقول القديس كيرلس الكبير - لنيقوديموس وأصحابه!

ويلاحظ أن اليهود تهكموا على كلام المسيح قائلين: ”كيف؟!“ مرتين: مرة بخصوص كلامه عن المعمودية: »كيف يمكن للإنسان أن يولد وهو شيخ؟ أَلَعَلَّه يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد؟!« (يو ٣: ٤)؛ ومرة أخرى بخصوص كلامه عن الإفخارستيا: »فخاصم اليهود بعضهم بعضًا قائلين: كيف يقدر هذا أن يُعطينا جسده لنأكل؟!« (يو ٦: ٥٢).

والمسيح لم يرد على سؤالهم، ولم يُجبههم على: ”كيف؟“، فهي حقائق لا تُشرح أو تُفسّر، ولكنها تُقبل بالإيمان: »أما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولادَ الله، أي المؤمنون باسمه« (يو ١: ١٢).

**«... لينظروا مجدي الذي أعطيتني»**

أي ”لينظروا توهّجي بالحب الإلهي الفائق،

لأن هذا هو مجدي الإلهي الحقيقي الذي لي منذ الأزل إلهيًا في حضنك، والذي أعطيتَه لي بصفة جديدة في الجسد نتيجة لدعائي:

»أيها الآب قد أتت الساعة: مجد ابنك!« (يو ١٧: ١).

»والآن مجدني أنتَ أيها الآب (في وضعي الزمني الجسدي) بالمجد الذي كان لي

أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا

عندك (إلهيًّا) قبل كون العالم» (يو ١٧ : ٥).

أريد أن يكونوا معي في حضنك أي في مجال حبك الفائق اللاهائي،  
لينظروا مجدي أي توهجتي بالحب الإلهي الفائق،  
لأنه لا يستطيع أحد أن يرى مجدي أو يحس به  
إلا إذا كان مغمورًا في مجال حبك أي في حضنك“.

محبة الله لا يمكن أن تُعرف نظرًا.

لا بد أن ندخل فيها لكي نعرفها.

لا بد أن ندخل في حضن الآب أي في مجال حبه،

لنرى مجد الابن، أي توهجه بالحب الإلهي الفائق في حضن الآب.

«وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة

حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين (أبعاد الحب الإلهي)

وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة» (أف ٣ : ١٩).

محبة المسيح تفوق المعرفة البشرية الطبيعية، ولكن معرفتها متاحة لمن دخل مجال

حب الله، لمن كان «متأصلًا ومتأسسًا في المحبة»، لمن دخل في حضن الآب.

لذلك يطلب المسيح أن نكون معه في حضن الآب لكي نستطيع أن نعاين مجده

أي حبه الفائق.

أقوى ما يُعطينا ثقة في الوصول إلى ذلك

أن هذا الطلب مُقدَّم من الابن للآب،

وبحق حب الآب للابن قبل إنشاء العالم!!

«لينظروا مجدي... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم!»

هذه هي الرؤيا الطوباوية التي يتمتع بها القديسون في الملكوت، والتي سنفرح بها أكثر بما لا يُقاس من أي مشهدٍ آخر رأيناه على الأرض.

فمهما رأينا على الأرض من مشاهد تسحر العيون وتفتن القلوب وتخلب العقول... فهي لا تكون شيئاً إزاء هذا المشهد: أن نرى مجد الابن، أي توهُّج الابن بالحب الإلهي في حضن الآب. لن يبقى هذا المشهد فقط لساعات، بل سيدوم الأبدية بأكملها! سننظر إليه بلا شبع بينما نكون مشدوهين ومأخوذين من عظمة هذا المنظر، وتكون النتيجة أننا «نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها» (٢ كو ٣: ١٨). فإذا كان يُعطى لنا هنا على الأرض إمكانية هذا التغير إلى تلك الصورة، فكم بالأحرى في الملكوت؟! عبَّر عن ذلك القديس يوحنا قائلاً: «سنكون مثله» لماذا؟ «لأننا سنراه كما هو» (١ يو ٣: ٢). والقديس يوحنا استمدَّ هذه الحقيقة من فم المسيح الذي قال: «حينئذ يضيء الأبرار كالشمس في ملكوت أبيهم» (مت ١٣: ٤٣)، وربط هذا القول برؤيته للمسيح يوم التجلي وكان وجهه يضيء كالشمس.

«وقد عرَّفْتهم اسمك وسأعرِّفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم»<sup>(١٥٩)</sup>.

---

(١٥٩) هذه الآية الأخيرة في صلاة المسيح (يو ١٧: ٢٦) سبق شرحها من ص ٦٧ إلى ص ٧٢.

أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا

## صلاة

ربنا الحبيب يسوع،

إلهنا الصالح الذي أحببنا حبًا يفوق كل وصف،

بل يفوق كل ما نستطيع أن نتصوره.

ما أعظم ما أعطيتَه لنا! إنك أدخلتنا في مجال حبك للآب وحب الآب لك،

هذا الحب الذي عبَّرَ عنه بأنه ”حيث أنت كائن“ في حضن الآب.

أنت تريدنا، يا رب، أن ندخل في نفس هذا المجال.

ما أعظم هذا المجد الذي تتمناه لنا.

ولكنك من أجل تحقيق ذلك دفعتَ ثمنًا لانهائيًا: دمك، آلامك، جروحك.

ولأجل هذا يحق لك أن تطلب لنا طلبات لانهائية.

نشكرك لأنك تسند الطلب اللانهائي بثمن لانهائي.

اجعلنا نتمسك، يا رب، بصلاتك،

علِّمنا أن نصلي بنفس كلماتك،

اجعلنا نتعلَّم أن نُقدِّمها للآب،

نُقدِّمها للآب متشفِّعين بنفس هذا الثمن اللانهائي الذي قدمته أنت ،

حتى نقدر أن ننال هذه العطايا لنا ولكل أحبائنا، لكل من نعرفهم،  
لكل الرهبان في ديرنا وفي بقية الأديرة،  
لكل أحبائك الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم.  
استجب لنا، أيها الآب السماوي، بسبب حبك لوحيدك يسوع،  
إذ نضع أنفسنا ضمن صلاته التي يرفعها عنا،  
ونقول معه: أبانا الذي في السموات...